المسلمون

وظاهرة الهزيمة النفسية

تأليف
عبد الله بن حمد الشبانة

دار طيبة للنشر والتوزيع

المسلمون

وظاهرة الهزيمة النفسية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ

الطبعة الثانية

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار طيبة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - السويدي - ش السويدي العام - غرب النفق
ص.ب: ٧٦١٢ - رمز بريدي: ١١٤٧٢ - ت: ٤٢٥٣٧٣٧ - فاكس: ٤٢٥٨٢٧٧

المسلمون

وظاهرة الهزيمة النفسية

تأليف

عبد الله بن حمد الشبانة

دار طيبة للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله القائل في محكم كتابه العزيز: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١)، والقائل سبحانه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢)، أحمده سبحانه حمد الذاكر الشاكر لآلائه وصنوف نعمائه.

وأصلي وأسلم على خيرته من خلقه وصفوة رسله وأنبيائه، وعلى آله وأصحابه وأوليائه، الذين أنعم الله عليهم بهذا الدين العظيم فاعتزوا بولائه، وسعوا في نشره و إعلاء بنائه ورفع لوائه.

أما بعد . . .

أهمية الموضوع والحاجة إليه:

فإن من أعظم ما أصيب به المسلمون اليوم ـ بل هو أعظمه ولاشك ـ ما سيطر عليهم من روح الانهزام أمام أعداء الإسلام، وضعف الهمة عن بعث روح المقاومة والمغالبة، والعجز عن مجرد التفكير في ذلك حتى بلغت الأمة الإسلامية في ذلك مبلغًا من الانحطاط والتقهقر والتخلف لا مزيد عليه؛ فرضيت بالقعود واستسلمت للغزاة، وتخلفت عن القيام بالواجب، واستحْلَت الإخلاد إلى الدعة والراحة والسكون والمهادنة طمعًا في العاجلة

(١) المنافقون: ٨

(٢) آل عمران: ١٣٩.

وفراراً من المواجهة، ورغبة في المزيد من الانغماس في الترف الذي غرقت في أوحاله إلى أذنيها وانطبعت به حياتها فتعودت عليه؛ فلا يزيدها العب منه إلا حرصاً على العب منه من جديد.

إن هذه الروح الانهزامية التي انتشرت في أوساط الأمة الإسلامية لأخطر عليها من كل سلاح، بل لقد قامت وحدها مقام كل سلاح يمكن أن يغزوها به أعداؤها في القديم والحديث. إذ حققت لأولئك الأعداء ما لم يكونوا ليستطيعوا تحقيقه بالقوة والبطش والجبروت، فحققوا عن طريق ما يسمى بالغزو الثقافي والفكري الذي أنتج تلك الهزيمة النفسية في مجتمعات المسلمين وأفرادهم على السواء وأدى إليها، ما لم يكونوا يحلمون به.

أجل، لقد فاقت نتائج ذلك الغزو توقعاتهم وأتى بما لم يكن في حسبانهم، لقد استطاعوا به وعن طريقه أن يقتلوا في الأمة روح العداء لهم، وليس ذلك فحسب بل لقد استطاعوا أن يقلبوا الموازين لصالحهم، فلم يكتف المسلمون المغزوون بموت ذلك الشعور الدفاق الذي كان لدى أسلافهم بعداوة الكافرين أيّاً كانوا وحيثما كانوا، بل لقد حولوا ذلك الشعور بالعداوة إلى شعور بالمحبة والصداقة والارتياح والرضى، بل ما هو أكثر من ذلك بالانبهار بالقوم والشعور بأنهم أصبحوا السادة والقادة والرواد، وأن ما وصلوا إليه من تقدم علمي وتفوق تقني يخولهم لأن يصبحوا كذلك، وأنهم لم يحققوا ما حققوه من ذلك إلا لقدراتهم الفائقة، ومستوياتهم العقلية المتميزة، وذكائهم الفريد، وتميزهم على غيرهم في كل شيء.

وتلك هي الطامة، أجل، إن وصول الأمور إلى هذا الحد هو الطامة الحقيقية، فماذا يريد العدو من عدوه أكثر من أن يشعر هو بمحض إرادته وبكامل

قواه العقلية بعلو قدر عدوه وعظم شأنه وكونه الأجدر بالريادة والأحق بالسيادة، ورضاه بطواعية واختيار تامَّين أن يكون موقفه إزاءه موقف التابع من المتبوع، بل موقف العبد من سيده؛ يأمره فيطيعه، وينهاه فيطيعه، يشعر بضعفه أمامه، وذلته بين يديه، واحتياجه إليه في كل وقت وحين.

وكيف لا تكون تلك هي الطامة والعدو يمسك بعدوه حينذاك من تلابيبه ويتحكم حتى في الهواء الذي يتنفسه؟!

إن هذا الشعور المخزي بالهوان والضعة والضعف والعجز عن مجاراة الأعداء بله التفوق عليهم؛ هو سبب كل ما حل بالأمة من نكسات ونكبات ومصائب، وهو الذي أدى إلى تكريس هذا الواقع السيئ الذي تحياه وتعيشه وكأنه شيء عادي لا يلفت نظراً ولا يستوجب اهتماماً.

ومن هذا المنطلق تأتي أهمية تناول هذا الموضوع بالبحث والتأمل والدراسة باعتباره - في نظري على الأقل - موضوع المواضيع وقضية القضايا.

إننا في أشد الحاجة إلى تعرية هذا المرض الخبيث، أعني مرض الهزيمة النفسية التي أناخت بكلكلها على واقع الأمة الإسلامية المهيضة الجناح فدمَّرتها وأتت على البقية الباقية من تماسكها، فتمزقت أوصالها، ونخر سوس الفرقة والتنازع في عظامها، فحولَّها إلى رماد بلا نار، بعد أن كانت يومًا نارًا متقدة بلا رماد، وشعلةً من الحماسة والجد والعمل المتواصل لخير الفرد والمجموع، ممسكةً بزمام القيادة، معتليةً سُدَّة الريادة والرئاسة، محققةً بذلك قدر الله لها ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

وحاجتنا الماسة لتعرية ذلك المرض وتشخيصه ليست لذاتها، وإنما لتكون

تعريتنا له وتشخيصنا إياه أولى مراحل علاجه، وأول خطوة في سبيل القضاء عليه؛ فهو مرض فتاك غاية في الخطورة؛ لأنه يقلب موازين الأشياء، ويعكس المفاهيم المتعارف عليها، فيصبح العدو ـ تحت تأثيره ـ صديقًا، ويغدو الأبيض أسود والأسود أبيض، ويصير الناصح في نظر المصاب بهذا المرض القاتل غاشاً، والغاشّ له ناصحًا.

بل إن المريض بهذا الداء الشنيع لينظر إلى ضعفه وهوانه وذله نظرة القوي إلى قوته والعزيز إلى عزته، فلا يستنكر من نفسه إخلادها إلى الدعة، ورضاها بالدونية، وانغماسها في حَمأة الصغار والمذلة، وإنما يرى ذلك كله شيئًا عاديًا ما دام يجد المأكل والمشرب ووسائل المتعة الأخرى سهلة المتناول، يسيرة التكاليف؛ فلم تعد له غاية شريفة عظمى يسعى لها، ولم يعد له هدف أسمى يعمل لتحقيقه؛ إذ صغر هو في عين نفسه، وتطامنت كبرياؤه التي كانت تملأ جوانحه، وذلت عزته التي كانت تملأ عليه إهابه، وتجري في دمه، وتُرَى آثارها في حركاته وسكناته. لقد سكن كل ذلك، وخمد كل ذلك، وتحول هذا المنهزم المغلوب على أمره إلى إنسان آخر؛ تابع ذليل، خائر القوى، شديد التعلق بغالبه، دقيق التقليد لغازيه، حتى لا تفوته شاردة ولا واردة إلا ويقلّده فيها بحذق ومهارة.

أفلا يكون هذا إذًا مرضًا؟ وألا يكون هذا المرض خطيراً وهذه هي أعراضه ونتائجه؟ وألا نكون ملزمين بتقصي أسباب ذلك المرض ودراسة عوامل تكوينه للعمل على مكافحته والقضاء عليه من جذوره بعد أن ظهرت لنا آثاره الخطيرة وتبينت نتائجه المدمرة؟

لا أعتقد أن أحدًا يخالفني في الإجابة على جميع تلك التساؤلات

بـ «بلى» إنه مرض ومرض خطير، والبحث في سبل القضاء عليه واستئصاله من قلوب المسلمين ونفوسهم أفرادًا ومجتمعاتٍ أمر من أوجب الواجبات وأهم المهمات وألزم الفروض.

لهذا جئت أحاول هنا فعل شيء من ذلك - عن طريق التعرض والإلمام السريع - حيث يحتاج الحديث عن مثل هذا الموضوع باستيفاء وتوسع - وهو على هذا القدر من الأهمية التي أشرنا إليها - إلى الكثير من الوقت، والكثير من الصفحات مما لا يتيسر لنا الآن.

فبعد مدخلٍ حددت فيه مفهوم هذا المصطلح موضوع بحثنا وجوهره «الهزيمة النفسية»، وتمهيدٍ تناولت فيه مسألة وجوب الاعتزاز بالإسلام من قبل أهله، وأن يشعروا بالفوقية على غيرهم.

حاولتُ في هذه الإلمامة العجلى أن أبين أهم مظاهر تلك الهزيمة النفسية لدى المسلمين، وأبرز أعراض ذلك المرض الخطير فيهم مُركزًا على ثلاثة مجالات من مجالات حياتهم: هي مجال الفكر، ومجال النظم، ومجال السلوك؛ باعتبار أن الفكر هو الذي يصنع الأمة ويصوغ حياتها ويُعبِّر عنها، ومن خلاله يتحدد موقعها بين الأمم، وأن النظم هي الأطر التي يصاغ فيها ذلك الفكر على شكل خلاصات تضبط طريقة سير الأمة نحو تحقيق أهدافها وبناء نهضتها، وأن السلوك هو المرآة التي تنعكس عليها آثار ذلك الفكر وتلك النظم.

فإن كان الفكر راقيًا راشدًا كان سلوك الأمة كذلك راقيًا راشدًا، وكانت الأمة في مجموعها أمة راقية راشدة مؤمنة عظيمة، وإن كان الفكر منحطًا خاملاً سفيهًا قاصرًا كانت الأمة كذلك سواء بسواء، وكذلك إن كان الفكر في الأمة أصيلاً نابعًا من ذاتها كانت الأمة تبعًا لذلك غنية بأصالتها قوية في ذاتيتها،

وإن كان فكر الأمة مستورداً ملفقاً كانت الأمة نتيجة ذلك ضعيفةً في نفسها وعالةً على غيرها ومفكّكة الأوصال لاختلاف المنابع التي تستقي منها فكرها وثقافتها.

أرأيت إذاً أهمية هذه الجوانب الثلاثة؟

ولكي نظل في حدود ـ التعرض والإلمام السريع ـ كما ذكرت سلفاً، ولكي لا تجرفنا سعة الموضوع فنغرق في بحره الخضم؛ قصرتُ البحث في مجال الفكر على نوعين منه فقط اخترتهما لأهميتهما البالغة وقدرتهما على تشكيل فكر الأمة وصياغة حياتها وهما: الفكر التربوي، والفكر الإعلامي.

وللسبب نفسه كذلك اكتفيتُ بالحديث عن نوعين من النظم رأيت أنهما أكثر تلك النظم تأثيراً في حياة الأمة وإسهاماً في كينونتها، وأبرزها أثراً في إعلاء شأن الأمة أو خفض شأنها وإهباطه وهما: النظام الاقتصادي والنظام السياسي. أما النظام الاقتصادي فلأن الاقتصاد هو الموجه لحركة الأمة، وخاصةً في عصرنا الحاضر، وأما النظام السياسي فأخذاً بمقولة التابعي الجليل عبد الله بن المبارك رحمه الله فيما يروى عنه من قوله: «الناس على دين ملوكهم» مما يعني أن النظام السياسي لأية أمة مصدر هام من مصادر تشكيل فكرها وصياغة ثقافتها.

ولكن هل يكفي الحديث عن المظاهر فقط ووصف الأعراض ليس إلا؟ والجواب الحتمي هنا هو: «لا» ـ تقال بملء الفم ـ فليس ذلك كافياً البتّة إلا إذا كان يكفي من الطبيب أن يقول للمريض: أنت مريض بكذا وكذا، وتشكو من كيت وكيت، وعلتك هي كذا وكذا، وقد علمتُ بعلتك، وعرفت مرضك وبينتُ لك ما تشكو منه، فانصرف راشداً.

هل يكفي من الطبيب هذا؟ والجواب الذي يتفق عليه العقلاء هنا أيضًا هو: «لا» - تقال بملء الفم أيضًا وبكل تأكيد - إذ لا يكفي من الطبيب أن يصف الداء ولكن الأهم هو وصف الدواء.

وكذلك الحال بالنسبة لمن يتعرض لمعالجة داء من أخطر أدواء الأمة بل هو أخطرها على الإطلاق، أعني هذه الظاهرة التي بلغت غاية السوء - ظاهرة الهزيمة النفسية لدى المسلمين -؛ فإنه لابد وقد تحدث عن مظاهرها أن يتحدث عن مدى خطورتها وبالغ أضرارها وسيئ عواقبها على الفرد وعلى الأسرة وعلى الجماعة والأمة في مجموعها، ذلك أنها تحوِّل الأمة في نهاية أمرها إلى أمة هامشية مستضعفة لا وزن لها ولا كيان.

ومما ينبغي على الباحث أن يتعرض له وهو يناقش ظاهرةً كهذه أن يبحث في أسبابها والأمور التي أدت إلى وجودها لتكون معرفة تلك الأسباب والاهتداء إلى تلك الأمور مَعْبَرًا يعبرُ عليه الباحث إلى علاج تلك الظاهرة وطريقًا يصل من خلاله إلى حل تلك المشكلة، بل المعضلة بالنسبة للأمة التي تشكو منها؛ ليكون الحديث عن طريق ذلك العلاج لتلك الظاهرة بغية القضاء عليها واقتلاعها من جذورها هو آخر ما يبحثه وخاتمة ما يتطرق إليه في بحثه. وهو عين ما فعلتُه هنا إذ بعد أن تحدثتُ عن أسباب تلك الظاهرة وعوامل تكوينها تحدثتُ عن طرق علاج هذه الظاهرة ووسائل القضاء عليها.

وقد بينتُ في حديثي عن الأسباب أنها نوعان: أسباب داخلية تنبُع من داخل الأمة ذاتها ساعد على تكوينها عددٌ من الظروف التي مرت بها الأمة. وأسباب وعوامل خارجية لا يد للأمة فيها ولا سلطان لها عليها.

كما أنني أثناء حديثي بعد ذلك عن طرق علاج تلك الظاهرة - اخترت

طريقين بدا لي أنهما جماع طرق العلاج كلها.

الأول منهما: طريق التربية والتعليم فهي حقل مهم لتنشئة ناشئة الأمة على العزة والكرامة عن طريق المعلم القدوة والكتاب المدرسي الناصح والمنهج المقرر، الذي وعى واضعوه دورهم في حياة الأمة وأمانتهم الكبرى ومسئوليتهم العظمى عن أغلى ما تملكه الأمة، وهم أبناؤها وشبابها أمل حاضرها وعدة مستقبلها.

والثاني: طريق التوعية والإرشاد عبر كل الوسائل المتاحة والأساليب الممكنة بالكتاب والصحيفة والمجلة والإذاعة والتلفاز والفيديو والسينما والمسرح واللوحة والنشيد، أعني باختصار وإيجاز عبر الكلمة بقنواتها الثلاث مقروءةً ومسموعةً ومنظورةً، وعبر كل وسيلة أخرى يمكن التعبير بها والتأثير بها في جماهير الأمة لتوعيتها بأضرار الهزيمة النفسية ومخاطر الشعور الداخلي بالضعة والهوان، وأن ذلك آخر مسمار يُدَقُّ في نعش من يعيش ذلك فردًا كان أو مجتمعًا أو أمة. ويدخل في هذا الطريق ربط الأمة بتاريخها وتذكيرها بأمجادها لإيقاظ شعورها بعزتها وفخرها بانتمائها ليتبع ذلك اعتزازها بأصالتها ورفضها لكل دخيل من العادات والتقاليد ولكل مستورد من المبادئ والأفكار.

وكما أن الأمراض البدنية والأوبئة الخطيرة تُعالجُ بشكل غير مباشر بما يسمى بأسلوب الوقاية منها أو «الطب الوقائي»، عن طريق رصد تسرباتها والتنبيه على أضرارها والتوعية بمخاطرها وحث الناس على تجنب كل ما يؤدي إليها أو يساعد على انتشارها، ثم تُعالَجُ بشكل مباشر بعد أن تقع وتصبح حقيقةً ملموسةً عن طريق التشخيص، ثم وصف الدواء الناجع وحمل المريض على تناوله طمعًا في شفائه منها وهو ما يسمى كذلك بـ «الطب العلاجي».

فكذلك علاج الظواهر المرضية التي تستشري في جسم الأمة وعقلها على السواء ينبغي أن يأخذ المعالجون لها الوقاية في حسبانهم، وأن يسلك المعالجون لتلك الظواهر الطريقين معًا: طريق الوقاية وطريق العلاج، مع التركيز دائمًا على الوقاية منها قبل وقوعها، فَدِرْهَمُ وقاية خير من قنطار علاج، كما تقول الحكمة المأثورة، ولأن الاعتناء بمسألة الوقاية تلك سيُوفِّر على المعالجين الكثير من الوقت والجهد والتكاليف. هذا في دائرة الأمراض والأوبئة الجسدية؛ فما بالك بما هو أخطر وأهم وأعظم ضررًا مما يتصل بوجود الأمة نفسها وما يتعلق بأن تكون أو لا تكون - أعني ظاهرة هزيمة الأمة نفسيًا وشعورها بالضعف والهوان والدونية ورضاها بذلك، وقناعتها بالدَّور الخامل الذي تُرِكَ لها القيام به، وهو دور لا يتعدى التقاط فتات موائد الأمم الأخرى ولا يتجاوز البحث عن هوية في سجلات تواريخها لإلحاق نفسها بتلك الأمم مغلوبةً ذليلةً مهيضة الجناح!!

أجل، ما بالك بهذه الظاهرة الخطرة بل البالغة الخطورة؟ أليست أحوج في معالجتنا لها إلى التركيز على أسلوب الوقاية منها قبل أن تقع والتحذير منها قبل أن تصبح واقعًا مريرًا وأمرًا مشاهدًا وملموسًا؟

بلى إنها لأحوج ألف مرة من كل مرض عضوي مهما كان خبيثًا وفتاكًا، فالأمراض العضوية مهما اشتدت وكثرت وفتكت تظل أقل خطرًا وأدنى ضررًا من ضياع الأمة بكاملها وانسحاقها تحت أقدام أعدائها؛ تلعق أيديهم، وتُقَبِّل جباههم، وتحني هامتها أمامهم، وتُقدمهم على نفسها في كل شيء، فتعطيهم لتحرم نفسها، وتشبعهم لتجوع، وترويهم لتظمأ، وتنسى تاريخها لتعيش على هامش تاريخهم، وتسد كل باب لعلم أو أدب أو فن إلا الباب المؤدي إليهم؛ فلا تتلقى إلا عن طريقهم، ولا تأخذ إلا ما جاء منهم، ولا ترى إلا

هُمْ، ولا تسمع إلا ما يقولون، فالعين عن غيرهم في عمى، والأذن عن غير قولهم في صمم.

أي أنها بإيجاز شديد ألغت وجودها لتعيش وجودهم، ودمَّرت كيانها لتحيا في ظل كيانهم عيشة العبد الذليل الحقير الذي لا يساوي في نظر أسياده ـ وهم أعداؤه الحقيقيون ـ التراب الذي يقف عليه.

فأية معضلة أعظم من هذه المعضلة؟ وأي خطر أبلغ من هذا الخطر؟! وأي وباء أو مرض مهما كان خطيراً يرقى إلى مستوى خطورة مثل هذا التلاشي في كيان الأمة والانهيار في بنائها والتصدع في أركانها؟ لن تبلغ معضلة مهما عظمت قدر هذه المعضلة، ولن يبلغ وباء أو مرض مهما خطُرَ مستوى خطورة هذه الظاهرة القاتلة؛ لأنها في حقيقتها موتٌ لا حياة معه، وضلال لا رُشْدَ فيه، وانتهاءٌ بالنسبة لمن يعيشها حَكَمَ به على نفسه.

من أجل ذلك كله نؤكد أن جانب الوقاية من هذه الظاهرة قبل وقوعها أوجب وآكد من الوقاية من الأمراض كُلِّها ومن الأوبئة جميعًا؛ لأنها في نظر المتمعِّن الفاحص الخبير وباء الأوبئة ومرض الأمراض.

منهجي في البحث:

على أن منهجي في هذا البحث المتواضع قد اعتمد على تتبُّع بعض مظاهر هذه الظاهرة الخطيرة في المجالات الثلاثة التي حددناها، وهي مجال الفكر بشقيه: التربوي والإعلامي، ومجال النظم بشقيه: النظام الاقتصادي والنظام السياسي، ومجال السلوك بشقيه: الفردي والجماعي. (وأقول: بعض المظاهر لتعذر تتبع جميع تلك المظاهر لكثرتها)، ثم تحليل المظاهر وضرب

الأمثلة الحية لها من الواقع المعاشيّ للأمة الإسلامية واستنتاج مكامن الخطر في تلك الظاهرة المهلكة عن طريق مظاهرها التي تتبعنا ما تيسر لنا تتبعه منها، وعبر الأمثلة التوضيحية التي أمكننا ضربها لما سجلناه من مظاهرها، مستعينًا في ذلك أحيانًا ببعض ما كتبه جهابذة الفكر الإسلامي في هذا العصر حول هذه الظاهرة التي يندرج الحديث عنها غالبًا تحت حديثهم عن الغزو الثقافي للمسلمين وتأثيره في حياتهم، وعن الآثار الضارة للحضارة الغربية الوافدة على حياة المسلمين.

وحديثي عن بعض مظاهر هذه الظاهرة وضربي لأمثلة حية من الواقع لتلك المظاهر لا يكفي عن تتبع أسباب فُشُوِّ تلك الظاهرة في عقل الأمة ووجدانها، وسيطرتها على كل جزء من حياتها وكل ذرة في كيانها، لذلك قمت برصد ما يظهر لي أو ما أشارت إليه الدراسات التي سبقتني حول الموضوع من أسباب، محللاً لها، مُبيِّنًا ارتباطها بالمظاهر التي أدَّت إليها مكوِّنَةً تلك الظاهرة المفجعة «ظاهرة الهزيمة النفسية والخور والاستسلام».

وما قلناه من عدم كفاية تتبع المظاهر وحدها عن البحث عن الأسباب وإبدائها ودراستها ذاتية وخارجية، يقال أيضًا عن عدم كفاية بيان الأسباب وحدها ومناقشتها عن البحث عن طريق علاج تلك الظاهرة لمحو آثارها واقتلاعها من جذورها من فكر الأمة وعقلها وقلبها على السواء، وتخليص جميع مجالات حياتها من مظاهرها وآثارها المدمرة؛ مما جعلنا ملزمين بمناقشة أمر علاجها، وتقصي وسائل ذلك العلاج، وإيضاح كيفية المعالجة بكلٍّ منها، وبيان أقرب الطرق وأسهلها للوصول إلى الشفاء التام من ذلك المرض القاتل والوباء الفتاك بإذن الله.

منبهين إلى طريق الوقاية من تلك الظاهرة قبل أن تقع بالقدر نفسه من بياننا لطرق علاجها بعد وقوعها، موضحين في ذلك وسائل تلك الوقاية والأساليب الواجب اتباعها عند تنشئة أجيال الأمة لصياغتهم صياغةً تجنبهم الوقوع في هاوية تلك الظاهرة الخطيرة، وتكسبهم المناعة اللازمة ضد التأثر بأي فكر مخالف لعقيدة الأمة وتوجُّهها.

أما طريقة تناولي لمعالجة هذا الموضوع وتبويب مباحثه وترتيب مناقشة تفاصيله فقد رأيت أن تكون على النحو الآتي:

- مقدمة تتناول بيان أهمية الموضوع وشدة الحاجة إلى بحثه ودراسته وإيضاح منهجي في ذلك البحث وتلك الدراسة، والإشارة إلى ما سبق فيه من دراسات.

- ثم مدخل يتم فيه تحديد المقصود بـ «الهزيمة النفسية» ثم تمهيد نتحدث فيه عن الجذور الأولى للهزيمة النفسية في الأمة الإسلامية.

- ثم يأتي الفصل الأول متناولاً «مظاهر الهزيمة النفسية في المسلمين وخطرها» وفيه مبحثان: الأول: مظاهرها في:

١ - مجال الفكر «الفكر التربوي، الفكر الإعلامي».

٢ - مجال النظم «النظام الاقتصادي، النظام السياسي».

٣ - مجال السلوك «سلوك الفرد، سلوك الجماعة».

والمبحث الثاني: خطرها:

١ - في نطاق الفرد.

٢ ـ في محيط الأسرة.

٣ ـ في نطاق الجماعة والأمة.

ـ بعد ذلك يأتي الفصل الثاني الذي نرصد فيه أسباب الظاهرة وعوامل تكوينها وفيه مبحثان:

الأول: أسباب وعوامل ذاتية.

الثاني: أسباب وعوامل خارجية.

ـ وختام فصول بحثنا هو الفصل الثالث الذي خصصناه لاستعراض طرق علاج هذه الظاهرة ووسائل القضاء عليها وفيه مبحث واحد هو:

من تلك الطرق:

١ ـ طريق التربية والتعليم.

٢ ـ طريق التوعية والإرشاد (توعية الأمة بوجوب الاعتزاز بدينها والشعور بفوقيتها) في ربط دقيق للماضي العطر بواقعٍ حيٍّ متطورٍ عن طريق البناء الذاتي للأمة والاعتماد على النفس.

وحديثنا عن معالجة هذه الظاهرة يشمل عَبْر الطريقين اللذين ذكرناهما:

ـ علاجها قبل أن تقع بالعمل على الوقاية منها؛ وإن لم نتناول ذلك بشكل بارز.

ـ وعلاجها بعد وقوعها للقضاء عليها وإزالة آثارها في الفرد والمجتمع. وهو ما ركزنا عليه لكوْننا نعالج ظاهرةً معينةً محدّدةً قد وقعت بالفعل.

ـ وأنهيت البحث بخاتمة تتضمن تلخيصاً لأهم نقاطه وأبرز ملامحه وسماته.

الدراسات التي سبقت حول الموضوع:

أدت أهمية موضوع ظاهرة الهزيمة النفسية للأمة المسلمة وما ترتب على تلك الهزيمة من آثار التقليد والتبعية والذلة - إلى اهتمام العديد من رجال الفكر والقلم والغيرة بذلك الموضوع والكتابة فيه بأساليب مختلفة وطرق شتى.

وكل منهم يتناول الموضوع من الزاوية التي يراه من خلالها.

غير أن أكثر ما كُتِبَ حول الموضوع كان ينطلق من النظرة الكلية لأهم أسباب هذه الهزيمة النفسية وهو ما اصطُلِحِ على تسميته بـ «الغزو الثقافي والفكري» للأمة من قبل أعدائها، فكانت مجمل الكتابات التي دبجتها أقلام نُخْبَةٍ من مفكري الأمة وكُتَّابها تدور حول مفهوم ذلك الغزو وأسبابه ونتائجه وآثاره وطرق مكافحته وصده . . . إلخ.

كما ركز كثير من مفكري الأمة ونخبة كتابها المصلحين على مناقشة ما أدى إليه ذلك الغزو من تخلف المسلمين وتأخر ركبهم عن ركب الحضارة والمدنية الذي يَغُذُّ سيره، ووصْف لواقع الأمة المنهار في ظل تلك الهزيمة الروحية والنفسية التي طبعت حياة الأمة بطابعها، ودراسةٍ لأهم العوامل التي أدّت إلى تكريس ذلك الواقع الانهزامي المرير.

وسنستعرض في سطورنا القادمة بعضًا من تلك الكتابات المبثوثة في مؤلفات لأولئك المفكرين والباحثين حسب تسلسلها التاريخي، فمن أبرز وأقدم من كتب في ذلك الأمير شكيب أرسلان - رحمه الله - حين ألف كتابه الشهير «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟» في عام ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٨م جوابًا على رسالة بعثها الشيخ محمد بسيوني عمران إمام مهراجا جزيرة سمبس برنيو

(جاوه) تضمنت السؤال الذي جعله الأمير شكيب أرسلان ـ رحمه الله ـ عنوان جوابه وكتابه. حيث وجه الشيخ بسيوني رسالته تلك إلى الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ مقترحًا فيها أن يكتب الأمير شكيب لمجلة المنار التي كان يصدرها السيد رشيد رضا يومذاك مقالاً بقلمه السيال في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر، وأسباب قوة الإفرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة.

وقد بين الأمير شكيب في هذا الجواب الضافي والكتاب الكافي أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي، وأن المسلمين اليوم فقدوا تلك الأسباب التي ساد بها أسلافهم.

وقابل بين حالي المسلمين والإفرنج في هذا الزمان، ورد على مسلمي اليوم ما تلوكه ألسنتهم من مبررات وأعذار لواقعهم السيئ يعتذرون بها عن أنفسهم ويبررون بها عجزهم وضعفهم وتواكلهم.

وتحدث عن أهم أسباب تأخر المسلمين اليوم فأوضح أن في مقدمتها الجهل، والعلم الناقص، وفساد الأخلاق، ولا سيما أخلاق الأمراء والعلماء، وكذلك الجبن والهلع واليأس والقنوط مع نسيان ماضيهم المجيد وتنكرهم له. وشنَّع على الجمود والجامدين كتشنيعه على المتنكرين لماضي الأمة أو أشد، وقال: إن أولئك الجامدين فتنة لأعداء الإسلام، وحجة على الإسلام نفسه. وأثبت بالأدلة القاطعة أن الإسلام دين المدنية، وردَّ على حساد المدنية الإسلامية المكابرين. وأشار الأمير إلى حث القرآن على العلم، وأن حثه ذاك باعث للمسلمين على سبق الأمم في الرقي.

ووجَّه كلمةً لطلاب النهضة القومية دون الدينية الذين يقولون ما لنا وللرجوع إلى القرآن في ابتعاث همم المسلمين إلى التعليم، ويريدون نهضةً كنهضة أوروبا وطنيةً قوميةً لا دينية قائلاً لهم: إن النهضة إن جُرِّدت من دعوة القرآن يُخْشَى أن تفضي إلى الإلحاد، وتُؤدِّي بأصحابها إلى الإباحية، وعبادة الأبدان، واتباع الشهوات. وتساءل قائلاً: هل يظن الناس عندنا في الشرق أن نهضةً من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينية؟ وهل جرت نهضة اليابان دون تربية دينية؟ وأورد دليلاً على ذلك مقولة أحد زعماء ألمانيا الكبار في الرايستاغ منذ ثلاث سنوات - أي من تأليفه للكتاب - «إن ثقافتنا مبنية على الدين المسيحي»، وأكد المؤلف رحمه الله أنه لا توجد جامعة في ألمانيا أو انكلترا أو غيرهما من هذه الممالك الراقية من دون أن يكون فيها علم اللاهوت المسيحي.

ثم تحدث الأمير شكيب عن أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير وأن من أعظم تلك الأسباب فقدهم كل ثقة بأنفسهم، وهو ما عبرنا عنه في بحثنا هذا بـ «بالهزيمة النفسية لدى المسلمين».

وبعد تأليف الأمير شكيب لكتابه هذا بسنتين اثنتين أي في عام ١٣٥٠ هـ - ١٩٣٠ م - قام الأستاذان الجليلان محب الدين الخطيب ومساعد اليافي بتلخيص وترجمة كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» لمؤلفه أ. ل شاتليه رئيس تحرير مجلة (العالم الإسلامي) الفرنسية آنذاك، وأستاذ المسائل الاجتماعية الإسلامية في إحدى جامعات فرنسا.

وقد انطلق المترجمان الفاضلان في حرصهما على ترجمة هذه الفصول التي نشرتها مجلة العالم الإسلامي الفرنسية في عدد ضخم خصصته لها سنة

١٣٣٠ هـ ـ لقد انطلقا في ذلك من وجوب أن يعلم المسلمون ما يكيده لهم أعداؤهم، وما يُنْصَبُ لهم من شراك، وما يُبيَّتُ لهم من شر؛ لأن أولئك الأعداء واضعي مخططات الاحتواء والتدمير للأمة الإسلامية، إنما أرادوا هزيمتها الفكرية؛ لأن هزيمة الأمة في فكرها تُجرِّدها من الحصانة، وتتركها فريسةً لأي مرض أو وباء؛ فيسهل بعد ذلك احتواؤها وتفكيك معتقداتها.

وقد اعتبرنا ترجمتهما ونشرهما لتلك الفصول فيما بعد في كتاب مستقل استجابة لاقتراح وطلب الأمير شكيب أرسلان رحمه الله ـ من قبيل المساهمة في الكتابة عن موضوعنا المتعلق بالهزيمة النفسية للأمة باعتبار أن تلك الخطط التنصيرية الخبيثة قد كانت تستهدف إذلال المسلمين وهزيمتهم نفسيًا، وهو ما حدثَ فعلاً وتحقق مع شديد وبالغ الأسف.

وفي عام ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٣م وفق الله المفكر الإسلامي الكبير الشيخ أبا الحسن علي الحسني الندوي ـ وكان عمره آنذاك لم يتجاوز العشرين عامًا ـ لنقل وانتقاء مجموعة من شعر السيد حسين الإله آبادي من كبار شعراء اللغة الأوردية الهنود الذي واجه في أوائل هذا القرن العشرين المحنة التي عاشتها وما تزال تعيشها الشعوب الإسلامية التي مُنيَت بالحكم الأجنبي وسيطرة الحضارة الغربية ونظام التعليم الغربي، وما رافق ذلك ونشأ عنه من انهزامية يعبر عنها في علم النفس الحديث بـ «مركب النقص» وشعور زائد بتفوق الأجنبي الغازي حضاريًا واجتماعيًا وعقليًا وخلقيًا.

لقد واجه هذا الشاعر الكبير تلك المحنة القاسية ـ التي ما زالت تعيشها الأمة المسلمة ـ بأسلوب ساخر يختلف عن أساليب الأولين؛ فاختار الشيخ

الداعية أبو الحسن بعضاً من شعره ذاك وألقى الضوء على ما جاء فيه من معان عميقة وإشارات لطيفة، وتجسيم هذه المعاني والشهادة على صدقها وواقعيتها في ضوء الواقع والحوادث مؤيداً بالشهادات الأجنبية والأخبار الصحفية، وبدأ نشر مختاراته تلك وتعليقاته عليها في مجلة «الضياء» التي كانت لسان حال «ندوة العلماء» والمجلة العربية الشهرية الوحيدة في شبه القارة الهندية.

ثم أرسل سلسلة مقالاته تلك إلى صحيفة «الفتح» المصرية الإسلامية، التي كان يصدرها ويحررها محب الدين الخطيب وكانت ملتقى كبار الكتَّاب الإسلاميين آنذاك، ونشرتها «الفتح» في سنة ١٣٥٤ هـ.

وقد طلب منه محب الدين الخطيب عند زيارته للقاهرة في أوائل عام ١٩٥١م أن يقدم لتلك السلسلة وينشرها من دار «الفتح» في رسالة أو كتاب مستقل، ولكن أبا الحسن لم يُجِبْهُ إلى ذلك نظراً لمشاغله المتعددة يومذاك.

ولكنه أخيراً رأى الوقت قد حان لتنفيذ ما كان قد طلبه منه محب الدين الخطيب قبل ما يزيد عن ثلاثين عاماً، فأذن بإخراجها في كتيب مستقل سماه «الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف» فطبع ونشر من قبل دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م.

وفي عام ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٨م كتب المفكر الإسلامي الكبير مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ كتابه «شروط النهضة» الذي يرى فيه أن الاستعمار للبلاد الإسلامية ليس مجرد عارض بل هو نتيجة حتمية لانحطاط المسلمين إذ يقول: «لكيلا نكون مستعمَرين يجب أن نتخلص من القابلية للاستعمار».

ويضرب في موضع آخر من الكتاب مثلاً ببلاده الجزائر مقرراً أنها بلاد

ليس فيها طبقات وإنما هنالك صنفان من الناس: الذي يسكن المدينة والذي يسكن البادية، وأن رجل المدينة الذي رضي بالقليل من الأشياء قد تغلغلت في نفسه دواعي الانحطاط التي قضت على المدنيات المتعاقبة على بلاده من أيام قرطاجنة؛ فهو يحمل روح الهزيمة بين جوانحه، فقد عاش حياته دائماً في منحدر المدينة؛ إذ هو دائماً في منتصف طريق، وفي منتصف فكرة، وفي منتصف تطور لا يعرف كيف يصل إلى هدف؛ إذ هو ليس «نقطة الانطلاق» في التاريخ كرجل الفطرة ولا «نقطة الانتهاء» كرجل الحضارة، بل هو «نقطة التعليق» في التطور وفي التاريخ وفي الحضارة، فرجل المدينة إذاً يصدق عليه هذان الوصفان «رجل القلة» و«رجل النصف» الذي دخل في ميدان فكرة هي الإصلاح فمسخها «نصف فكرة» وأطلق عليها اسم «السياسة»؛ لأنه لم يكن مستعداً إلا لنصف جهد، ونصف اجتهاد، ونصف طريق[1].

وهذه الصورة التي صور بها المؤلف «رجل المدينة» في بلاده هي صورة رجل المدينة في كل مكان من ديار الإسلام في عصرنا الحاضر.

وهكذا يمضي المفكر الكبير في كتابه هذا في مناقشة هذه الأفكار البالغة الأهمية بأسلوبه الرصين المشرق القوي متحدثاً عن شروط نهضة العالم الإسلامي، معتبراً أن الإنسان والتراب والوقت وهي العناصر المكونة لأية حضارة بحاجة إلى إصلاح وتقويم وإعادة بناء، وأن أمر النهضة يستوجب تعليم «الإنسان الأمي» واستصلاح «التراب البائر» وإدراك قيمة «الوقت الضائع».

وفي عام ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥٠م ألّف الكاتب والداعية والمفكر الإسلامي الكبير أبو الحسن الندوي ـ حفظه الله ـ كتابه الذائع الصيت «ماذا خسر العالم

(١) شروط النهضة ص٧٦.

بانحطاط المسلمين؟» فتحدث في خمسة أبواب شملت خمسة عشر فصلاً عن مجيء الإسلام، وكيف كان نعمةً عظمى على الإنسانية بعد جاهلية جهلاء بلغت أدنى مستوى من الجهل والهمجية، وعن الوضع الجاهلي قبل الإسلام وأبرز سماته، وعن العصر الإسلامي والقيادة الإسلامية للعالم، ثم تحدث عن الانحطاط في الحياة الإسلامية وعدد مظاهر ذلك الانحطاط التي قد تعتبر أسبابًا له في الوقت نفسه إلى أن وصل إلى الحديث عن القيادة العثمانية ودورها في بعث الأمل وتجديد الرجاء لدى المسلمين في إزالة آثار ذلك الانحطاط، إلى أن أخذ الترك في الانحطاط هم أيضًا ودبَّ إليهم داء الأمم قبلهم الحسد والبغضاء والاستبداد، وغير ذلك من أسباب الضعف والانحطاط وعوامل الزوال.

كما تحدث عن العصر الأوروبي ومادّية أوروبا وسيرها في طريق الانتحار وعن رزايا الإنسانية المعنوية في عهد الاستعمار الأوروبي، وأخيرًا تحدث المؤلف عن قيادة الإسلام للعالم ونهضة العالم الإسلامي وأن المسلمين على علاَّتهم هم أمل الإنسانية ومعقد رجائها في تخليصها مما تعانيه من اضطراب وتيه وقلق، وختم كتابه بالحديث عن أهمية العالم العربي وزعامته للأمة الإسلامية ورجاء العالم الإسلامي من العالم العربي.

وشاهدنا من هذا الكتاب والذي يهمنا فيه بالدرجة الأولى هو المباحث المتعلقة بالانحطاط في الحياة الإسلامية، إذ يعتبر أبو الحسن الندوي من أوائل من عالج هذا الموضوع الهام وكتب فيه.

وفي العام الذي ألَّف فيه كتابه هذا أي (عام ١٣٧٠ هـ) كتب أيضًا كتابه «إلى الإسلام من جديد»، وهو مجموعة من المحاضرات التي كتبت وألقيت

في مناسبات مختلفة موجهة إلى الأمة الإسلامية عامة وإلى الأمة العربية خاصة التي من أفقها طلعت شمس الإسلام، وهدف منها ـ وفقه الله ـ إلى إيقاظ الشعور الديني في المسلمين، وإعادة الثقة إلى نفوسهم بمركزهم ومبدئهم وغايتهم في الحياة ورسالتهم للعالم البشري، وتهيئة النفوس لحمل هذه الرسالة وتبوء مركز القيادة والإمامة للعالم الحائر الثائر، وتجديف سفينة الحياة الضائعة بين الملاحين العابثين والركاب النائمين، حسبما أورده في مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٣٧٠ هـ.

أما المفكر الإسلامي والداعية والباحث والكاتب والمرشد الكبير أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ فقد أسهم بنصيب وافر من كتاباته ومؤلفاته وأبحاثه في الحديث عن داء «هزيمة المسلمين الروحية» العضال ووَصْف مظاهره وإيضاح أسبابه وبيان علاجه وكيفية القضاء عليه. فألّف في عام ١٣٧١هـ ـ ١٩٥١م كتابه «واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم»؛ فألقى نظرة سريعة على التاريخ الغابر للمسلمين، ثم تحدث عن أسباب عبودية المسلمين للغرب وهزيمتهم النفسية تجاهه.

ومثلما كان المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي يُركز في كتاباته المتعلقة بموضوعنا على بلاده «الجزائر» كان جُلُّ تركيز «المودودي» ـ رحمه الله ـ في كتابه هذا على بلاده باكستان بخاصة حيث قال في فصل بعنوان «ماذا نريد»: «قد استعرضتُ لكم تاريخ بلادنا الماضي وما عليه أوضاعنا الحاضرة وليس غرضي من كل ذلك أن أطعن في أحد، وإنما أردت بذلك أن تعرفوا الحالة الحاضرة وما تستند إليه من الأسباب والعلل التاريخية ليسهل عليكم أن تحيطوا علمًا ببرنامجنا العملي الذي وضعناه واخترناه مستمدين التوفيق من الله

ومتوكلين عليه وحده لإصلاح «باكستان» في مثل هذه الأحوال، وجعلها رافعة بيدها لواء النشأة الإسلامية الجديدة في العالم كله»[١].

وبعد تأليف المودودي رحمه الله لكتابه هذا بعام واحد أي عام ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢م ألف كل من الدكتور مصطفى الخالدي والدكتور عمر فروخ كتابهما الذي اشتهر فيما بعد «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» وقد كان عبارة عن عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي.

وصلة هذا الكتاب بموضوعنا الذي نحن فيه تأتي من خلال تحقُّق غرض المبشرين وهو (إخضاع الشرق للاستعمار الغربي)؛ فقد استطاعوا بجهودهم وجهود أخرى مختلفة ومتنوعة تحقيق أعلى قدر ممكن من النجاح في عملية الإخضاع تلك، فخضع الشرق للغرب وذلَّ واستكان له بشكل فاق تصور الغرب نفسه، وانهزم الشرق أمام الغرب نفسيًا وروحيًا قبل انهزامه عسكريًا أو اقتصاديًا.

وفي عام ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤م أخرج الدكتور محمد محمد حسين - رحمه الله - كتابه القيم «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» وفيه رصد شامل لتلك الاتجاهات المختلفة المتباينة، ويتعلق منها بموضوعنا الذي بين أيدينا ما رصده وأشار إليه من روح الانهزام الواضحة والصريحة لدى عدد من أدباء مصر في بداية هذا القرن العشرين وتعلقهم الشديد بالغرب - وأوروبا خاصة - وإعجابهم الذي لا حدود له بالثقافة الغربية، وحماسهم المنقطع النظير للدعوة إليها والحث عليها واستبدالها بالثقافة الإسلامية والنظم الإسلامية بل وبالإسلام جملة وتفصيلاً. وأَبْرَزَ أولئك المخدوعون المهزومون أوروبا على أنها خير بلا شر، وأظهروها على أنها كعبة الحضارة ومنبع كل تقدم وارتقاء، وصوروها

(١) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص ١٧٥.

على أنها مبعث النور ومشرق الضياء فلا فكر إلا فكرها، ولا مدنية إلا مدنيتها.

من أولئك المارقين الغارقين في قعر الهزيمة: سلامة موسى، وطه حسين ولطفي السيد. ثلاثة معاول كانت تتناوب الهدم في جدار الأمة القائم حينًا وتعمل جميعًا في آن واحد حينًا آخر، تريد لهذا الجدار المتماسك أن ينهار ولهذا الأساس الديني في بنائه أن يتحطم ويتهدم، وقد حققوا الكثير، مما أرادوا، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثم ألف مالك بن نبي بعد ذلك بعام واحد أي سنة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م كتابه «وجهة العالم الإسلامي»، ويتصل منه بموضوعنا الفصل الثالث الذي عنوانه (فوضى العالم الإسلامي الحديث)؛ حيث ناقش العوامل الداخلية والعوامل الخارجية التي أدت إلى تلك الفوضى التي من أبرز سماتها روح الانهزام التي عمت العالم الإسلامي وسيطرت عليه.

ثم عاد الدكتور محمد محمد حسين عام ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م فألَّف كتابه «حصوننا مهددة من داخلها» وكله تشنيع على الانهزاميين (المستغربين) الذين وقعوا تحت سيطرة الأفكار الغربية والنظم الغربية والأساليب الغربية، وتتبعٌ لنتاجهم الغث وأفكارهم الرديئة، ونقدٌ لها، وردٌّ عليها، وكشفٌ لعوارها.

وفي عام ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م ألَّف برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن كتابه «الغرب والشرق الأوسط»، وأفرد فيه فصلاً للحديث عن أثر الغرب في حياة الشرق الأوسط بمختلف جوانبها جعل عنوانه (تأثير الغرب) وهو الفصل الثاني من الكتاب، أتبعه بالفصل الثالث الذي جعل عنوانه (العمل في سبيل التحرر) أي عمل «الشرق أوسطيين» على حد تعبيره من أجل التحرر من تأثير الغرب عليهم.

وهذان الفصلان وثيقا الصلة بموضوعنا إلى حد ما .

وفي عام ١٩٦٣م أيضًا كتب المفكر الإسلامي الراحل أبو الأعلى المودودي رحمه الله كلمةً قيمةً ألقاها في أحد نوادي روالبندي بباكستان ثم في اجتماع جمعية الطلبة المسلمين بكراتشي، وتُرْجِمَتْ فيما بعد إلى العربية لأهمية ما نوقش فيها من النقاط الحساسة - حسبما ذكره المترجم - الذي اختار لها عنوانًا هو: «الإسلام اليوم» وبلغت أربعًا وستين صفحة من القطع المتوسط. تحدث فيها المودودي رحمه الله عن المراحل التي اجتازتها الأمة الإسلامية فذكر أنها أربع مراحل: الأولى: المثالية، والثانية: عصر الملكية ونتائجها، والثالثة: دَوْرُ الاستعباد وآثاره السيئة - وهو الذي يتصل بموضوعنا -، والرابعة: عهد الاستقلال.

وفي عام ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩م عاد الدكتور محمد محمد حسين فألف كتابًا جديدًا هو «الإسلام والحضارة الغربية» ذكر في مقدمة طبعته الخامسة التي نشرتها مؤسسة الرسالة أنه في جملته صورة من سلسلة محاضرات ألقاها في الرياض بدعوة من «جامعة الرياض» - آنذاك - في جمادي الأولى ١٣٩٥ هـ - أبريل ١٩٧٥م، وأكثر ما يتصل منه بموضوعنا فصله الأول الذي عنونه بـ (البذور الأولى) وتحدث فيه عن تشرب بعض المبعوثين لأوروبا لروح الحضارة الغربية وتأثرهم الشديد بها، وضرب لذلك مثلاً برفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي اللذين بلغ من تأثر أولهما بالغرب والحضارة الغربية أن جعل يمهد لقبول التشريع الوضعي بتقريره أن مدنية أوروبا الحديثة التي تقوم على العقل تحقق النتائج نفسها التي تهدي إليها مدنية الدين، وبلغ من تأثر ثانيهما بالغرب وحضارته أن يقرر أن الحصول على أسباب القوة السياسية والحربية والاقتصادية لا يتيسر إلا بتغيير نظم المجتمع الإسلامي والاقتباس من النظم الغربية .

وفي عام ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م ألف الدكتور عبد الكريم عثمان كتابه «معالم الثقافة الإسلامية» الذي نشرته مؤسسة الأنوار بالرياض، وقال المؤلف في ختام مقدمته لهذا الكتاب: «وأخيراً فإن الكتاب الذي بين يديك محاضرات سبق أن ألقيت على طلاب جامعة الرياض - آنذاك - تتناول عدداً من موضوعات الثقافة الإسلامية، نقدمها مساهمة متواضعة في تعميم نشر ثقافتنا العظيمة وتحقيق أغراضها».

وقد تناول الدكتور عثمان ضمن مباحث كتابه هذا تحديات الثقافة الغربية وحضارتها وموقف الثقافة الإسلامية من تلك التحديات، فأشار من خلال ذلك إلى ما تصطبغ به الحياة الإسلامية من مظاهر الانهزام النفسي الذريع الشنيع المتمثل في فقدان كثير من المسلمين أفراداً وشعوباً للثقة في أنفسهم وذوبان شخصياتهم في شخصية الغرب الغازي لديارهم عسكريًا وفكريًا، إلى درجة فقدوا معها إيمانهم بما لديهم من مقومات، وما عندهم من طاقات، وما يملكونه من وسائل. وقد ضرب مثلاً لذلك الانهزام المريع بتركيا وما حدث فيها من تحول عن الإسلام وتنكر له نتج عن اعتقاد بأن الطراز الأوروبي للدولة هو الطراز الأفضل والأمثل، وأن الإسلام إذا كان منبع الثقافة ودين الدولة فإن الدولة ستكون في خطر.

وضرب مثلاً ثانيًا بأحمد خان قائد اتجاه التغريب في الهند ومؤسس المدرسة الفكرية التغريبية في تلك البلاد؛ فقد دعا هذا الـ «خان» إلى تقليد الحضارة الغربية وأسسها المادية، وإلى اقتباس العلوم العصرية بحذافيرها وعلى علاَّتها، وإلى تفسير الإسلام تفسيراً مطابقًا لما وصلت إليه المدنية الحديثة في

آخر القرن التاسع عشر المسيحي.

ومن آراء هذا الـ «خان» أن التقليد والظهور بمظهر سيد البلاد ـ وهو هنا يقصد الإنجليز الذين كانوا مستعمرين للهند آنذاك ـ ومجاراته في الحياة والعادات؛ تزيل الهيبة من قلوب المسلمين منه، وتعالج مركب النقص فيهم وترفع مكانتهم في عيون الولاة ورجال الحكومة، وتضعهم في مكان الشركاء في الحياة والأقران في الاجتماع[1].

ويتناول ماجد كيلاني في كتابه «الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي» الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م، على شكل إشارات مبثوثة في ثنايا فصول الكتاب ـ مسألة هزيمة المسلمين الروحية وشيوع الترف والتراخي وحياة الدعة فيهم بتأثير الغزو الصهيوني المركز المتتابع لهم، إلى درجة تبلُّد إحساسهم أمام التيارات الصهيونية ومشاركة المتغربين من أبناء المسلمين في تنفيذ مخططات الصهيونية، وسَرَدَ نماذج من التدمير الداخلي للأمة.

وأصدر الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي ـ وفقه الله ـ عام ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١م كتابه «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟»، وناقش فيه ـ ضمن ما ناقشه من موضوعات قيمة ومسائل مهمة ـ موضوع الزحف الغربي على العالم الإسلامي وتأثيره الخطير في جُلِّ نواحي حياته ـ بل كلها ـ والآثار والنتائج المدمرة التي انتهى إليها ذلك الزحف الشرس الظاهر حينًا والمستتر أحيانًا، ومن أخطر تلك الآثار وأفظع تلك النتائج وجود دعاة إلى التغرب والتغريب من أبناء ذلك العالم الإسلامي والمحسوبين عليه ممن ذابوا في الغرب وفنوا في حبه وألَّهوه وعبدوه من دون الله، فجعلوا ينعقون في بني قومهم

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية ص١٤٦ وما بعدها. نشر مؤسسة الأنوار.

يدعونهم إلى الذوبان في الغرب، والتحلل من كل رابطة غير رابطته، وترك كل طريق لا يؤدي بهم إليه، وُجد أولئك في معظم أقطار العالم الإسلامي في تركيا والهند ومصر ولبنان. إنهم عبيد الغرب الداعون إلى التبعية المطلقة للحضارة الغربية، والذوبان الكامل فيها، وأخذ كل شيء واستمداد كل قيمة وكل مفهوم وكل نظام وكل تقليد منها؛ الخير والشر، والحلو والمر، والعلم والأدب، والمادة والفكر، والتصور والسلوك[1].

وفي عام ١٣٩٣ هـ ألقى الدكتور عبد الصبور مرزوق (الذي كان يعمل آنذاك مديراً عاماً لرابطة العالم الإسلامي) محاضرة بالموسم الثقافي للرابطة عنونها بـ «الغزو الفكري أهدافه ووسائله» وطبعتها الرابطة فيما بعد.

وقد تناول في ثناياها أهداف ذلك الغزو الرهيب لأمتنا ووسائله المختلفة التي تفنن الغزاة في استعمالها، وذكر صوراً من مظاهر ذلك الغزو الفكري في مختلف المجالات كمجال إفساد الأسرة ومجال إفساد التربية والتعليم . . . إلخ. ويمكن الربط بين هذه المحاضرة وبين موضوعنا إذا علمنا أن الهزيمة النفسية التي نناقشها في بحثنا هذا نتيجة حتمية لهذا الغزو الفكري؛ فالعلاقة بين موضوعها وبين بحثنا إذاً علاقة السبب والمسبب.

ولعل من أبرز ما يتصل بموضوعنا اتصالاً وثيقًا ذلك البحث الذي تقدم به ناصر بن عبد الكريم العقل لنيل الشهادة العالية بكلية الشريعة بالرياض عام ١٣٩٣ هـ - ١٣٩٤هـ بعنوان «التقليد والتبعية وأثرهما في كيان الأمة الإسلامية، دراسة تاريخية تحليلية لأسباب تبعية الأمة الإسلامية وتقليدها لغيرها وبيان نتائج ذلك ومواقف الناس منه».

---

(١) الحلول المستوردة ص٤٧.

وقلنا: إنه يتصل بموضوعنا اتصالاً وثيقًا على اعتبار أن التبعية والتقليد في الأمة أهم مظهر من مظاهر هزيمتها النفسية وتضعضع ثقتها بنفسها وبمقوماتها.

وقد تحدث في تمهيده لبحثه عن واقع المسلمين اليوم وعن مراحل تقليدهم لأعدائهم فذكر أن ذلك التقليد مر بثلاث مراحل هي: مرحلة الانفتاح والانبهار، ثم مرحلة الاحتلال المباشر، ثم مرحلة الانصهار في بوتقة الغرب. كما تحدث عن حالة العالم الإسلامي قبل مرحلة الانفتاح والتقليد وعن موقف الإسلام من الحضارات الجاهلية المختلفة، ثم يمضي ليتحدث عن أسباب تورط الأمة الإسلامية في التبعية والتقليد الأعمى للكفار؛ فيحدد لذلك أسبابًا داخلية وأسبابًا خارجية، ثم يبحث في نتائج تلك التبعية وتقليد المسلمين للغرب الكافر وآثار ذلك في كيانهم.

ويُلْحَقُ بكتاب «التقليد والتبعيّة» الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة من حيث وثوق صلته ببحثنا كتاب ألفه الكاتب الإسلامي الكبير يوسف العظم وسماه «المنهزمون: دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة»، اطلعتُ على طبعته الرابعة التي نشرتها دار القلم عام ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢م. وقد تحدث فيه عن الانهزامية التي سيطرت على عقول كثير من المسلمين وبخاصة مفكريهم وقادة الرأي فيهم إذ يقول في مقدمة كتابه هذا: «لقد عرف المجتمع الإسلامي كثيراً من «المنهزمين»، منهم من عاد إلى الله وأعلن التوبة واستقام على الطريق، ومنهم من لقي الله بنكوصه وهزيمته، وبعض أولئك من ظل يلهث وراء الدخيل من الفكر المستورد من التراث دون أن يبلغ ما يريد من المجد الزائف والسراب الخادع... إلخ»[١] وذكر نماذج لأولئك المنهزمين كطه حسين وعلي عبد الرازق وخالد محمد خالد ومصطفى محمود وصادق العظم.

(١) المنهزمون ط. ٤ ص١١.

وضمن اهتمامات الندوة العالمية للشباب الإسلامي قامت بطبع الندوات التي ناقشت من خلال اللقاء الثاني للندوة العالمية الذي عقد في الرياض أواخر شهر ذي القعدة ١٣٩٣ هـ - موضوعًا من أهم الموضوعات التي تشغل بال العاملين في الحقل الإسلامي بصفة عامة والشباب المسلم بصفة خاصة، وهو «المقومات الإسلامية في مواجهة التحديات العقائدية والفكرية»، ونجد ألصق ما فيه بموضوعنا الندوة الثانية التي موضوعها «ضرورة تحرير الجامعات ومراكز البحث العلمي ومناهج التعليم من رواسب التبعية الثقافية»، وكذلك الندوة الخامسة وموضوعها «دعم الفكر الإسلامي لمواجهة الغزو الفكري»، والندوة السادسة وموضوعها «تسليح الشباب المسلم لمواجهة التحديات الفكرية»، والبحث الذي قدمه الدكتور توفيق محمد الشاوي عن «ملامح الشخصية الإسلامية».

وفي إطار اهتمام جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بقضايا الفكر الإسلامي وإيجاد الحلول الناجعة لمشكلات الأمة الإسلامية التي تعاني منها - عقدت الجامعة مؤتمرًا للفقه الإسلامي عام ١٣٩٦ هـ، وقُدِّمتْ للمؤتمر بحوث عديدة كان من ضمنها أبحاث تتعلق بمسألة الغزو الفكري للأمة المسلمة والتيارات المعادية للإسلام تقدم بها عدد من رجال الفكر الإسلامي المعاصر كالدكتور علي عبد الحليم محمود والدكتور عبد الستار فتح الله السعيد والدكتور علي جريشة والأستاذ عبد الكريم يونس الخطيب والشيخ أحمد بشير والأستاذ عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، وكل هذه الأبحاث بيانٌ لخطر هذا الغزو، وتحديدٌ لوسائله وطرائقه، وكشفٌ لنواياه، وفضحٌ لأهدافه وغاياته وإيضاح لآثاره البالغة الخطورة، ولنتائجه المدمرة التي يأتي في مقدمتها هذه الهزيمة النفسية المروّعة، وهذا الذل والصغار الذي ران على القلوب وتحكّم في

النفوس، وقد نشرت الجامعة مشكورة هذه البحوث القيمة في كتاب مستقل بعنوان «الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام» يقع في أكثر من خمسمائة صفحة عام ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م.

ومما يتصل بموضوعنا ما كتبه الأستاذ أنور الجندي عن الأقلام المسمومة المهزومة نفسيًا أمام سطوة التغريب في صحافتنا الإسلامية ـ أو التي يفترض أن تكون كذلك ـ حين أخرج كتابه الرائع «الصحافة والأقلام المسمومة» عام ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م؛ ففضح فيه أولئك المهزومين؛ ممن يحملون أسماء إسلامية وأفكارًا غربية هدامة، وأثبت فيه أن الصحافة التي تحتضنها بعض ديار الإسلام كانت حربًا على الإسلام بدافع انهزام المسئولين عنها والمحررين بها في ذوات أنفسهم وانصهارهم في بوتقة أعداء الأمة من الغزاة الغربيين، فهي لا تعدو أن تكون في مجملها صحافة نكسة، وصحافة إثارة، وصحافة هدم للقيم الإسلامية وتدمير للمفاهيم الإسلامية، وصحافة دعوة حثيثة بكل سبيل للإسراع في الأخذ بأخلاقيات الغرب الكافر واستبدالها بأخلاقيات الإسلام.

وممن أسهم في تعرية واقع الأمة المهزوم وكشف ألاعيب «المستغربين» من بني جلدتنا ممن يسميهم في كتابه «كفاح دين» بـ«الإنجليز السمر» الكاتب والمفكر الإسلامي الكبير الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ، فقد تناول في كتابه المشار إليه والذي تقع بين يديّ طبعته الرابعة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م، عددًا من الموضوعات التي تتصل بانهزام المسلمين انهزامًا نفسيًا فظيعًا وتآمر الكفر الصليبي واليهودي بالذات على الأمة الإسلامية تدميرًا ومَسْخًا في محاولة للقضاء عليها ونسف مقوماتها من القواعد؛ فتحدث عن اتجاه الصليبية الحديثة وعن كون الإسلام طريد القانون الدولي، وعن وجود برنامج للارتداد، وعن تحقير الإسلام في بلاد الإسلام، وعن إضعاف الوازع الديني، وعن صحافة

العهر والفجور ونشر الفاحشة والدعوة إلى الرذيلة، وعن الثقافة المهجورة، وعن عالم الملذات، وعن الإذاعة والفن ودورهما الخطير جداً في الفساد والإفساد وعن جراثيم العفن الخلقي، إلى غير ذلك من المواضيع التي تكشف عن غيرة أصيلة لدى فضيلته وألم ممض كان يعانيه ويقاسيه لما يراه ويسمعه ويعيشه من حرب ضروس على الإسلام، وقيم الإسلام، وتعاليم الإسلام.

وفي عام ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م نشرت مؤسسة الرسالة ومكتبة الفارابي رسالة تقع في حوالي ثمانين صفحة من القطع الصغير للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي عنوانها «من المسؤول عن تخلف المسلمين؟»، ذكر المؤلف في مقدمتها أن سبب كتابتها ما وقع عليه نظره في مجلة سيارة من مقال يحلل فيه كاتبه أسباب تخلف المسلمين، ويرى كاتب المقال أن أهم تلك الأسباب تلك الآثار الباقية من الدين وغيبياته عندهم وتلك العقيدة التي تنسب كل شيء إلى الخالق. فكأن الرسالة بكاملها رد موضوعي على مقال لكاتب مهزوم إلى درجة اعتقاده أن دينه هو سبب تخلفه، وليس هذا هزيمةً فحسب بل هو أخطر من الهزيمة وأشنع وأضل سبيلاً، إنه الانحدار والتلاشي و«اللاشيئية» ـ إن صح التعبير!!

وأخيراً نختم استعراضنا للدراسات السابقة في موضوعنا الذي نحن بصدده بالكتاب القيم الذي ألفه الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ محمد قطب وفقه الله عام ١٤٠٧ هـ، إنه كتاب «واقعنا المعاصر» وعنوانه خير مُعبِّر عما يحتويه الكتاب من رصد لهذا الواقع البالغ السوء في كثير من نواحيه إن لم نقل في كل نواحيه؛ ذلك أنه واقع الهزيمة والضياع والتيه والخيبة والخسران المتمثل في خلع ربقة الإسلام ـ الحقيقي ـ من أعناق قادة المسلمين في الفكر والحكم، والركوع بكل ذلة ومهانة أمام الغرب الكافر؛ يأخذون عنه،

وينفذون تعاليمه، ويصدرون عن آرائه وتوجيهاته مستبدلينه بالإسلام.

وهكذا رأينا أن عدداً وفيراً من حملة القلم من كبار كتاب الإسلام ومفكريه قد طرقوا هذا الموضوع وتحدثوا عنه بمرارة وألم، كاشفين لأمتهم خطط أعدائها للقضاء عليها، منبهين لها من خطر أولئك الأعداء الحاقدين المتربصين محذرين لها من مغبة تجاهل واقعها المريض والاستمرار في التيه الذي يلفها ويحيطها بسياج الذلة والمهانة والتمزق النفسي والضياع والحيرة.

فلا يكاد يخلو كتاب لواحد منهم من شيء من ذلك قياماً بالواجب، وأداءً للأمانة، وإعذاراً إلى الله، وإنذاراً للأمة المنكوبة.

وإن هذا البحث لحلقة في تلك السلسلة نقدمه ونحن نعلم أنه مسبوق بما هو خير منه، ولكن ذلك لا يمنع من تواصل الإعذار والإنذار ولا يوصد الطريق أمام الباحثين لطَرْقِ هذا الموضوع الخطير الهام، فهو موضوع جدير بالعناية، حري بالمتابعة، قمين بالتركيز عليه وتناوله بالدراسة والتمحيص. إنه يتعلق ببحث أمر غاية في الأهمية والخطر؛ أمر يتعلق بوجود الأمة المسلمة واستمرارها وديمومتها.

أريد أن أقول: إنه يتعلق بمسألة تعتبر بالنسبة للمسلمين مسألة حياة أو موت، وتعني بالنسبة للأمة الإسلامية أن تكون أو لا تكون، فالأمة الإسلامية تعيش واقعاً مُرّاً أليماً لُحْمَتُه الضعة والهوان، وسُداه التمزق والتفرق والشتات، ولهذا المرض الفتاك مظاهر يجب أن ترصد، وأسباب يجب أن تكشف، وآثار ونتائج يجب أن تُعْلَنَ على رؤوس الأشهاد، وبعد ذلك تتجه الهمة إلى بحث طرائق العلاج من هذا الداء العضال والمرض القتّال.

وهذا كله ما حاولنا أن نتعرض له في بحثنا هذا، وهو على خطره وعظم شأنه متشعب المسالك بعيد الغور يحتاج إلى وقفة متأنية ودراسة مستفيضة ليكون التشخيص دقيقًا فيكون العلاج حاسمًا، ولا أزعم أنني في هذه العجالة قد استطعت أن أفي لهذا البحث بمطالبه وكل مقاصده فالوقت لا يخلو من ضيق، والذهن لا يخلو من شواغل، غير أني حاولت أن أتلمس الطريق؛ فإن كنت قد وفقت للنجاح في المسعى فذلك من فضل الله والمنة له سبحانه في ذلك، وإن كانت الأخرى فحسبي أنني حاولت ولن أعدم إن شاء الله أجرًا من أجرين.

والله وحده المستعان وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

عبد الله بن حمد الشبانة

* * *

مدخل في تحديد المقصود بالهزيمة النفسية

لعلنا من خلال المقدمة السالفة استطعنا إيضاح ما نقصده بالهزيمة النفسية للأمة حين قلنا: إن أعداء الأمة الإسلامية قد استطاعوا بتخطيط ماكر خبيث وبجهد بالغ الضراوة أن يقتلوا في الأمة روح العداء لهم، بل وليس ذلك فحسب وإنما استطاعوا أيضًا أن يحولوا ذلك الشعور الدفاق في المسلمين بالعداوة لهم إلى شعور بالمحبة والصداقة والارتياح والرضى والثقة التي ليس لها حدود، بل وإلى ما هو أكثر من ذلك إلى الانبهار بالقوم والشعور بأنهم أصبحوا القادة والسادة والرواد، والاعتقاد بأنهم أهل لذلك لما حققوه من تقدم عليهم وتفوق تقني يدلان على ما يتمتعون به من قدرات فائقة ومستويات عقلية فريدة ومتميزة وتميُّز تام على غيرهم في كل شيء.

وقلنا أيضًا: إن الهزيمة النفسية شعور بالهوان والضعة والضعف والعجز عن مجاراة الأعداء بله التفوق عليهم.

إن الهزيمة النفسية في أدق صورها وأجلى معانيها ذوبان في الشخصية، وتحلل من التبعات، ورخاوة في تناول شئون الحياة، وإخلاد إلى الدعة والسكون في ذلة وخور، وإقبال على المتاع الغليظ يعب منه المهزوم فلا يكاد يفيق. إنها ذل يعيش في سويداء القلب، ورضى بالدونية يجعل صاحبه لا يرفع رأسه ولا يفتح عينيه، إنها واقع مريض أسود يَصِمُ صاحبه بكل قبيح من الصفات التي يكفي منها أن يستبدل العبودية بالحرية، وأن يتحول إلى ظل

لهازمه الذي ملأ عليه كل فراغ، وسد عليه كل منفذ؛ فلا يستنشق إلا الهواء الذي يستنشقه هازمه الذي يسير في ركابه ويسيطر على عقله وقلبه وكيانه كله، ولا يسلك إلا الطريق الذي يسلكه، ولا يرى إلا ما يراه، ولا يسمع إلا ما يسمعه. إن الهزيمة النفسية بعبارة أخرى تَحَوُّلٌ إلى «نسخة كربونية» ـ إن صح التعبير ـ عن ذلك السيد الهازم المطاع.

تلك إذًا هي حقيقة الهزيمة النفسية التي قلنا في مقدمة هذا البحث إنها داء عضال ومرض فتاك؛ لأنها تسلب المصاب بها أهم خصائصه من الشعور بقيمته، والإحساس بوجوده، والاعتزاز بنفسه وبمقوماته.

ومظاهر تلك الهزيمة متعددة بتعدد مجالات الحياة ونواحيها؛ ومع أننا سنفرد فصلاً مستقلاً في هذا البحث لتناول عدد من تلك المظاهر في مجالات ثلاثة اخترناها على سبيل التمثيل بها، إلا أننا نجد من المناسب أن ننقل هنا كلامًا حول بعض تلك المظاهر بوصفها العام للكاتب والمفكر الإسلامي الرائد المعروف أبي الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ في كتابه «الحجاب» حيث يقول في ص٣٨ منه: «في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فوجئت الممالك الإسلامية بطوفان من الاستعمار الغربي، وبينما المسلمون في هجود الكرى لم يستيقظوا بعد كل اليقظة جعل هذا السيل يمتد من قطر إلى قطر حتى شرَّق العالمَ الإسلامي وغربَّ، وما أن انتصف القرن التاسع عشر حتى غدت معظم الأمم المسلمة عبيداً للغرب الأوروبي وخَوَلاً له. والتي لم تدخل منها في عبوديته لم تسلم من الخضوع لسلطانه ورهبة بأسه ونجدته.

ولما بلغ هذا الانقلاب تمامه بدأت في المسلمين آثار اليقظة والحركة، فلما فتحوا أعينهم على الحال التي قد صاروا إليها فشلت ريحهم، وزال عنهم بغتةً

ذلك الفخار القومي الذي طالما تأصل فيهم لبقائهم في عز الغلبة ومجد السيادة من قرون متوالية، فعادوا يفكرون في أنفسهم كالسكران يصحيه توالي الضربات من عدو شديد، ويبحثون عن الأسباب التي هبطت بهم وغلّبت الإفرنج عليهم، غير أن عقولهم لم تكن ثابَتْ بعد إلى رشدها؛ إذ كان السكر لا ريب قد ذهب عنهم، ولكن ميزان الفكر كان بعد مختلاً فيهم، فبجانب كان يلحُّ بهم شعور بالذلة والهوان ويؤزهم أزاً على تبديل ما هم فيه من الحالة، وبجانب يغلبهم من حب الراحة وإيثار الدعة والارتخاء ما يحملهم على توخي أقرب الطرق وأسهلها لتبديل تلك الحالة، وقد خارت فيهم من جهة ثالثة قوى الفكر والعقل وصدئت ملكات الفهم والذكاء بطول تعطلها عن العمل.

زد على ذلك ما أخذ بمجامع نفوسهم من الدهشة والروعة التي تعتري بالطبع كل أمة منهزمة مستعبدة، وتفاعلت هذه الأسباب في محبي الإصلاح من المسلمين وأوقعتهم في كثير من الضلالات العقلية والعملية، فأكثرهم ما كادوا يفطنون للأسباب الحقيقية في ارتقاء أوروبا وانحطاطهم، وأما الذين فهموها منهم وأدركوها فأعوزهم من بُعْد الهمة والعزيمة والروح المجاهدة ما يتشجعون به على اختيار الطرق الوعرة للرقي والتقدم، وكان من وراء ذلك كله الروعة والدهشة التي تشترك فيها كلتا الطائفتين على السواء.

فلما مضوا بهذه العقلية المريضة الزائفة يريدون الإصلاح لم يروا أضمن للرقي ولا أدنى للوصول إليه من أن يحاكوا في حياتهم اليومية كل مظاهر التمدن والحضارة الغربية فيعودوا كالمرآة الصافية يُرى فيها خيال الروضة والأزهار والرياحين وليس فيها من حقيقة هذه المناظر شيء».

أرأيت كيف أشار - رحمه الله - إلى بعض مظاهر تلك الهزيمة النفسية القاسية المتمثلة - أعني المظاهر - في تحوُّل معظم الأمم المسلمة إلى عبيد للغرب وخَوَلٍ له، وفي خضوع بعضها الآخر لسلطان الغرب ورهبة بأسه ونجدته، وفي شعور الذلة والهوان وغلبة حب الراحة وإيثار الدعة والارتخاء. وفيما أخذ بمجامع نفوسهم من الدهشة والروعة، وفيما وصلت إليه قوى الفكر والعقل وملكات الفهم والذكاء لديهم من خور وصدأ، وفيما انتهوا إليه من عقلية مريضة زائفة لم تستطع أن تبتكر للإصلاح طريقًا غير طريق المزيد من الانغماس في حمأة التبعية الذليلة والتقليد الأعمى للغازي الهازم، ولم تر أضمن للرقي ولا أدنى للوصول إليه من محاكاة مظاهر التمدن الغربي والحضارة الغربية في كل شئون حياتهم اليومية؟!

ورغم طول ما نقلناه عن المودودي - رحمه الله - إلا أننا سنمضي في النقل عنه أيضًا -؛ لأن مقام البحث يقتضي ذلك؛ إذ قال رحمه الله في ص٣٩ من كتابه المشار إليه تحت عنوان «العبودية الفكرية»: «وهذه هي الفترة البحرانية التي غدت الأمم المسلمة فيها تحاكي أمم الغرب في الزي واللباس، وتتشبه بها في مظاهر الاجتماع وفي آداب المجالس وأطوار الحياة حتى في الحركة والمشي والتكلم والنطق، وحاولوا تشكيل المجتمع المسلم على الصيغة الغربية، وقبلوا الإلحاد والدهرية والمادية في نشوة التجدد بدون حيطة أو شعور بالعواقب، وعدُّوا من لوازم التنور الفكري إيمان المرء بكل ما بلغه من قبل الغرب من فكرة ناضجة أو فجة والإفاضة فيه في مجالسه، ورحَّبوا بالخمر والقمار واليانصيب وسباق الخيل وما إلى ذلك من ثمرات الحضارة الغربية، ثم سلَّموا بجميع معتقدات الغرب وأعماله في الأخلاق والآداب والاجتماع والمعاش والسياسة والقانون حتى في العقائد الإيمانية والعبادات، سلموا بكل ذلك من غير فهم

وشعور أو نقد وتجريح كأنه تنزيل من حكيم حميد ليس لهم قِبَلَهُ إلا أن يقولوا: آمنا.

وأصبح المسلمون بأنفسهم يستحيون من كل ما نظر إليه أعداء الإسلام القدماء بعين التحقير أو التعيير من وقائع التاريخ الإسلامي وأحكام الشرع الإلهي وآثار الكتاب والسنة، وطفقوا يحاولون أن يمحوا تلك السُّبَّة عن أنفسهم، واعترض أهل الغرب على ما عندهم من الجهاد فقال هؤلاء: ما لنا وللجهاد يا سادة، إنا نعوذ بالله من هذه الهمجية، واعترضوا على الرق فقال هؤلاء: إنما هو حرام عندنا أصلاً، وأطالوا لسان القدح في تعدد الزوجات فجاء هؤلاء ينسخون آيات القرآن ويُحرّفون الكلم عن مواضعه، ثم قال أولئك: لابد من مساواة الرجل والمرأة في جميع نواحي الحياة فوافقهم هؤلاء بقولهم: هذا هو الذي يُعَلِّمه ديننا أيضًا، وطعن القوم في قوانين الزواج والطلاق في الإسلام؛ فقامت طائفة من المسلمين تعالجها بالإصلاح والتعديل، ولما عابوا الإسلام بأنه عدو للفنون الجميلة استدرك هؤلاء قائلين: لا بل ما زال الإسلام مذ كان يشرف على الرقص والموسيقى والتصوير ونحت التماثيل».

أرأيت مرة أخرى مبلغ المهانة والانهزام الشنيع المريع؟! حتى لقد وصل بهم تقليدهم لهازميهم حد تقليدهم في أدق الأشياء وأخص شئون الحياة في الحركة والمشي والتكلم والنطق، وبلغ بهم الأمر مبلغ الخضوع التام والاستسلام الكامل للغازي الدخيل حتى ليقبلوا إلحاده ودهريته وماديته ويستحوا من تاريخهم ودينهم وتشريعهم الإلهي وكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ؛ فيوغلون استرضاءً للسادة الغزاة في التأويل والتبديل وإخضاع تعاليم دينهم لأهواء سادتهم وهازميهم موافقةً لهم فيما يبتغون، وتسليمًا لهم فيما يحبون وهربًا وجزعًا مما يكرهون! ومع ذلك كله وقبله وبعده تسليم كامل بكل

معتقدات الغرب وأعماله في الأخلاق والآداب والاجتماع والمعاش والسياسة والقانون، أبقي شيء يقال بعد ذلك كله عن مظاهر الهزيمة المُدَمِّرة أو وصف لها أبلغ من هذا الوصف أو أدق؟!

إنه وصف بليغ يُصَوِّر الهزيمة النفسية بمختلف مظاهرها ضياعًا وتيهًا وتحلُّلاً وانسحاقًا تحت أقدام الهازمين الغالبين.

إنه وصف لا أرى معه زيادةً لمستزيد.

لقد كان المودودي - رحمه الله - موفقًا كل التوفيق وهو يصور لنا الأعراض الظاهرة لذلك الداء العضال والمرض الفتاك؛ داء الهزيمة النفسية ومرض الذلة والاستسلام المخزي للفكر الوافد الغازي الدخيل، ولكنه كان أكثر توفيقًا في تصويره لنا مظهر تلك الهزيمة الفاضحة في أمر من أخطر أمور الحياة بل هو أخطرها على الإطلاق؛ لأنه يتعلق بصنع إنسان الحياة نفسه وتربيته وتوجيهه أعني «أمر المرأة» فإن الهزيمة النفسية والاستسلام لقواعد الغرب ومبادئه وسيرته فيما يتعلق بالمرأة وأخذ المرأة «المسلمة» بما عليه المرأة «الغربية» هو سبب هذا الفساد العريض الممتد في كل نواحي الحياة الإسلامية. إذ إن المرأة هي المحضن الأول لأغلى مادة في الكون وهي «الإنسان»، وهي التي تستطيع تشكيله كيفما أرادت، فبصلاحها يصلح وبفسادها يفسد؛ ولذا نجد الغربيين الغزاة قد أولوا جانب «تغريب المرأة» جُلَّ اهتمامهم وركزوا عليه، وبدءوا به لعلمهم أن ذلك سيوفر عليهم وقتًا وجهداً عظيمين، وهكذا كان.

لقد صور المودودي - رحمه الله - جانب الهزيمة النفسية لدى المسلمين في أمر المرأة بمنتهى الدقة والوضوح حين قال عن ذلك في كتابه «الحجاب» ص١١٨: «إن الذين ينكرون الحجاب في وطننا وفي سائر أقطار الشرق وجهة

أنظارهم في الحقيقة هذا النمط من الحياة، وهذه الحياة هي التي قد تأثرت بمظاهرها الخلابة أحاسيسهم ومشاعرهم، وهذه النظريات وهذه المبادئ الخلقية وهذه المنافع المادية واللذات هي التي قد فتنت جوانبها المشرقة عقولهم وأفئدتهم، فليس السبب في كراهيتهم الحجاب إلا كون فلسفته الأساسية مناقضةً لفلسفة الأخلاق الغربية التي آمنوا بها وكونها حائلةً بينهم وبين ما يطمحون إليه بأبصارهم من الفوائد واللذات».

وهو يُقَسِّم الناس في المجتمع الإسلامي في نظرتهم إلى قضية «تغريب المرأة» إلى ثلاث طبقات: طبقة تعرف نتائج ذلك التغريب كل المعرفة وترضاها لنفسها بل وتعدها أيضًا جوانب مشرقة لا مظلمة للحياة الغربية، وطبقة ثانية تعتقد نتائج ذلك التغريب جانبًا مظلمًا من حياة الغربيين فلا تريد قبول تلك النتائج ولكنها مع ذلك تتهالك على الفوائد التي تتصل بذلك النمط من الحياة، وطبقة ثالثة لا تفهم نظريات التغريب ولا تعرف نتائجها ولا تريد أن تُعْمِلَ فكرها ورويتها في تبين ما بين النظريات ونتائجها من علاقة بل قُصَارى الأمر عندها أن تتبع ما هو معمول به في العالم.

ثم يمضي في تفصيل أحوال أولئك المستغربين - كما سماهم - بطبقاتهم الثلاث وتعرية واقعهم المهزوم، فيقول ص١١٩ تحت عنوان «المستغربون من أهل الشرق»: «فأصحاب الطبقة الأولى قد آمنوا على علم وبصيرة بتلك الفلسفة والنظريات وتلك المبادئ العمرانية التي بنيت عليها حضارة الغرب ومدنيته، فهم يفكرون في شئون الحياة بفكر الغرب، وينظرون إليها بتلك الأنظار التي نظر إليها بها مؤسسو النهضة الأوروبية الجديدة، ويودون أن يبنوا الحياة المدنية في دولهم أيضًا على الطراز الغربي، فالغاية القصوى عندهم من تعليم المرأة هي أن تستأهل لكسب الرزق وتكون مع ذلك بهجة المجالس بارعةً

في فنون التسلية والإمتاع، ومنزلتها الصحيحة عندهم في العائلة هي أن تكون ـ كالرجال ـ عضواً من أعضائها الكاسبين توفي ميزانية الأسرة المشتركة ما في ذمتها من الدخل، ومقامها الحقيقي عندهم في المجتمع هو أن تضيف إلى الحياة الاجتماعية عنصراً لطيفًا من زينتها وجمالها؛ فتدفئ القلوب بكلامها العذب، وتُشَنِّف الآذان بغنائها الساحر، وتُنَشِّط الأرواح برقصها المغري وتعرض كل مفاتن جسمها على الرجال بترجرجها واضطرابها لكي تتمتع بها نفوسهم، وتلتذ أبصارهم، ويسري في دمائهم الباردة شيء من الحرارة.

وكذلك إن وظيفة المرأة في الحياة الوطنية لا تعدو في رأيهم أن تتولى الخدمة الاجتماعية فتعمل في المجالس والبلديات، وتحضر الحفلات والمؤتمرات وتبذل عقلها ووقتها في فض المشاكل السياسية والمدنية والاجتماعية، وتساهم في كل نوع من الألعاب والرياضات حتى تضرب الرقم القياسي في السباحة والعدو والقفز والطيران البعيد.

وبكلمة أخرى تُعْنَى بكل ما يتصل بخارج البيت ولا تبالي بما يتصل بداخله؛ فهذه هي الحياة المثلى في نظرهم، وهذا هو الطريق المؤدي إلى الرقي الدنيوي عندهم، وكل ما يعترضه ويحول دونه من النظريات الخُلُقية البالية فهو عبث وباطل محض، ولأجل هذه الحياة المتجددة قد استبدلوا القيم الخلقية الجديدة بالقيم العتيقة المتوارثة على ما فعلته أوروبا، فالمنافع المادية واللذات الجسدية أحظى وأرجح عندهم من كل شيء، بل هي وحدها ذات قيمة وقدر حقيقي، وأما ما إزاءها من الحياء والعفة وطهارة الأخلاق ووفاء الحياة الزوجية وحفظ النسب وما هو من قبيلها من الأمور ـ فكل ذلك شيء ردٌّ لا قيمة له بل هو أباطيل الفكر المظلم والنزعة الرجعية التي لا يمكن التقدم إلى الأمام بدون القضاء عليها.

فهؤلاء كما رأيت مؤمنون حقاً بالدين الغربي، فلا يزالون يجتهدون لنشر تلك النظريات التي قد آمنوا بها في هذه البلاد الشرقية بكل تلك الطرق والتدابير التي قد اتخذها الغرب لذلك فيما مضى».

ثم مضى رحمه الله يستعرض في نشر تلك النظريات التي دانوا بها وترويج المبادئ والعادات والتعاليم والتقاليد الغربية في صفوف مجتمعاتهم؛ إذ لم تبق وسيلة يمكن استخدامها لم يستخدموها في غرضهم «التغريبي» الذي نذروا أنفسهم له وأفنوا أعمارهم فيه. ووقف عند «الأدب» كوسيلة من أقوى وسائلهم في ذلك، فراح يضرب الأمثلة الواحد تلو الآخر لاستخدامهم إياه في صحفهم ومجلاتهم وكتبهم ومنشوراتهم لدعوة المرأة المسلمة لتكون «غربية» أكثر من الغربية نفسها في السلوك والتصرفات والانطلاق المحموم مع شهواتها الرخيصة في مادّية جارفة وتحلل شنيع . . .

ونكتفي بما نقلناه من كلامه رحمه الله عن الطبقة الأولى باعتبارها تمثل جانب الهزيمة النفسية أبلغ تمثيل، وزيادة في إيضاح المقصود بالهزيمة النفسية التي نعنيها في بحثنا هذا ننقل ما نقله الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»[1]، من مقال كان قد نشره عبد الوهاب عزام في الملحق الأدبي بصحيفة السياسة الأسبوعية عدد ١٤/ ٦/ ١٣٥١ هـ الموافق ١٤/ ١٠/ ١٩٣٢م (وهو العدد الخاص بمناسبة اجتماع مؤتمر الطلبة الشرقيين بمصر سنة ١٩٣٢م).

يقول الدكتور محمد محمد حسين: «وقد بدأ الكاتب مقاله بعرض تاريخ النزاع بين الشرق والغرب منذ قام الصراع بين الرومان والفينيقيين إلى أن انتهى

(١) جـ٢/ ٢٠٥ وما بعدها.

إلى تفوق الغرب في العصور الحديثة، وأشار إلى ما ترتب على ذلك من افتتان الشرقيين بكل مظاهر الحضارة الغربية في مختلف نواحيها العلمية والفنية والصناعية والاجتماعية وما يتعلق منها بالزخرف والزينة والأثاث واللباس واللهو واللعب.

ثم قال: اجتمعت هذه الفتن كلها على الشرق فزلزلت إيمانه، وحيرت وجدانه، وأزاغت بصره، وغزت عقله وقلبه بما أخذ عليه المسالك فأضلَّ الشرقيون أنفسهم، فإذا هم أجساد تنبض بقلوب الغرب وتفكر بعقولهم، وإذا هم مستسلمون لكل ما تطلع به أوروبا، منقادون لكل ما تأمرهم به، متهافتون على كل ما اتصل بها، ثم إذا هم أذلاء مقلدون يحقرون أنفسهم وآباءهم وميراث حضارتهم وتاريخهم إلا أن تُعَظِّم أوروبا أبًا من آبائهم أو تُعْجَبَ بمأثرة من مآثرهم فيقتدوا بها؛ فالذي يعجب بشاعر شرقي أو ملك أو قائد أو عالم يتلقّى وحي الأوروبيين فيه، والذي يحافظ على أثاث شرقيّ أو زينة من صنع بلاده إنما يقلد في ذلك الأوروبيين الذين أولعوا بطرائف الشرق وبدائعه.

والخلاصة أن الشرقيين يتلقون عن الغربيين أفكارهم وعقائدهم كما يأخذون منهم منسوجات القطن والصوف ومصنوعات الحديد والنحاس وأصناف الأحذية، وتبع هذا الإعجاب بأوروبا والزراية على الشرق أن نسي الشرقيون تاريخهم وسير عظمائهم. وكم فيهم من قدوة حسنة و مثل عظيم، وكلفوا بتاريخ أوروبا وسير رجالها على انقطاع الصلات بهم وأسباب الفخار بمآثرهم، فتقطعت بينهم وبين آبائهم وبلادهم الأواصر وكأنهم أوان شرقية تملؤها أوروبا بما تشاء من حلو ومر وجيد ورديء فزايلتهم العزة والحمية والغيرة التي تدفعهم إلى المعالي والسموِّ بهم عن مواطن الدنايا، وضربهم التقليد بمساوئه،

وما التقليد إلا أن يميت الإنسان عقله وقلبه ثم يتبع كل ناعق، فعجزوا عن أن يجاروا أوروبا في معالي الأمور والمجد والحق، وضعفت كواهلهم أن تحمل أعباء العلم والعمل التي ينهض بها كرام الغربيين، وهان عليهم أن يُسفُّوا إلى الدنايا ويتهافتوا على الملاهي والعادات السيئة وكل ما لا يعوزهم إلى عقل وإدراك، ورأي نفَّاذ، وقلب أبي، ونفس صبور، وهمة مُخَاطِرَة، وعزم مقدام، وعزة طمَّاحة إلى العَلياء، ذلكم حالنا اليوم وموقفنا من أوَرَوبا، وذلك شر حال وأسوأ موقف». اهـ.

فما عبر عنه كاتب المقال الذي نقلنا عن الدكتور محمد محمد حسين طرفًا منه بافتتان الشرقيين بكل مظاهر الحضارة الغربية في مختلف نواحيها العلمية والفنية والصناعية والاجتماعية، وما يتعلق منها بالزخرف والزينة والأثاث واللباس واللهو واللعب، هو ما نعنيه بالهزيمة النفسية للأمة، وهو فحوى ما نقلناه قبل ذلك من كلام العلامة أبي الأعلى المودودي رحمه الله، وهو ما قاله مترجما كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» في مقدمة الطبعة الثالثة منه بعد استعراضهما لمخططات «المغيرين» على العالم الإسلامي حيث قالا[١] : «لقد تبين أن الهزيمة الفكرية هي ما أراده واضعو هذه المخططات، فهزيمة الفكر تُجرِّد أي أمة من الحصانة وتتركها فريسةً لأي مرض أو وباء ويسهل بعد ذلك احتواؤها وتفكيك معتقداتها» ثم يقولان بعد ذلك: «هؤلاء المستعمرون تركوا بصماتهم في كثير من العناصر المحلية شربت ثقافتهم وانبهرت بأساليبهم وتغربت حتى عميت عن تراثها وانسلخت عن واقعها».

إذًا هناك هزيمة فكرية جاءت نتيجةً لتلك الجهود والمخططات «الكفرية» التي قام بها ووضعها أعداء الإسلام لاحتواء المسلمين، وهذه الهزيمة الفكرية

(١) ص٧.

تتمثل في شرب ثقافة أولئك الأعداء، والانبهار بأساليبهم المختلفة في كافة شئون حياتهم، والعمى والصد عن التراث الأصيل للأمة والانسلاخ عن واقعها).

والمهزوم نفسيًا يستحي من الانتساب للإسلام ويكره أن يُرَى وهو يقوم بشيء من شعائره، يحب أن يراه الناس خارجًا من حانة ولا يحب أن يروه خارجًا من مسجد، ومن السهل عليه أن يوصف بأنه زنى بعشر نساء لكن وجهه يسود لو قيل متزوج من اثنتين، ولا يخطر له على بال أن يفكر في تلاوة القرآن الكريم أو دراسة شيء من سنة الرسول ﷺ فقد احتل الغزو الثقافي لأعداء دينه أقطار نفسه جميعًا وزلزل ثقته بدينه، بل هدم ثقته تلك عن آخرها فهو محسوب على الإسلام باسمه فحسب، ولذا فهو يجتهد في إبعاد أولاده عن الإسلام.

فهذه صفحات جيل أفلح الاستعمار في تكوينه، واجتهد في صنع هذا الصنف من المتعلمين الذين لا يكاد يخلو منهم ميدان، وكنودهم للإسلام ونأيهم عنه ظاهران أتم الظهور في حياتهم الخاصة والعامة[1].

* * *

(١) كفاح دين. الغزالي ص١٦٠ بتصرف.

تمهيد
الجذور الأولى للهزيمة النفسية في الأمة الإسلامية

إن المتتبع لتاريخ الأمة الإسلامية المتمعن في الصفحات الذهبية من سجلها الحافل لتأخذه الدهشة ويأخذ به العجب كل مأخذ وهو يقرأ أمجادها الزاهية التي تُثْري مواقفها في تلك الصفحات المضيئة؛ تَمثُّلاً بالإسلام، وتخلقًا بالقرآن، وتعلُّقًا بالآخرة، وتفلُّتًا من الدنيا، وجهاداً في سبيل الله، ونشراً لدين الله، وبيعًا للأنفس على الله، وحرصًا على هداية جميع الناس إلى رحاب هذا الدين الذي أكرمهم الله به.

يقرأ كل ذلك ويتصوره ويعيشه بخياله ثم يعود إلى واقعه الذي يحياه فلا يرى من ذلك الذي قرأه من الأمجاد الزاهرة شيئًا في دنيا الواقع؛ فتأخذه الدهشة كما قلنا ويبلغ به العجب من هذا الأمر مبلغه، ويسأل نفسه: أين تلك الأمجاد؟ أين تلك الصور الزاهية التي تُعَطِّرُ أجواء التاريخ؟ أين أولئك الرجال الذين صنعوا ذلك كله؟ لا أرى منهم أحداً، ولا أرى من أمجادهم شيئًا غير آثار لخطواتهم مازالت تقرع سمع الزمان، وظلٌ لمآثرهم يتفيؤه أبناء هذا العصر من هذه الأمة، ولولا تلك البقية الباقية من الآثار والظلال لاندرست معالم الأمة وانمحت أمجادها بالكلية واندثرت أصولها ومرتكزاتها وغابت في دياجير النسيان ومتاهات البلى كما حدث ذلك كله لأمم سبقتها.

أريد أن أقول: إن المتتبع لذلك ليعجب أشد العجب لهذا الانقطاع بين

صدر الأمة وعجزها، ولهذا التبدل الذي حدث في كيان الأمة وهذا التغير الذي طرأ على واقعها؛ فبعد أن كانت أمة الأمجاد أمست أمة الإخلاد، وبعد أن كانت القائدة أصبحت المقودة، وبعد أن كانت رمزًا للعزة والغلبة والظفر انقلبت بها الحال فإذا هي لقمة سائغة في فم كل آكل، ونهب مقتسم في يد كل طامع.

إنها إذًا قد تغيرت حالها وتبدل واقعها، وارتكست في حمأة هزيمة قاسية ثقيلة لا تزال تعيش في أتونها وتتلظى بنارها.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: متى ابتدأت تلك الهزيمة الماحقة؟ وما هي جذورها الأولى؟ أكانت قديمة العهد أم حديثة النشوء؟ ذلك هو السؤال الذي أردنا أن يكون كلامنا في هذا التمهيد كالجواب عليه.

على أن هناك أمرين لا يحدد لهما وقت بدقة: النوم في حياة الفرد، والانحطاط في حياة الأمة؛ فلا يُشْعَرُ بهما إلا إذا غلبا واستويا؛ على ما حكاه أبو الحسن الندوي في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عن أحد الأدباء، وعلق عليه قائلاً: «إنه لحق في قضية أكثر الأمم، ولكن بدأ التدلي والانحطاط في حياة الأمة الإسلامية أوضح منه في حياة الأمم الأخرى، ولو أردنا أن نضع أصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال والزوال لوضعناه على ذلك الخط التاريخي الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين»[(١)].

فهو هنا يرى أن بداية الانهيار في «التركيبة» الإسلامية هي تحول الخلافة الإسلامية الراشدة إلى ملوكية عربية أو ملوكية مسلمين، بينما يرى في موضع

---

(١) ص١٢٩.

آخر من كتابه المشار إليه : «أن خلية الإسلام ظلت تعمل في أدوار الانحطاط أيضًا ويظهر من الملوك والفاتحين أفرادٌ هم أنموذج الصحابة والسلف الصالح في سيرتهم وأخلاقهم وفي دينهم وتقواهم، وينهض في العالم الإسلامي رجال يتجمل التاريخ بذكرهم، وكان المسلمون ـ رغم انحرافهم عن سيرتهم الأولى وطريقهم المثالي ـ أقرب إلى طريق الأنبياء وأطوع لله من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم، وكان وجودهم ودولتهم أكبر عائق للجاهلية في انتشارها وازدهارها، وكانوا رغم نقائصهم أكبر قوة في العالم تهابها الدول وتحسب لها ألف حساب .

ولم تزل تضعف هذه القوة وتهن بدون أن يشعر بذلك الأجانب حتى إذا خضدت شوكة المسلمين في القرن السابع لما مزق التتار حكومة خوارزم شاه ـ المملكة الإسلامية الأخيرة ـ وسقطت بغداد في أيديهم زال ذلك الشبح المخيف وسقط الجدار؛ فعاثت الطيور والوحوش في الحقل، وتجاسر الناس على المسلمين وبلادهم، وورث التتار والمغول تراث المسلمين وخلفوهم في الحكومة، وناهيك به بؤسًا وشقاءً للإنسانية وخرابًا للعالم أن يتولى قيادة العالم أمة جاهلة وحشية ليس عندها دين ولا علم ولا ثقافة ولا حضارة»[(١)] .

ومعنى قوله هذا أن بداية الانهيار «الحقيقية»، كانت بعد تمزيق التتار في القرن السابع الهجري لمملكة خوارزم شاه وهي المملكة الإسلامية الأخيرة وإرثهم تراث المسلمين وخلافتهم إياهم في الحكومة .

والمؤلف نفسه يورد تحديدًا آخر لتلك البداية في كتاب له آخر فيقول واصفًا حال المسلمين في القرون الأخيرة في كتابه «إلى الإسلام من جديد»[(٢)] :

---

(١) ص١٤٢ .

(٢) ص٧١ .

«ولم يزدد المسلمون إلا ضعفًا، ولم تزدد أخلاقهم على مر الأيام إلا انحطاطًا وتدهورًا، ولا أحوالهم وشئونهم إلا فسادًا، حتى أصبحوا في فجر القرن الرابع عشر الهجري أمةً جوفاء لا روح فيها ولا دم، وصاروا كصرح عظيم من خشب منخور قائم لا يزال يؤوي الناس ويَهُولُ من بعيد، أو كدوْحة قد تآكلت جذورها ونخر جذعها العظيم ولم تنقلع بعد، وأصبحت بلادهم مالاً سائبًا لا مانع له، وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس وطُعْمَةً لكل آكل، وحق قول النبي ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»، فقال قائل: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن**» فقال القائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**». واستمر المسلمون بهذا الحال وزيادة حتى أغارت عليهم في القرن الثامن عشر المسيحي الأمم الأوروبية النصرانية الجاهلية المتحضرة الوحشية الكاسية العارية فسلَّموها مفاتيح ملكهم واعتزلوا في مصلحتها عن قيادة العالم».

وليس بين هذه «التحديدات» الثلاثة أي تعارض في حقيقة الأمر؛ ذلك أن التحديد الأول بانتهاء الخلافة الراشدة وتحولها إلى ملوكية هو تحديد لبداية الانحراف في المسيرة، بينما يُعتبر التحديد الثاني بالغزو التتري تحديدًا لبداية الانهيار في النفسية الإسلامية، في الوقت الذي يعتبر فيه التحديد الثالث والأخير بإغارة الأمم النصرانية في القرن ما قبل الماضي تحديدًا لبداية الانهيار الكامل أو بعبارة أخرى لبداية النهاية.

إننا لو تأملنا تلك البدايات الثلاث ورسمنا خطًا بيانيًا لإيضاح الفوارق

بينها لتبين لنا أن ما حدث في القرن الأول الهجري من تحول الخلافة الراشدة إلى ملوكية كان نقطة البداية في الانحراف عن النهج الإسلامي الأمثل، وكان ميدانه نظام الحكم، وأن ما حدث في القرن السابع الهجري من الاجتياح المغولي العارم لأمة الإسلام كان إيذانًا بانهيار السد النفسي - إن صح التعبير - لكنه لم يؤد رغم فظاعته وشراسته إلى استئصال شجرة الإيمان من سائر قلوب جميع أفراد الأمة، ولم يقض على ركيزة الخلق الإسلامي الضاربة في عمق الكيان الإسلامي على مستوى الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة كذلك.

أما ما حدث في القرن الثامن عشر الميلادي الرابع عشر الهجري من إغارة الأمم الأوروبية النصرانية على الأمة الإسلامية أو ما يسمى في أحيان كثيرة بالغزو الثقافي والفكري الغربي لديار الإسلام، فإنه في حقيقته يعتبر المعْوَلَ الذي أتى على تلك البقية الباقية من شجرة الإيمان وركيزة الخلق فدمَّرها وقضى عليها، وذلك مكمن خطورته وسر شناعته، أي أنه كما قلنا قبل قليل: بداية النهاية.

وهكذا يتضح لنا أن لا تعارض البتة بين تلك التواريخ الثلاثة التي أثبتها العلامة أبو الحسن الندوي في كتابيه، إذ كل منها تاريخ لشيء يختلف عن الآخر أو هو على أقل تقدير تاريخ لمرحلة من مراحل الضياع والتمزق والتيه الذي حل بالمسلمين.

أما المفكر الإسلامي مالك بن نبي فيرى في كتابه «وجهة العالم الإسلامي»[(١)] أن عام ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩م هو نقطة التطور التاريخي الذي ترجع

---

(١) ص ٣٠ وما بعدها.

إليه سائر مشكلات العالم الإسلامي وأشكالها المختلفة التي تسمى مثلاً مشكلة جزائرية أو مشكلة جاوية، فالقاسم المشترك في هذه المشكلات جميعًا هو في الواقع المشكلة الإسلامية وتسلسلها التاريخي منذ الهجرة، وهذه النقطة هي التي تسجل انقلاب القيم الإسلامية الحقة إلى أشياء لا قيمة لها.

كما يرى ـ رحمه الله ـ أن هذا الانقلاب لم يكن فجائيًا إذ هو النهاية البعيدة للانفصال الذي حدث في صفّين فأحل السلطة العصبية محل الحكومة «الديمقراطية»[1] الخليفية، وأنّ ذلك الانفصال يحتوي في داخله جميع أنواع التمزق والمناقضات السياسية المقبلة في قلب العالم الإسلامي، وأنه إنما كان إحدى الأزمات التي تُغَيِّر نظام بلد معين خلال التاريخ، وأن هذه اللحظة هي نقطة الانكسار في منحنى التطور التاريخي، وهي لحظة انقلاب القيم داخل حضارة معينة.

وهنا لا نواجه تغيُّراً في النظام السياسي بل إن التغير يصيب الإنسان ذاته، الإنسان المتحضر الذي فقد همته المحضِّرة، فأعجزه فقدها عن التمثيل والإبداع. ويؤرِّخ لتلك الظاهرة في التاريخ الإسلامي بسقوط دولة الموحدين الذي كان في حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها.

ويرى مالك رحمه الله أن تاريخ الانحطاط بدأ بإنسان ما بعد الموحدين الذي يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل التي تعرّض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين، فالنقائص التي تعانيها

---

(١) في محاولة الخروج من التيه تبلبلت الألسن واختلطت المصطلحات حتى أصبحنا نسمع من بعض الغيورين مصطلحات غريبة مثل: «ديمقراطية الإسلام» و«اشتراكية الإسلام» . . . إلخ انظر ص١٣٤.

النهضة الآن يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن طليعةً في التاريخ.

كما يرى أن هذا الوجه المتخلف الكئيب ما زال حيًا في جيلنا الحاضر، وأنه طالما ظل مجتمعنا عاجزاً عن تصفية هذه الوراثة السلبية التي أسقطته منذ ستة قرون، وما دام متقاعساً عن تجديد كيان الإنسان طبقًا للتعاليم الإسلامية الحقة ومناهج العلم الحديثة؛ فإن سعيه إلى توازن جديد لحياته وتركيب جديد لتاريخه سيكون باطلاً عديم الجدوى.»

أما برنارد لويس - رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن - فإنه يقول في كتابه «الغرب والشرق الأوسط»[1] وهو يتحدث في فصل بعنوان «تأثير الغرب»: «وبدأ فقدان الثقة بالنفس «أي في جانب المسلمين» على الصعيد الحضاري - يظهر في النفوذ الأوروبي الذي وصل تأثيره إلى الهندسة المعمارية حتى الهندسة الدينية، كما جرى مثلاً في تزيين جامع «نور عثمانية» الذي تم بناؤه سنة (١٧٥٥م)».

ثم يقول في موضع آخر: «وعندما احتلت حملة فرنسية عسكرية بقيادة (بونابرت) مصر سنة ١٧٩٨م، بدأ عهد جديد في تاريخ تأثير الغرب في الشرق الأوسط، ولقد نظر المؤرخون الشرقيون والغربيون إلى هذه الحادثة التاريخية على أنها «شلال جارف»، فهي أول قوة مسلحة عبَّدت الطريق للغرب الحديث في الشرق الأوسط وكانت أول صدمة للساحة الإسلامية، وأول شرارة كهربائية في طريق «التغريب» والإصلاح في الشرق الأوسط».

ثم يقول بعد ذلك بقليل: «ورفعت حملة بونابرت أزمة التأثير الغربي إلى أوجها الحادّ في العالم العربي، ثم افتتحت عهداً دام قرنًا ونصفًا من التدخل

---

(١) ص٤٣ وما بعدها.

المباشر الإنكلوفرنسي في أمور الشرق».

ونمضي في تحديد بدايات «هزيمتنا النفسية» واكتشاف جذورها الأولى من خلال كتاب «الغرب والشرق الأوسط» لبرنارد لويس - فنجده بعد استعراض طويل لصراع الدولة العثمانية مع الأوروبيين المحيطين بها يقول: «ومنذ ١٨٨٠م بدأت السياسة الإنكليزية تُغَيِّر مواقعها خصوصًا بعد توسع النفوذ الألماني في تركيا. وأصبح احتلال مصر سنة (١٨٨٢م) - الذي كان لأهداف محددة ووقت محدود - دائمًا، بل توسع حتى شمل السودان، وفي سنة (١٩١٨م) تبعثرت الدولة العثمانية بعد أن هُزِمَت واندحرت، وقامت سلسلة جديدة من الكيانات السياسية غير المعهودة في المنطقة جُمعت من أشلاء هذه الدولة».

وبعد حديث مستفيض عن سيطرة فرنسا وبريطانيا على معظم تلك الكيانات السياسية التي تولدت عن انهيار الخلافة الإسلامية والدولة الأم. وحديث عما حدث بين تلك الدولتين من صراع مخيف يتمثل في ذلك الصراع الذي حدث بين «نلسون» الإنجليزي و«نابليون» الفرنسي يقرر «برنارد لويس» أن التعاون العقيم بين «إيدن» الإنجليزي و«موليه» الفرنسي الذي أعقب ذلك الصراع وما يضاف إلى ذلك التعاون من تأثير «التغريب» في تركيا قد أحدث تغيرات واسعةً عميقةً غير قابلة للعودة إلى الوراء على مختلف مستويات الوجود الاجتماعي.

وفي بيانه لأسباب تلك التغييرات يقول في صراحة متناهية يُحْسَد عليها: «ومن الطبيعي أن تكون أسباب هذه التغيرات نتيجة أعمال الحكام الغربيين الذين كان أكثرهم يمثلون المحافظة والحذر في سياساتهم، إلا أن أكثر التغيرات الجذرية العنيفة التي حدثت قام بها «متغربو» الشرق الأوسط من حكامه

الشرقيين بعزم وشجاعة ومغامرة؛ لأنهم نشدوا تطبيق الأساليب الأوروبية في الوصول إلى القوة. وحاول التجار تطبيق التكنيكية الغربية في جمع الثروة، وقلد المتعلمون الشرقيون أصحاب الفكر الغربي بعدما أُخذوا بروعة أفكارهم وطاقاتهم العلمية، وانعكس هذا التأثير الفكري رمزيًا في تَغيير اللباس وارتداء الزي الغربي».

وبعد إشارة عابرة إلى المرة الأولى التي ترك فيها المسلمون عاداتهم في اللباس حين أمر أحد سلاطين المماليك في مصر في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي بارتداء اللباس المغولي وإطالة الشعر على الطريقة المغولية قال: «ولقد طبق نفس الأسلوب السحري في ارتداء السراويل الأوروبية والستر الأوروبية في القرن التاسع عشر، وبدأ ذلك في صفوف الجيش بأمر عسكري، ثم كان بعد ذلك في قطاع الموظفين المدنيين بأمر حكومي أيضًا، وأخيرًا عم اللباس بين المتعلمين من أبناء المدن من غير الرسميين عن طريق «العدوى والمحاكاة»، ولقد أهمل اللباس المغولي في بدء القرن الرابع عشر الميلادي ربما لأن المغول اعتنقوا الإسلام، أما اللباس الأوروبي في السترة والسروال فقد استمر وأصبح رمزًا للعلم والتقدم. وفي أيامنا هذه ـ يقصد المؤلف سنة (١٩٦٣م) وهي السنة التي ألقى فيها محاضراته التي يتألف منها الكتاب ـ يسقط آخر عمود للمحافظة الإسلامية بزوال الطربوش والعمة ويحل محلها غطاء الرأس الأوروبي».

وفي تحديدٍ لبداية ذلك التأثر والتقليد يقول: «ولقد بدأ الأمر كله في المحيط العسكري والسبب البسيط هو حب البقاء في عالمٍ تسيطر عليه أوروبا المتوسعة المتقدمة، واقتضى الأمر جيشًا على النمط الأوروبي فظهر الأمر سهلاً بالنسبة للعثمانيين فقد ظنوا أنه ستكون فقط في حدود التدريب والمعدات»،

وبعد أسطر قليلة يتابع قائلاً: «ومع قدوم السلاح الأوروبي والفنيين الأوروبيين استوردت الأفكار الأوروبية والتي كانت كالتكنيكية والعتاد مُحَطِّمَةً للنظام السياسي والاجتماعي القديم، فحتى القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي بعيداً كُلِّيّاً عن كل احتكاك فكري وثقافي مع الغرب».

وبعد أن قرر أن حركة الانبعاث الأوروبي وما جلبته من علم ومعرفة وفن وما صاحبها من حركات فكرية في كل أوروبا المسيحية لم تجد أي صدًى في المسلمين ولم يكن لها أي تأثير عليهم؛ إذ كانوا يعتبرون أوروبا أجنبيةً غير ذات قيمة تستدعي الاهتمام، وكان ذلك التأثير يضيع قبل أن يصل إلى المسلمين لوجود طبقة من الوسطاء المسيحيين واليهود الشرقيين تتولى الترجمة وتعمل «وسيطةً» بين أسيادها المسلمين وبين الأوروبيين فتمنع عن المسلمين لوثة الاحتكاك المباشر مع الغربيين.

حتى إنه لم تكن للإمبراطورية العثمانية - على حد تعبيره - في إبَّان عظمتها أية سفارات في الخارج، وإنما كانت علاقاتها بالسفارات الأجنبية في استنبول تجري عن طريق المترجمين الكبار الذين كانوا عادةً من اليونانيين، ولم تجر أية ترجمة للكتب الغربية لا إلى العربية ولا للتركية ولا للفارسية باستثناء كتب قليلة تافهة.

بعد أن يقرر كل ذلك مستشهداً في نهايته بقول أحد المؤرخين العثمانيين: «إن الاختلاط بالكفار محرم على المسلمين، ومن غير المرغوب فيه أن يختلط طرفان متناقضان بينهما من الاختلاف ما بين الليل والنهار» - يقول في جرأة: «وجاء الإصلاح العسكري فغيَّر كل ذلك، وبدل أن يُنْعَتَ الفرنجة بالبرابرة الجهلة أصبحوا مُعَلِّمي أنبل وأخطر الفنون وهو فن الحرب. ولم تعد لغة الفرنجة رطانةً أجنبيةً - كما سماها أحد الكتاب - بل أصبحت مفتاحاً للمعلومات

الأساسية. ولقد أراد المصلحون العسكريون أن يفتحوا ثغرة لمجرًى محدود في الحاجز تمرر تياراً يمكن السيطرة عليه ولكنهم جاءوا بالطوفان، طوفان ثائر جارف يعلوه الزبد ويتدفق من آلاف الشقوق والثغرات ويحمل الدمار مع بذور الحياة الجديدة، وظهر أن الطوفان ليس له نهاية مثل مستحدثات أوروبا التي لا ينضب معينها فمع كل جيل تظهر أفكار جديدة. وفي القرن التاسع عشر ظهر تياران بارزان توافقا واختلفا مرات عدة؛ تيار الأحرار الراديكاليين الذي نتج عن الثورة الفرنسية، وتيار المصلحين المتسلطين المتنورين، ولقد كان هناك أقنية عدة تسربت خلالها الأفكار الغربية إلى العالم الإسلامي المنعزل؛ إذ كان الزوار المسلمون مثلاً يفدون من الشرق الأوسط ليظهروا بأعداد متزايدة في العواصم الأوروبية».

ويذكر المؤلف أن بعض السواح المسلمين المغامرين زاروا أوروبا منذ زمن بعيد بقصد اكتشاف ما بها من مجهول، ولم يؤثر خلال الفترة ما بين الحروب الصليبية والقرن السابع عشر أن سجل أحد منهم رسالةً أو كتابًا عن زيارته لأوروبا لكون معظمهم يوفَد في مهمات خاصة، في حين نجد أن أول من كتب شيئًا عن زيارته لأوروبا كان «أبو بكر راتب أفندي» الذي أرسله السلطان العثماني «سليم الثالث» إلى فيينا سنة (١٧٩١م)؛ فكتب تقريراً مفصَّلاً عن الحكم الفردي المتنور وأسلوبه في العمل، وسجل اقتراحات وتوصيات للإصلاح في الإمبراطورية العثمانية».

ويضيف المؤلف أن السلطان عين في السنوات التي تلت أول سفير دائم له في لندن وفيينا وبرلين وباريس، ثم افتتحت سفارة إيرانية في القرن التاسع عشر في أوروبا، وبعد ذلك ظهر ممثلون للقوة المستقلة الجديدة التي برزت في مصر بزعامة محمد علي باشا ومن جاء بعده.

وفي رصد لمظاهر التلاقي بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي يمضي المؤلف فيذكر أن هناك حاجةً ملحةً جدَّت لرجال يتقنون لغات أجنبية ويعرفون البلاد الأجنبية فكانت هذه السفارات المدارس الأولية التي خرَّجت هؤلاء والذين شكَّلوا بعد ذلك «صفوة السياسيين» ـ على حد زعمه ـ.

ثم يقول بعد ذلك: «ولم يبقَ العلماء والعسكريون الأبواب الرئيسية الوحيدة للنفوذ والسلطة بل أصبح المترجمون وموظفو السفارات من المفاتيح الرئيسية أيضًا، بعد الدبلوماسيين ظهر طلاب الشرق الأوسط في أوروبا، ولقد كان لهم على المدى الطويل أهمية أكثر مما كان للدبلوماسيين، وأول بعثة طلابية ذهبت من مصر إلى إيطاليا أرسلها محمد علي باشا سنة (١٨٠٩م)، وفي سنة (١٨١٨م) كان هناك ثلاثة وعشرون طالبًا مصريًا في أوروبا، ووصلت أول بعثة إيرانية إلى إنكلترا في نفس الوقت تقريبًا، وفي سنة (١٨٢٦م) أرسل باشا مصر أول بعثة كبيرة مؤلفة من أربعة وأربعين طالبًا إلى باريس.

وما يستطيع أن يفعله الباشا يستطيع أن يفعله السلطان أيضًا؛ لذا أرسل السلطان محمد الثاني سنة (١٨٢٧م) أول بعثة تركية مؤلفة من مائة وخمسين طالبًا لعدة دول أوروبية وذلك بالرغم من معارضة (رجال الدين)، وبعد ذلك بسنوات ارتفع عدد الطلاب كثيراً وبلغ الآلاف. والطلاب يتعلمون عادةً من بعضهم البعض أكثر مما يأخذون من معلمهم. وما بين عامي (١٨٢٠م و١٨٤٠م) كان في أوروبا أشياء كثيرة تعلمها الطلاب الشرقيون».

وبعد أسطر قليلة يضيف قوله: «وبالإضافة للزوار الشرقيين في الغرب كان هناك زوار غربيون للشرق الأوسط كمعلمين وباحثين وخبراء ومستشارين ودعاة وسياسيين وأصحاب أعمال ومقاولين، وأول من أثَّر في الشبيبة المسلمة

كان المدرسون العسكريون الأوروبيون الذين كانوا في تركيا ثم مصر وبعد ذلك في إيران، وكان أكثرهم من الفرنسيين، واللغة التي استُعملت للتفاهم كانت طبعًا الفرنسية، ولم تقطع الثورة الفرنسية هذه الصِّلاتَ مع الدولة العثمانية حتى إنه في سنة (١٧٩٦م) أرسلت حكومة الإمبراطورية العثمانية طلبًا للجنة الأمن القومي في باريس لتزويدها بعدد من الخبراء العسكريين الفنيين. ولقد جاء هؤلاء الخبراء بقيادة سفير فرنسا الجديد في الدولة العثمانية وكان الجنرال (أوبر دوبايه)».

ثم ذكر المؤلف أنه قيل له إن الكلية الحربية في استنبول كانت تحوي أربعمائة كتاب أكثرها باللغة الفرنسية وكان ضمنها مجموعة «الإنسيكلوبيديا الكبيرة»، إلا أن وجود مثل هذه الكتب في مكتبة جامعية لا يعني بالضرورة وجود قراء لها خصوصًا إذا كانت بلغة أجنبية وتعبر عن أفكار غير مألوفة، غير أنه عاد فأكد أن هذه الكتب كانت بمتناول الشباب، وأن بعض آرائها ظهرت في الأجيال التي تلت.

ويستمر في استعراض بدايات التأثير الغربي والغزو الأوروبي المنظَّم قائلاً: «ولقد استعمل محمد علي باشا في مصر ضباطًا فرنسيين بقي عدد منهم حتى ما بعد سنة (١٨١٥م)، وكان معهد الرياضيات في القاهرة يضم مكتبة تحتوي على كتب فرنسية منها كتب «فولتير» و«جان جاك روسو» وكتب لمؤسسات أوروبية أخرى، ولقد جاء مصر عدد غير قليل من البعثات العسكرية من دول مختلفة، منها بعثة عسكرية أمريكية مؤلفة من الضباط، وكان ذلك بعد الحرب الأهلية في أميركا. لذا كان العسكريون في الشرق الأوسط يشكلون الفئة التي تعرضت لأقوى وأطول احتكاك مع الغرب، وكان لهذه الفئة

مصلحة حيوية مهنيَّة في الإصلاح الجديد و«التغريب» وهذا يساعدنا على تفسير أحداث وتفاعلات الشرق الأوسط غير المألوفة في المناطق الأخرى من العالم، ودور الضباط المحترفين «كحربة» في ميدان التغيرات الاجتماعية.

لقد كان المدرسون العسكريون الغربيون أول المعلمين، وكان هناك موجهون غيرهم في كل موضوع في مختلف أنواع المعاهد والمدارس، وكان بعضهم يُعَلِّم في المدارس الحديثة التي افتتحت بأعداد متزايدة في الشرق الأوسط، وكان بعضهم يُعَلِّم في المدارس الأجنبية التي كانت تفتحها المؤسسات التبشيرية والحكومات الغربية كخدمة للإنسانية!! ووسيلة للسياسة الثقافية. ثم انضم لهؤلاء المعلمين الغربيين مجموعة من الشرقيين «المغرَّبين» الذين درسوا إما في أوروبا أو في المدارس الأوروبية في الشرق الأوسط وأتقنوا اللغة و«الأساليب الغربية»! وساعدت الكتب الأوروبية مساعدةً قيمةً في نشر أفكار وأخبار الغرب في الشرق الأوسط، وبازدياد تعلم اللغات الأوروبية ازداد عدد القراء، والأهم من ذلك ازداد عدد المترجمين وعدد الكتب المترجمة».

ثم يذكر «برنارد لويس» أن القرن السادس عشر شهد ترجمة كتابين إلى اللغة التركية من اللغات الأوروبية الغربية أحدهما تُرْجِمَ سنة (١٥٧٢م) بأمر من «رئِّس أفندي» السكرتير الأول للشئون الخارجية في الحكومة العثمانية وهو عن تاريخ فرنسا، والثاني تُرْجِمَ سنة (١٥٨٠م) وكان يضم مجموعةً من الاكتشافات وعجائب العالم الجديد جُمِعَت مواده من مختلف المصادر الأوروبية، أما القرن السابع عشر فقد جاء بعدد من الكتب في التاريخ والجغرافيا والطب.

ثم يذكر أن القرن الثامن عشر قد شهد زيادةً في الكتب المترجمة، وحتى

نهايته لم يكن هناك أكثر من عدد قليل من الكتب التركية المترجمة عن اللغات الأجنبية الغربية أكثرها رسمي الطابع، بينما لم يكن هناك حتى ذلك التاريخ كتاب أجنبي واحد مترجم إلى العربية أو الفارسية.

وأول تجربة للترجمة إلى العربية كانت فرنسية، وكان موضوعها النداء الذي أصدرته لجنة المؤتمر الوطني للشعب الفرنسي في تشرين أول سنة (١٧٩٤م) حيث طبع النصان الفرنسي والعربي بحجة مساعدة طلاب اللغات وغيرهم من الناس، وترجمت كتب فرنسية سياسية أخرى إلى العربية والتركية ووزعت في الشرق الأوسط، وقامت الحملة الفرنسية على مصر بترتيبات مفصلة لنشر الأخبار والآراء الفرنسية باللغة العربية.

وبعد هذا الاستعراض يصل المؤلف إلى تحديد أثر الترجمة في عملية «التغريب» قائلاً: «ولقد كان التأثير المباشر لكل هذا النشاط محدوداً على ما نعلم، والشيء الذي كان له تأثير أكبر هو حركة «الترجمة» التي تمت في القرن التاسع عشر من مراكز رئيسية ثلاثة: تركيا ومصر وإيران، وكان الأمر في مبدئه حكومي الطابع ينشر الآراء الرسمية التي تتبناها الدولة . . . ثم انتقلت حركة الطباعة والنشر والترجمة من رعاية الدولة إلى أيدي الناشرين والمترجمين، وقد قدم الغرب أجواء جديدة للاتصال؛ ففي القرن الثامن عشر ظهرت المطابع والكتب، وفي القرن التاسع عشر الصحافة، وفي القرن العشرين الراديو والتليفزيون ،وكل هذه الطرق لعبت دوراً هاماً في نشر الأفكار الغربية وغيرها من الأفكار».

وبعد إشارة إلى أول جريدة رسمية عثمانية وأول افتتاحية لأول عدد منها ـ قال: «ومن عمل الصحافة الإتيان بالمعلومات المفيدة عن الحركة التجارية

والعلمية «والفنية» والأدبية . . والصحيفة الأولى المستقلة (أي عن الحكومة) في تركيا كانت صحيفةً أسبوعيةً أسست سنة (١٨٤٠ م) بواسطة أحد الرعايا الإنكليز!! واسمه «وليم تشرتشل» ثم تبعتها صحف عدة بالتركية والعربية والفارسية وبعض اللغات الأخرى».

ويمضي في تعداد أوجه التأثير الغربي الذي أخذ يتغلغل في الحياة الإسلامية ويصبغ واقع المسلمين بطابعه فيقول: «ومع الصحافة ظهر الصحفيون كوجه جديد غير سار في حياة الشرق الأوسط، ثم ظهرت طائفة جديدة لا تقل أهمية عن الصحفيين وهي طائفة المحامين، ولقد كان التشريع في الماضي هو الشريعة المقدسة وهي فرع من العلوم الدينية، وكان العلماء هم وحدهم الذين يعملون كمحامين، ولقد جاءت الإصلاحات التشريعية والقانونية ثم أصدرت القوانين الجديدة وفتحت المحاكم لتطبيق هذه القوانين؛ كل ذلك أدى إلى ظهور طبقة جديدة من المحامين «العلمانيين» الذين لعبوا دوراً كبيراً في الحياة السياسية الجديدة وفي تطبيق الأساليب والأفكار السياسية الجديدة، ولقد احتاج الصحفيون والمحامون والنماذج «الجديدة» من الضباط والموظفين المدنيين ـ احتاجوا جميعًا إلى نظام تعليمي وبرامج تدريسية جديدة بدل «الأسلوب التقليدي القديم» في تعليم الدين والأدب. وكان «غذاؤهم» في اللغات الغربية والأدب الغربي وفي التاريخ والجغرافيا والحقوق ثم بعد ذلك الاقتصاد والسياسة».

ويمضي بعد ذلك في بيان أن تلك العلوم كانت غربيةً وجديدةً عليهم إلا أنها كانت سهلة الحفظ والفهم، وكان يمكن تمثلها جنبًا إلى جنب مع الموضوعات «التقليدية»، والإتقان فيها يعتمد ويتوقف على قوة المدرس

وذاكرة الطلاب مقرراً بعد ذلك اختلاف الأمر بالنسبة للعلوم التطبيقية والفيزيائية حيث اندثرت الروح العلمية التي كانت عند المسلمين بعد أن نشأ منهم مجتمع يقاوم بشدة الفكر العلمي.

ويتجنى على المسلمين بمثل قوله: «وكان هناك عائق لا يقل أهمية في سبيل انتشار الروح العلمية، وهو نظرة المسلمين «المتأصلة الجذور» بالنسبة للجهد والعمل والسكون، نظرة تجعل من المسلم حتى في هذه الأيام سائقاً شجاعًا فطنًا وميكانيكياً كسولاً غير متفطن».

فهذه النظرة من المسلمين المعاصرين للجهد والعمل ليست «متأصلة الجذور» فيهم كما يدعي «برنارد لويس»، بل إن جذورهم الأولى إنما نمت وترعرعت على أساس من حب العمل وتقدير العمل والحث على العمل، ويكفي أن دستورهم الخالد القرآن الكريم يأمرهم بالعمل فيقول الله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

بينما تراه يقول الحقيقة كل الحقيقة حين يذكر بعد ذلك أن الكليات العسكرية الجديدة كانت تدرِّس أول ما تدرِّس علوم الطب والهندسة بالإضافة إلى العلوم المفيدة الأخرى التي كانت أول ما ترجم من نتائج الفكر الغربي إلى اللغتين العربية والتركية، إلا أن كثيراً من خريجي المعاهد الطبية كانوا يفضلون العمل الإداري ولا يريدون تلويث أيديهم بجراثيم المرضى، وبقيت المعاهد العلمية كنمو غريب وغير طبيعي بقي الغرب يرعاه ويحقنه دورياً بدم جديد، ولم يكن هناك نمو علمي ذاتي - أي لدى مسلمي الشرق الأوسط - كما جرى في اليابان والصين والهند مثلاً.

كل هذا حق نوافقه عليه، ونعترف به، ونعتبره جزءاً من هزيمتنا الثقافية

التي لا زلنا نرزح تحت نيرها. ومما يقع في دائرة الحق أيضًا قوله بعد ذلك: «فكل جيل من الطلاب الجدد يعتمد على المصادر الغربية، أما الغرب فكان يتقدم بسرعة مذهلة، وكانت النتيجة هي الفرق الكبير في المعلومات العلمية والإمكانات الفنية ومن ثم القوة العسكرية بين الشرق الأوسط والدول الغربية المتقدمة، والفرق الآن بينهما هو أكثر مما كان عليه قبل مائة وخمسين عامًا وذلك عندما بدأت عملية (التغريب)».

وفي ختام هذا الفصل المثير يتحدث عن آثار ذلك «التغريب» على المسلمين فيقول: «والتغريب الذي كان من عمل الغربيين بل كان أكثره من عمل «المغربين» من أبناء الشرق جاء بتغييرات يُشَك كثيرًا في قيمتها، وأول هذه التغييرات هو الانحلال السياسي الذي أدى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها»، إلى أن يقول: «وصاحب نسف وانهيار النظام السياسي القديم على أية حال انحلال اجتماعي وثقافي مواز له... ثم دُمِّرت الأساليب القديمة وسُخِرَ من القيم القديمة ثم أُهمِلَت وقام محلها مجموعة من المؤسسات والقوانين والمقاييس الوضعية المستوردة من الغرب والتي بقيت لمدة طويلة غريبة عن أحاسيس وآمال المسلمين في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى كونها تافهة بالنسبة لحاجاتهم».

وفي الوقت الذي رأينا فيه «برنارد لويس» يشير إشارات عابرةً إلى جهود بعض «متغربي الشرق الأوسط من حكامه الشرقيين» في عملية التغريب تلك دون تفصيل - نرى الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» يتناول ذلك بشيء من التفصيل[1] فيذكر أن عصر النهضة الحديثة في

---

(١) ص١٤ وما بعدها.

أوروبا كان قد آتى ثماره في مختتم القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في كل قطاعات الحياة العلمية والتطبيقية والاقتصادية ؛ مما أدى إلى تعاظم نفوذ كثير من الدول الغربية وسعيها إلى الانتشار والغزو الحربي والتوسع الاستعماري ، وكانت الاكتشافات الحديثة الكثيرة في القرن التاسع عشر ذات أثر كبير في توسيع الهوة وزيادة الفارق بين قوة الغرب وضعف الدول الإسلامية .

وفي القرن التاسع عشر قامت عدد من الدول الغربية باستعمار بعض البلدان الإسلامية واحتلالها ، الأمر الذي زاد معه الشعور بالخطر لدى الدول الإسلامية فبدأ الإحساس لديها بضرورة تعزيز جيوشها ، وتطلَّع المسلمون إلى الأخذ بأساليب البلاد الغربية في تنظيم جيوشها وتسليحها ، ولكنهم وجدوا أن تحقيق ذلك الهدف الحربي لابد أن تصاحبه نهضة علمية ، وقد سبقهم الغرب بآماد بعيدة ، وليس الأمر سهلاً كما يُتَصوَّر ، إذ تحتاج الخبرات التي تتمتع بها الجيوش الغربية إلى إعداد طويل في مدارس تختلف عن أنماط المدارس التي انتهى إليها التعليم في البلدان الإسلامية ، ومعنى هذا استحالة اللحاق بالغربيين في هذا الميدان إلا عن طريق نقل ما لديهم من تلك العلوم العصرية التي تفوقوا فيها لتحقيق الهدف الحربي المتمثل في بناء القوة الذاتية . وقد اتخذ هذا النقل طريقين : طريق بعثات إلى البلاد الأوروبية ، وطريق استقدام أساتذة وخبراء غربيين للتدريس في المعاهد العلمية على اختلاف أنواعها ودرجاتها وللتخطيط للنهضة الحربية المأمولة .

فقد أنشأ السلطان سليم الثالث في تركيا مدارس للحربية والبحرية واستقدم لها المدرسين الأوروبيين ، كما استقدم بعض المهندسين للاستعانة بهم

في إنشاء الصناعات الحربية وتدريب فرق الجيش على النظم والأسلحة الجديدة.

والشيء نفسه حدث في مصر في محاولة من محمد علي باشا لبناء نهضة حربية عقب تنصيبه واليًا على مصر سنة (١٨٠٥م) فأخذ في إنشاء جيش حديثٍ على النظام الأوروبي، وتبع ذلك استقدام ضباط ومهندسين وأطباء من الأوروبيين، وفي الوقت نفسه قام بإرسال بعثات من طلبة الأزهر إلى أوروبا.

ولم تلبث تونس أن اتجهت هذه الوجهة أيضًا حين أحست بحاجتها إلى حماية نفسها من النفوذ الأجنبي المتزايد.

وكذلك كان الأمر في إيران حيث أدخلت أسرة القاجار التي حكمت إيران خلال القرن التاسع عشر النظم الأوروبية العسكرية على جيشها وأنشأت كليةً للعلوم استقدمت لها أساتذة من الأوروبيين.

وخلاصة هذا العرض كله هي أن اتصال الإسلام بالحضارة الغربية في بداية أمره إنما كان محصوراً في الجانب المادِّي الآلي، أو هذا ما أريد له أن يكون، وكان الهدف الوحيد من هذا الاتصال وصل المسلمين بأسباب القوة ليس غير، وهو هدف لا غبار عليه ولا مانع من ذلك الاتصال في سبيل تحقيقه. غير أن الرياح قد جرت بما لا تشتهي السفن، فسارت الأمور على غير ما أريد لها أن تسير عليه؛ فتسربت مع النظم الحربية الجديدة نظريات سياسية وعناصر حضارية وثقافية غربية بحجة ارتباط هذه بتلك، وأن الإصلاح الحربي والعسكري يستلزم إصلاحًا في نظم التعليم وفي برامجه، و ترجمة كثير من الكتب الأوروبية في مختلف العلوم والفنون، واستقدام خبراء ومدرسين ومهندسين من الأجانب، وإرسال بعثات علمية إلى مختلف المعاهد الأوروبية.

وهنا يجدر بنا أن ننقل كلام الدكتور محمد محمد حسين بنصه بعد أن نقلناه فيما سبق بمعناه، حيث شرع في بيان أمثلة لذلك التجاوز للهدف المقصود أساسًا من الاتصال بالغربيين من قبل بعض حكام المسلمين إذ يقول: «على أن بعض حكام المسلمين كان يتجاوز بالإصلاح حدود الاحتياجات الحربية والتنظيم الصناعي والاقتصادي والإداري ويعملون على أن تصبح بلادهم جزءًا من العالم الغربي، فالسلطان محمود الثاني الذي قضى على الإنكشارية كان يترسم خطى الحضارة الغربية في كل شيء، فاستبدل الطربوش الرومي بالعمامة، وتزيًا بالزيّ الأوروبي، وأمر بأن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة العسكريين منهم والمدنيين، وأسَّس وسامًا دعاه وسام الافتخار.

ثم جاء ابنه عبد المجيد فسار على منوال أبيه، وأصدر عقب توليته المنشور المعروف باسم «فرمان الكلخانة» في سنة (١٢٥٥ هـ-١٨٣٩م) الذي رسم فيه طرق الإصلاح الجديد وبيَّن قواعده، وفي مقدمتها الحرية الشخصية والحرية الفكرية، وتسوية غير المسلمين بالمسلمين، والذي كان بدايةً للعصر المسمَّى بعصر (التنظيمات) وفيه توالى صدور القوانين واللوائح المقتبسة من الحضارة الغربية فأنشئت المصارف، وتعاقدت الدولة معها على قروض نظير أرباح، وأدخلت نظم إصلاحية على السجون (حسب ما تقتضيه الإنسانية والعدالة)، وسمح لغير المسلمين أن يلتحقوا بالخدمة العسكرية، ثم صدرت آخر الأمر (مجلة الأحكام العدلية) في سنة ١٢٨٦ هـ-١٨٦٩م ليُعمل بها في المحاكم النظامية التي أنشأها السلطان عبد العزيز وقتذاك. وفي ذلك الوقت كان الخديوي إسماعيل المعاصر للسلطان عبد العزيز يسير سيرته في إدخال الحضارة الغربية وترسُّم خطاها - وقد التقيا معًا في باريس سنة (١٢٨٤ هـ-١٨٦٧م) حين لبَّيا دعوة الإمبراطور نابليون الثالث لحضور المعرض الفرنسي العام.

ومع حرص بعض المصلحين من ولاة المسلمين على أن يجري الإصلاح في حدود الخبرات الفنية التي تتصل بالجيش والصناعة والزراعة والاقتصاد والتنظيم الإداري؛ فإن الأمور قد تجاوزت الحدود التي أرادوها وقدّروها، فلم يكن في تقدير محمد علي أن يتعلم مبعوثوه أكثر من الخبرات التي بُعثوا لتحصيلها، ولذلك كانوا يوضعون تحت رقابة دقيقة. وحين سأله بعض المبعوثين أن يسمح لهم بجولة ليتعرّفوا على الحياة الفرنسية رفض في حزم صارم أن يجيبهم إلى ما يطلبون، ولكن ذلك كله لم يحل دون دخول الأفكار الأوروبية الجديدة التي لم يُردها مع المهارات الفنية التي أرادها».

ثم يمضي الدكتور حسين في بيان أسباب دخول تلك الأفكار الغربية رغم عدم الحرص عليها وعدم الرغبة فيها، وأن تلك الأسباب تتلخص في قراءة أولئك المبعوثين للكتب الفرنسية، ومشاهدتهم للحياة الفرنسية بمختلف صورها ثم تقلدهم من بعد مكان الصدارة والقيادة في مختلف الميادين في بلادهم الإسلامية بعد عودتهم من بعثاتهم، فبدأوا يترجمون كتبًا فرنسيةً وينشرونها منذ عام (١٨٣٠م) في غير ما تخصصوا فيه من فنون، إلى أن يقول بعد ذلك: «وقد تعاون العائدون من أعضاء البعثات في مصر مع البعثة الفرنسية من أتباع سانت سيمون التي استقدمها محمد علي في العقد الرابع من القرن التاسع عشر فأقامت في مصر بضع سنوات تُنظِّم مرافق الدولة في مختلف النواحي الهندسية والطبية والتعليمية، وكان تلاميذ سانت سيمون متأثرين بآرائه الثورية في تنظيم المجتمع على أساس علمي يحل فيه العقل أو رهبانية العلم - على حد تعبير سانت سيمون - محل الدين.

ومن الحق أن هذه النظرية وأمثالها لم تكن تروق في نظر الحاكم الذي لم يكن يريد إلا الحصول على أسباب القوة الحربية والاقتصادية التي هي في نظره

سرُّ تفوُّق أوروبا، ولكن طول معاشرة المصريين لأعضاء هذه البعثة لا بد أن يترك أثرًا في تفكيرهم، وتأثُّر أعضاء البعثات بما شاهدوه في المجتمع الأوروبي واضح فيما كتبوه أثناء إقامتهم في أوروبا أو بعد عودتهم منها، ونستطيع أن نلمس ذلك على سبيل المثال في عضوين من الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين: أحدهما مصري أقام في باريس خمس سنوات من (١٨٢٦ إلى ١٨٣١م) وهو رفاعة الطهطاوي، والآخر تونسي أقام في باريس أربع سنوات من (١٨٥٢ إلى ١٨٥٦م) وهو خير الدين التونسي».

وعلى هذا تكون بداية هزيمتنا النفسية المعاصرة التي بلغت أقصى مداها في زماننا هذا - حسبما يراه الدكتور محمد محمد حسين - ذلك الاتصال الذي تم بين المسلمين وبين الأوروبيين في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وهو اتصال بين طرفين غير متكافئين كانت نتيجته ذوبان الطرف الأضعف، وهم المسلمون، في الطرف الأقوى وهم الأوروبيون، ذوبانًا شبه كامل وشبه تام حيث ترسَّموا خطاهم وساروا على منوالهم في كل شيء؛ في الزي واللباس والهيئة، وفي النظم والتشريعات والقوانين، وفي طريقة التفكير وطريقة الكلام وطريقة المشي وطريقة النوم واليقظة والقيام والقعود وسائر طرائق الحياة الأخرى مما دقَّ أو جلَّ.

ويذكر الدكتور عبد الكريم عثمان - رحمه الله - في كتاب «معالم الثقافة الإسلامية»[1] في معرض حديثه عن موقف الثقافة الإسلامية من تحديات الثقافة الغربية في الفصل الذي عَنْوَنَه بذلك - أن ذلك الموقف تمثل في أربعة اتجاهات خلاصتها: الاتجاه السلبي الرافض مطلقًا، والاتجاه الداعي إلى التغريب

(١) ص١٤٤ وما بعدها نشر مؤسسة الأنوار بالرياض.

وقبول الحضارة الغربية مطلقًا، والاتجاه الذي يحاول التوفيق بين الحضارتين، وأخيراً الاتجاه المحافظ المجدد في آن واحد، أي المحافظة على تعاليم الكتاب والسنة، مع الإفادة من خير ما أنجزته المدنية الغربية والعلم الغربي.

والذي يعنينا نحن في مبحثنا الذي بين أيدينا هو الاتجاه الثاني من هذه الاتجاهات، ذلك الاتجاه المتمثل في القبول المطلق لكل معطيات الحضارة الغربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها، والأخذ بكل أسباب التغرُّب والتغريب؛ سواء ما يتعلق منها بالعلم والصناعة أو يتعلق بالثقافة وأسلوب الحياة الروحية والعقلية واللغوية.

يقول الدكتور عثمان عن هذا الاتجاه ممثّلاً له: «أما الاتجاه الثاني فهو موقف المستسلم للحضارة الغربية، المقلد لها، المؤمن بكل قيمها ومبادئها، الداعي لها بحذافيرها، بعقائدها الأساسية ومناهجها الفكرية وفلسفتها المادية ونظمها الاقتصادية والسياسية. وقد وُجد لهذا الاتجاه أنصار ومؤيدون في كافة بقاع الإسلام.

وكانت تركيا من بين دول الإسلام أول دولة تتخلى رسمياً عن ماضيها الإسلامي بكل ما فيه من ثقافة وفكر وتقليد وأنماط حياة، ومع أن الأتراك كان لهم دولة حرة واسعة الأرجاء إلا أنهم كانوا قد فقدوا إلى حد بعيد ثقتهم بأنفسهم ولم تعد لديهم قوة الإيمان واليقين بما عندهم من مقومات الحياة؛ فانهاروا تحت تأثير ضربات الثقافة الغربية الفائضة بالروح الجديدة والطاقات العظيمة والثورة الصناعية والعلمية والفكرية.

ولم تستطع فئة العلماء القدامى التي لا تدرك شيئًا عن المقتضيات الجديدة

والتطورات الحديثة أن تقف أمام فئة من الجيل الجديد الذي تلقى ثقافته في عواصم أوروبا أو في بعض الكليات العصرية في تركيا، فنشئوا على الاستهانة بالدين واليأس من مستقبله وكراهة رجاله مع تقديس الحضارة الغربية بكل ما فيها، وكان ضياء كوك إلب هو الممثل الفكري لهذا الاتجاه كما كان أتاتورك اليد المنفذة له».

وهكذا يثبت الدكتور عثمان أن جذور الهزيمة الأولى في العصر الحديث في تركيا إنما كانت تتمثل في ثورة مصطفى كمال أتاتورك على الإسلام وإحلال الحضارة الغربية بكل مساوئها محل الحضارة الإسلامية في جميع مجالات الحياة تنفيذاً لذلك الفكر المنهزم المتمثل في اتجاه ضياء كوك إلب ومن على شاكلته.

أما جذور تلك الهزيمة الشنيعة في بلاد الهند ولدى المسلمين الهنود فيحكي الدكتور عثمان أنها كانت على يد أحمد خان فيقول عن ذلك[١] : «أما في الهند فقد تحمَّس لاتجاه التغريب أحمد خان والمدرسة الفكرية التي أسسها؛ دعا أحمد خان دعوة ضياء كوك وأتاتورك، أي إلى تقليد الحضارة الغربية وأسسها المادية، واقتباس العلوم العصرية بحذافيرها وعلى علاَّتها، وتفسير الإسلام والقرآن تفسيراً مطابقًا لما وصلت إليه المدنية الحديثة في آخر القرن التاسع عشر المسيحي».

ولا يهمنا الاسترسال في آراء أحمد خان هذا ـ فقد يكون لذلك موضع آخر من هذا البحث ـ إنما الذي يهمنا معرفة أنه مؤسس الجذور الأولى للهزيمة

---

(١) ص١٤٨ .

النفسية والفكرية في جزء من ديار المسلمين هو الهند منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

أما الجذور الأولى للهزيمة في مصر فيفيد ما أورده الدكتور عثمان عن ذلك اتفاقه مع من تناول بحث ذلك من مفكري الإسلام ودارسي الغزو الثقافي الغربي لديار الإسلام وآثاره - في أن مؤسسي تلك الجذور في البلاد المصرية هم أولئك المؤلفون والأدباء الذين لا يجدون لعالمٍ مستشرق بحثًا أو نظرية إلا ويتبنونها بكل إخلاص ويشرحونها ويدعون إليها بكل لباقة[١].

ولعل الدكتور عثمان يشير بذلك إلى سلامة موسى وطه حسين وعلي عبد الرازق ورفاعة الطهطاوي قبل ذلك، وغيرهم ممن أشربوا حب الاستشراق والمستشرقين فتبنوا أفكارهم وآراءهم، ودعوا إلى ما دعوا إليه قبلهم، وسعوا إلى التغريب بكل سبيل ومن كل طريق، بل إنه يعني أولئك فعلاً بدليل قوله: «ولا يسمح لنا الوقت بتفصيل الحديث عن رجال هذا الاتجاه وآرائهم ولكننا سنكتفي باستعراض أقوال أحد زعمائه وهو الدكتور طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر)»[٢].

* * *

(١) ص١٥٠.

(٢) ص١٥٠.

الفصل الأول

مظاهر الهزيمة النفسية في المسلمين وخطرها

الفصل الأول

مظاهر الهزيمة النفسية في المسلمين وخطرها

المبحث الأول

مظاهر الهزيمة النفسية

- مجال الفكر (الفكر التربوي، الفكر الإعلامي).
- مجال النظم (النظام الاقتصادي، النظام السياسي).
- مجال السلوك (سلوك الفرد، سلوك الجماعة).

المطلب الأول: مظاهرها في مجال الفكر:

أولاً: الفكر التربوي:

إن لهذه الهزيمة النفسية التي تعيشها الأمة الإسلامية أفرادًا وجماعات مظاهر لا تخفى على المتأمل الفاحص، بل إن بروز بعض تلك المظاهر يجعلها لا تخفى حتى على غير المتأمل الفاحص؛ إذ تكاد تكون من شدة بروزها واضحةً للعيان، وتكاد تلمسها اليد.

وإن من أهم المجالات التي يلمس فيها أثر الهزيمة النفسية واضحًا قويًا مجال الفكر، ومن أخطر طرائق ذلك الفكر وفروعه ما يتعلق بالفكر التربوي الذي يصوغ أجيال الأمة، ويطبعها بطابعه، فبقدر صلاح هذا الفكر التربوي أو فساده تصلح الأجيال أو تفسد.

ومظاهر تلك الهزيمة النفسية النكراء في مجال الفكر التربوي كثيرة، يحتاج استقصاؤها إلى كثير من الوقت وعديد من الصفحات، ولكننا سنحاول الاكتفاء ببعضها عن البعض الآخر طلبًا للإيجاز واستجابةً لعامل الوقت فمن تلك المظاهر:

(١) محاصرة التعليم الديني ماديًا و معنويًا: فماديًا بفتح مجالات التعليم اللاديني في مواجهته وتشجيعه على حسابه، ومعنويًا بما يلجأ إليه «المنهزمون» من أساليب السخرية بوسائل التعليم الديني من أستاذ وتلميذ ومنهج، في محاولة لتنفير طالب العلم الديني منه، وبالتفرقة بين معلم الدين واللغة العربية وبين غيرهما من معلمي العلوم الأخرى في التعامل بكل صُوَره؛ من حيث المعاملة والاهتمام والتقدير المادي والمعنوي، ومن حيث الرواتب والحوافز والمميزات المالية الأخرى؛ لإشعار معلمي الدين واللغة العربية بالمذلة والهوان وعدم أهمية المواد التي يدرسونها.

ولعل من أبرز مظاهر ما أشرنا إليه من التنفير اختيار أسوأ أوقات اليوم الدراسي عند الطالب للمواد الدينية والعربية؛ فهي دائمًا تأتي في الساعات الأخيرة، وتحتل إما الحصة الأخيرة أو التي قبلها، وهدف المهزومين من ذلك ألا يعي الطالب منها شيئًا، وليس ذلك فحسب بل وأن يكرهها، ويسأم منها ومن مدرسها الذي يأتيه وهو في أشد حالات الإجهاد وأحوج ما يكون إلى الراحة والاسترخاء.

ويتبع ما ذكرناه من التفرقة والتمييز بين مدرسي العلوم الدينية والعربية ومدرسي العلوم الأخرى حرمان معلمي الدين والعربية في الغالب الأعم من الفرص الإدارية، والمناصب القيادية والوظائف الإشرافية، حتى لا يتسنموا ذروة التوجيه، أو يحتلوا موقع صنع القرار.

(٢) بل إن هذا الانشطار في التعليم أساسًا، وظهور هذه المناهج المزدوجة وتقسيم التعليم إلى تعليم ديني، وتعليم آخر - يسمى أحيانًا مدنيًا وأحيانًا عصريًا، وفي أحيان أخرى لا يسمى شيئًا - هذا الانشطار والتقسيم في حدِّ ذاته مظهر من مظاهر الهزيمة في المجال التربوي في ديار المسلمين. وذلك أن التعليم في البلاد الإسلامية لا يمكن أن يكون إلا دينيًا، ولا يجوز أن يسمى كله بغير ذلك، ولا أن ينفصل جزء منه، فيسمى بغير ذلك أيضًا.

ألا ترى إلى الأمم الأخرى من أصحاب العقائد الباطلة تلحُّ على أن يكون التعليم ومناهجه والثقافة وفروعها مصطبغين بصبغتها الحضارية الخاصة بها، منبثقين من عقائدها الدينية، وملتقيين معها، ومنطلقين من فلسفتها العريقة، وخاضعين للأسس الفكرية والجذور العميقة التي تؤمن بها، وتعض عليها بالنواجذ، وخير مثال لذلك اليابان البوذية والهند البرهمية[1].

(٣) ومن مظاهر تلك الهزيمة المريعة كذلك إهمال الجامعات والمعاهد الإسلامية العريقة وتركها تصارع الفناء، وتجاهلها وعدم معالجة المشكلات التي تعاني منها أو إزالة العقبات التي تعترض طريق تقدمها، ومساعدتها على تحقيق أهدافها الخيرة وغاياتها النبيلة.

ونمثل لذلك بحال كل من الأزهر في مصر وجامع الزيتونة في تونس وغيرهما، يقول الشيخ محمد الغزالي واصفًا ذلك الإهمال للجامع الأزهر في كتابه «كفاح دين»[2]: «وزاد الطين بلّةً أن الدولة انصرفت عن العناية بهذا المسجد الكبير، ولم تبال أن تتقلص منه عناصر الحياة، وأن تسود فيه عناصر الركود والضعف فماذا ترى الآن؟ إني أذهب إلى مباني الكليات الأزهرية

---

(١) التربية الإسلامية الحرة للندوي ص٥٤ بتصرف.

(٢) ص٢٣٦.

وقاعة المحاضرات الكبرى فأجد عليها جميعًا غبرةً ترهقها قترة؛ برج الساعة خال لا ساعة فيه، القاعة مقفرة لا أنيس بها ولا صوت! زجاج النوافذ مُحَطَّمٌ وقد وضعت في فراغه أوراق الكرتون!.

الأطلال القديمة تسفي الغبار، والأبنية الجديدة يبول عليها الرعاع!! وجبل المُقطَّم يلقي ظلال الخيبة على المكان الهامد! ولقد كان من ثلاثين سنةً مقابر للموتى، وهو الآن مقابر لنفر من الشيوخ النائمين والشباب الهائمين . . .».

(٤) والتوسع في الابتعاث إلى الخارج - أعني إلى الدول الكافرة - مظهر آخر من مظاهر هزيمة الأمة النفسية في مجال الفكر التربوي على اعتبار أن ذلك الابتعاث غير المحصَّن في الغالب وسيلة لتشرُّب المبتعث عادات البلد المبتعث إليه وتقاليده وأخلاقه نتيجةً للمعايشة الطويلة، والانبهار بما يجده المبتعث لدى «القوم» من تقدم «علمي تكنولوجي» يجعله قابلاً للتأثر بما لديهم من منطلق الإعجاب والتصور بأنهم يمثلون «القوة الخارقة»، وهو من المبتعِثين (بكسر العين) دليل إعجاب بغير حدود بالمبتعث إليهم، وشعور بأنهم معدن العلوم وأصل الأصول، وبداية كل تقدم ونهايته، وكفى بذلك انهزامًا.

وليت ذلك التوسع كان من نصيب العلوم التجريبية والطبيعية و«التكنولوجية» التي تشكو البلاد الإسلامية من ضعف شديد فيها، إذًا لكان الأمر أهون، ولكنَّ ذلك التوسع كان في مجالات تتصل بالبيئة والتراث والوضعيات المحلِّية كعلوم التربية وطرق التدريس والعلوم الإنسانية جملةً؛ فقد نشرت الجريدة الرسمية بمصر تقريراً عن البعثات الدراسية التي ستوفدها وزارة التعليم العالي لسنة ١٩٧٣م، وذكر التقرير أن نصيب العلوم الطبيعية لا يتجاوز أكثر من خمس بعثات من بين أكثر من مائتي بعثة، وخُصِّص الباقي

جميعه للعلوم الإنسانية التي كان نصيب علوم التربية وطرق التدريس منها أكثر من مائة وعشرين بعثة[١] . . . فتأمل!

(٥) أما انتشار المدارس الأجنبية في البلاد الإسلامية فماذا يقال عنه غير أنه من أبرز مظاهر تلك الهزيمة في هذا المجال. فقد تُوُسِّع في افتتاح تلك المدارس في كل بلد إسلامي حتى زادت عن الحاجة. وهي من أصحابها دليل على تخطيطهم الرهيب لغزو هذه الأمة المسلمة في عقر دارها، ومن أهل الإسلام دليل تخاذل وضعف وانهزام قاتل. إن تلك المدارس المنتشرة في كل ناحية من بلاد المسلمين ذات مناهج أشبه ما تكون بمناهج الدول الأجنبية «الغازية» بل قد تطابقها تمامًا.

(٦) ومن مظاهر الهزيمة النفسية في المجال التربوي تمييع المناهج الإسلامية، واختصارها باسم التطوير والإصلاح والتعديل، وما إلى ذلك من الأسماء اللامعة، والحجج الواهية البراقة. يقول الدكتور علي جريشة ومحمد شريف الزيبق في «أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي»[٢] عن ذلك التمييع: «وقد رأينا أن كرومر قد دعا إلى تطوير الأزهر، ورأينا خلفاء كرومر يقومون بالتطوير بعد خمسين سنة أو يزيد. ومع كرومر أو قبل كرومر نادت بذلك مؤتمرات التبشير. ولم يكن الأمر قاصرًا على مناهج المعاهد والكليات الدينية، إن الأمر امتد إلى مناهج «الدين» في التعليم العام، فاقتصرت على القشور، واحتوت على التعقيد، وصاحبها سوء اختيار معلم الدين الذي كثيرًا ما يكون مُتَعَمَّدًا ليورث في اللاشعور كراهية الدين والسخرية منه».

---

(١) انظر كتاب «المسلمون في معركة البقاء» للدكتور عبد الحليم عويس ص١١٣ ـ ١١٤.
(٢) ص٦٧.

(٧) وإذا كان الاختلاط بين الجنسين مظهراً من مظاهر الانهزام في الحياة الاجتماعية العامة وفي محيط الأسرة، فإنه كذلك مظهر لذلك الانهزام الذي غلّف حياة المسلمين وطبعها بطابعه في المجال التربوي أيضًا، حيث انتشر ذلك الاختلاط بين الطلاب والطالبات ابتداءً بالمرحلة الابتدائية بحجة براءة كل من الفريقين، ثم ارتفع مستوى ذلك الاختلاط إلى المراحل التي بعدها الإعدادية والثانوية بحجة تعوُّد كل من الفريقين على الآخر، وأخيرًا شمل الاختلاط مرحلة الجامعة؛ إذ كيف يفصل الجنسان عن بعضهما في الجامعة وقد اختلطا فيما قبلها؟! ليس هذا معقولاً!!

وهكذا أصبح هذا الاختلاط عارًا في جبين الأمة الإسلامية وسُبَّةً في تاريخها المعاصر، ومظهراً من مظاهر «ببّغاويّتها» وتبعيتها «وانهزامها».

(٨) ومن المظاهر كذلك الترويج للَّهجات السوقية المحلية التي يسمونها العامية بمختلف الأساليب والطرق والوسائل، وَوَجْهُ كون ذلك انهزامًا أنه استجابة لرغبات أعداء الأمة الحريصين على تمزيق وحدتها عن طريق تفتيت لغتها الجامعة المانعة، وإحلال لهجات عامية محلها، لتتفرق الأمة بتفرق ألسنتها، ولتختلف باختلاف وسيلة بيانها، وليقبُع كل شعب من الشعوب الإسلامية داخل حيِّزه الضيق، فتنقطع صلته بالشعوب الإسلامية الأخرى، لا يقرأ لها ولا تقرأ له، ولا يأخذ عنها ولا تأخذ عنه، وفي ذلك قتل للأمة ما بعده قتل، وتشتيت لقوتها لا يرجى بعده لها اجتماع.

(٩) ومنها أيضًا محاولة انتزاع الدراسات العربية من حضانة الدين والقرآن لنزع قداسة اللغة العربية، وحرمانها من حماية الدين وحضانته إياها، وكشفها أمام أعدائها، وإعانتهم على الإجهاز عليها بعد تجريدها من كل نصير

أو معين[١]، ومن أبرز من حاول ذلك الدكتور طه حسين الذي نقل عنه الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «حصوننا مهددة من داخلها»[٢] نصًا يدل على استماتته في هذا السبيل.

يقول الدكتور حسين بعد ذكره أن أعداء العروبة والإسلام يتحايلون في انتزاع الدراسات العربية من حضانة الدين والقرآن: «وحتى قال قائلهم: فالذين يزعمون لنا أننا نتعلم العربية ونعلمها لأنها لغة الدين فحسب، ثم يرتبون على ذلك ما يرتبون من النتائج العلمية والعملية إنما يخدعون الناس وليس ينبغي أن تقوم حياة الأمم على الخداع، فإن اللغة العربية ليست ملكًا لرجال الدين يؤمنون وحدهم بها، ويقومون وحدهم من دونها، ويتصرفون وحدهم فيها، لكنها ملك للذين يتكلمونها جميعًا من الأمم والأجيال، وكل فرد من هؤلاء الناس حر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التي تبيح له هذا التصرف، وإذًا فمن السخف أن يُظَنَّ أن تعليم اللغة العربية وقفٌ على الأزهر الشريف والأزهريين، وعلى المدارس والمعاهد التي تتصل بينها وبين الأزهر والأزهريين أسباب طوال أو قصار. هذا سخف؛ لأن الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية جميعًا، وفيهم المسلم وغير المسلم».

(١٠) ومن مظاهر الهزيمة كذلك اتخاذ مجامع اللغة العربية، ومكاتب جامعة الدول العربية ميدانًا لنشاط هدَّام أشرنا إلى طرف منه في فقرات سابقة، كدعوة أحدهم في المؤتمر الأول لمجامع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٧٦ هـ إلى

---

(١) راجع في هذا «حصوننا مهددة من داخلها» لمحمد محمد حسين ص٢٣٨ وما بعدها.

(٢) ص٢٣٨ وما بعدها.

تأليف «معاجم محلِّية»! ودعوة آخر إلى إعادة النظر في تبويب النحو وتدوينه من جديد. تلك الدعوات التي وجدت طريقها إلى التنفيذ فيما بعد، لتضيف إلى مظاهر الانهزام في مجال التربية مظهراً جديداً بشعًا ومخيفًا، حين أصدر عبد العزيز القوصي وشركاه كتبهم المشهورة بكتب «شرشر» أو «جلا جلا»، وحين صدرت كتب النحو الجديد التي سموها «تيسير النحو» ثم «إحياء النحو»، وكل هذه الكتب معاول هدم في صرح لغتنا العربية الخالدة، وهي بالتالي معاول هدم في صرح ديننا الذي عليه نلتقي، وفي رحاب لغته المبينة نجتمع ونتحد.

فهذا الذي يزعمونه تطويراً تدمير في حقيقته، وهدم للكيان القائم الممتد منذ أربعة عشر قرنًا، وفصل مريع بين السلف والخلف من هذه الأمة الشاهدة على الأمم.

وما أجمل ما قاله الدكتور محمد محمد حسين وهو يتحدث عن أساليب أولئك الهدَّامين للُّغة والأدب والدين إذ يقول: «فإهمال أدبنا القديم وتوجيه أكثر العناية إلى الأدبِ الحديث، بل التَّأفه منه في الأعم الأغلب، وتجنب ما كان منه على منوال القديم جزالةً وروعةً وفخامة أسلوب واحتفالاً بالمعاني الكبار - خليق أن يعين على تدعيم ما يدبره بعض المفسدين، ويسلكون إليه مختلف المسالك، ويعالجونه بشتى الأساليب، حين يسعون إلى فصل حياتنا الراهنة والمستقبلة عن مصادرها القديمة؛ حتى تتفرق جماعتنا، ويتشتت شملنا، وحتى لا تكون أخلاقنا امتداداً لأخلاق آبائنا، ولا تكون أذواقنا امتداداً لأذواقهم، ولا تكون لغتنا وأساليبنا امتداداً للغتهم وأساليبهم، وحتى لا يكون إسلامنا امتداداً لإسلامهم. فإذا نجحت هذه العصابة في أن يجعلوا «المجتمع العصري» الذي يتحدثون عنه مقطوع الصلة بماضينا في الدين، وفي اللغة، وفي العادات، وفي الذوق الفني، وفي المزاج، وفي التقنين الخلقي - فأي جامعة

يمكن أن تجمعنا عند ذاك؟! وأي طابع يمكن أن يميزنا عن غيرنا من سائر خلق الله، ويجعل لنا الحق في أن نقول: إننا قوم، إننا عرب؟! ما أيسر أن نكون عند ذلك تبعًا لسادة الشرق أو الغرب، وذيلاً لكائن من كان ممن يريد أن يستلحقنا كما كان السادة يستلحقون العبيد في عصور الرق»[١].

(١١) ومن أقبح مظاهر تلك الهزيمة في هذا المجال أيضًا ذلك القرار الذي صدر بإحدى كليات الآداب في إحدى جامعات البلاد الإسلامية متضمنًا إنشاء شعبة سَمَّوْها «شعبة الدراسات العربية الحديثة» حذفوا من مواد الدراسة فيها كلاً من النحو والصرف والبلاغة والشعر العربي ونصوص الفصحى والأدب العربي والتاريخ الإسلامي والقرآن والحديث فماذا أبقوا؟ لقد جعلوا مكان ذلك كله «دراسات لغوية حديثة» و«الأدب الشعبي» و«المذاهب الكبرى في الآداب الأوروبية» و«مدارس القصة» و«تطور الفكر الإسلامي في العصر الحديث»[٢]، هذه هي المواد البديلة« التطورية» عند المهزومين تربويًا وفكريًا وثقافيًا، لقد بلغ من انهزام أصحاب ذلك القرار أن خلعوا ثيابهم واستبدلوا بها ثياب عدوهم تقربًا إليه وزلفى.

(١٢) ومظهر آخر للانهزام لا يقل عن سابقه شناعةً، يتمثل في اقتراح تقدم به أحد أعضاء «لجنة التربية الدينية» بوزارة التربية المصرية بإنشاء شعبة الدراسات الإسلامية في كليات الآداب بالجامعات المصرية لتخريج مدرس الدين الإسلامي المرن الذي يستطيع أن يساير الزمن بدل ذلك الأزهري المتخلف عن ركب الحياة[٣]!

---

(١) حصوننا مهددة من داخلها ص٢٤٦.

(٢) راجع المرجع السابق ص٢٤٠.

(٣) المرجع السابق ص٢٤١.

(١٣) ومما يلحق بذلك المظهر ذلك الاقتراح «السمج» الذي تقدم به الدكتور طه حسين الداعي إلى إنشاء معهد الدراسات الإسلامية يلحق بكلية الآداب للعناية بالدراسات الإسلامية (على نحو علمي صحيح) ـ على حد زعمه ـ مبررًا اقتراحه ذاك؛ بأن كلية الآداب متصلة بالحياة العلمية الأوروبية، وهي تعرف جهود المستشرقين في الدراسات الإسلامية، ومن الحق عليها أن تأخذ بنصيبها في هذه الدراسات لتلائم بين جهود مصر التي ترى لنفسها زعامة البلاد الإسلامية، وبين جهود الأمم الأوروبية.

واقتراحه الآخر بإنشاء معهد للأصوات لدراسة اللهجات قديمها وحديثها ـ حلقةٌ في سلسلة هدم اللغة العربية الفصحى وتمزيق شملها.

(١٤) ومن أشد تلك المظاهر أثرًا في إضعاف الأجيال المسلمة في جانب عقيدتها وإيمانها، ذلك المظهر الذميم المتمثل في «هذا النقص، وهذا التقصير الواضح الظاهر في مناهج التعليم فيما يختص بالعقيدة الإسلامية التي هي السلاح الأول في مواجهة أي تحديات، أو أية مبادئ هدامة. إن من المؤسف ومن المحزن أيها الإخوة أن نجد في مناهج دول إسلامية عتيدة أن نصيب التربية الإسلامية ـ كما يسمونها ـ حصة واحدة في الأسبوع، وفي كثير من البلدان هذه الحصة اختيارية، وللطالب كامل الحرية في أن يؤدي الامتحان فيها أو لا؛ وليس لها أي تأثير على اجتياز مرحلة تالية. إن هذا التفريط في الواقع ناتج في نظري على الأقل عن الانبهار الذي نراه أمامنا، والذي حققه الغرب والشرق وفرض علينا بشتى الوسائل»[1].

---

(١) قضايا الفكر الإسلامي المعاصر/ مجموعة أبحاث ووقائع اللقاء الثاني للندوة العالمية للشباب الإسلامي ١٣٩٣هـ من كلمة الأستاذ محمد العميل ص ٢٢٥.

ومضى الأستاذ محمد العميل الذي كان يلقي هذه الكلمة الصادقة المعبرة الشجاعة أمام الندوة السادسة من ندوات اللقاء الثاني للندوة العالمية للشباب الإسلامي عام ١٣٩٣ هـ وكان وقتها يشغل منصب مدير التعليم بالرياض ـ مضى بحرص المؤمن على علاج مشكلات أمته يقول: «هذا الانبهار أنسانا ـ كمسئولين عن التربية ومسئولين عن التعليم ـ أنسانا عقيدتنا، وأنسانا تراثنا، وجعلنا نجري وراء هذا البريق؛ لكي نصل إلى ما وصل إليه أعداؤنا، ونسينا ما يجب علينا أولاً وقبل كل شيء، وهو أن نسلح الشاب المسلم بالعقيدة الإسلامية التي تُحصِّنه.

لقد كان الأستاذ العميل في هذه الكلمة الصريحة المخلصة يحدِّد مظهراً بغيضاً من مظاهر الهزيمة النفسية والفكرية لدينا معاشر المسلمين.

(١٥) وشبيه بهذا المظهر الانهزامي في مجال الفكر التربوي ذلك المظهر الآخر في مجال العلم التجريبي الذي يقرره الدكتور راشد المبارك المتخصص في الفيزياء الكيميائية خلال كلمته التي ألقاها أمام الندوة الثانية من ندوات اللقاء الثاني للندوة العالمية للشباب الإسلامي عام ١٣٩٣ هـ، حيث أثار سؤالاً وأجاب عليه، والسؤال وجوابه يفضحان مظهراً انهزامياً ما زال يطبع دراساتنا العلمية التجريبية في جامعاتنا الإسلامية بطابعه: قال الدكتور المبارك:

«فالسؤال يبدو لي منحصراً في: إلى أي مدًى ترتبط مناهجنا في التعليم وطريقة تدريس هذه المناهج بتصورنا عن فلسفة الكون وطبيعة الحياة؟ ذلك التصور المستمد من إيماننا بالله وبعبارة أخرى: هل هذه المناهج وطريقة تدريسها ترتبط بهذا التصور والإيمان؟».

وأجاب على هذا السؤال الذي طرحه قائلاً: «لعلي لا أكون مخطئاً إذا

قلت: إن المرء سيضنيه البحث دون أن يعثر على مثل هذه الصلة، إن العلوم في أكثر الجامعات الإسلامية تدرس وهي مقطوعة الصلة بهذا التصور، وتلك الصورة من صور التقليد أو التبعية لما يحدث في الغرب»[١].

(١٦) ويكاد يكون التعليم الجامعي في العلوم الإنسانية بكامله في البلاد الإسلامية - إلا النزر اليسير منه - مظهراً من مظاهر الهزيمة في مجال الفكر التربوي، وما أصدق ما قاله عنه الدكتور عبد الحليم أبو سليمان المتخصص في العلاقات الدولية خلال كلمته التي ألقاها أمام الندوة التي تحدث فيها الدكتور راشد المبارك نفسها؛ فقد قال الدكتور أبو سليمان عن التعليم الجامعي في العلوم الإنسانية: «إذن فالتعليم الجامعي في العلوم الإنسانية كما هو اليوم تعليم يؤدي مهمةً فنية لقوم غيرنا، ولعقليةٍ غير عقليتنا، ولحوافز غير حوافزنا، ولضمائر غير ضمائرنا»[٢]. لكأني به يريد أن يقول: إننا مهزومون في تعليمنا الجامعي الإنساني فنحن نخدم به كل قوم إلا قومنا، ونُرقِّي به كل عقلية إلا عقليتنا، إنه تعليم نُقلِّد فيه أعداءنا فنُعمِّق بذلك هزيمة ذواتنا.

(١٧) ولعل من أبرز مظاهر الانهزام في مجال الفكر التربوي كذلك هذا الإهمال المتعمَّد لتدريس الناشئة تاريخ أسلافهم العظام ابتداءً بالسيرة النبوية وانتهاءً بسير المصلحين والدعاة وحملة مشعل الإسلام الوهاج في كل عصر ومصر، مروراً بسير القادة من أبطال الإسلام ورجالاته الفاتحين وعلمائه المبرزين والنوابغ من أبنائه قديمًا وحديثًا.

فربط الناشئة في ديار الإسلام بأولئك جميعًا وتدريسهم تاريخهم - واجب

---

(١) المرجع السابق ص ٨١.

(٢) المرجع السابق ص ٩٠.

إسلامي كبير تحتمه ضرورة السعي للاقتداء بهم، وتدعو إليه لازمة السير على منوالهم في العلم والعمل؛ فالأمة القوية المنتصرة الظافرة هي التي تحرص على ذلك الربط وتعمل على مد الجسور بين سلفها وخلفها، لئلا يحصل الانقطاع فيكون سببًا في تنكُّر الخلف للسلف كما هو حادث الآن، ولئلا يترتب على ذلك الانقطاع ملء الفراغ بتواريخ رجال من أمم أخرى لا تمت لأمتنا بنسب ولا سبب كما هو حادث الآن أيضًا.

أما الأمة التي لا تعتني بهذا الأمر البالغ الأهمية فتهمل تدريس ناشئتها لتاريخهم وسير عظمائهم، فهي أمة مهزومة ضعيفة مغلوبة على أمرها، أما إن استعاضت عن ذلك بتدريسهم تواريخ أعدائها، وسير رجالاتهم فليست حينئذ مهزومة فقط بل إنها والغة في قعر الذلة والمهانة والجناية على نفسها وأجيالها المنكوبة.

هذه أبرز مظاهر الهزيمة في مجال الفكر التربوي وليست المظاهر كلها إذ لا سبيل إلى حصرها.

ثانيًا: الفكر الإعلامي:

كما رأينا في مجال الفكر التربوي تلك المظاهر المتعددة للهزيمة النفسية الشنيعة التي يعيشها المسلمون، وتطبع حياتهم نرى ـ لو تأملنا ـ مجالاً آخر لا يقل أهمية عن مجال التربية والفكر التربوي؛ هو المجال الإعلامي، أو مجال الفكر الإعلامي ـ عدداً آخر من تلك المظاهر الانهزامية في هذا المجال حتى ليتأكد المتأمل لتلك المظاهر الفاضحة أن الأمة غارقة في انهزاميتها، مسرعة في الانحدار إلى درك أعدائها، إن لم يتداركها الله برحمته، فيقيض لها من يعيدها إلى صوابها، ويثيبها إلى رشدها.

والإعلام مجال من أخطر مجالات الحياة، وأكثرها حساسيةً، وأعظمها أهميةً لقدرته على تشكيل الأفكار وصناعة الأفراد حسب النوعية التي يريدها وهو مع التربية والتعليم يمثلان جناح التوجيه في أية أمة من الأمم، وعن طريقهما تستطيع الأمة تشكيل أجيالها على النحو الذي تريد.

وهذا المجال الخطير الهام مرتبط أشد الارتباط بواقع الأمة بل مُعبِّر عنه ودال عليه؛ ذلك أنك تستطيع أن تنظر إلى «إعلام» أية أمة من الأمم فتحكم على واقعها من خلاله بقوة أو ضعف، واعتزاز بكيانها ومقوماتها أو انهزام، وتستطيع أن تتعرف من خلاله أيضًا على فكر الأمة وفلسفتها ومدى عمق نظرتها للكون والإنسان والحياة، أو سطحية تلك النظرة، وعلى مدى جدّية الأمة أو هزليتها، وتقدمها أو تخلفها، ووعيها أو انعدام ذلك الوعي لديها.

كل ذلك تستطيع أن تتعرف عليه في أية أمة من الأمم من خلال إعلامها، بإلقاء نظرة فقط على وسائل إعلامها من صحافة وإذاعة وتلفاز وكتاب ونشرة وغيرها.

ولقد قررنا في بحثنا هذا أن أمتنا تعيش في وقتها الحاضر أبشع صور الهزيمة النفسية، ورأينا مظاهر الهزيمة في مجال التربية والتعليم - فلنلق نظرةً على مجال حيوي آخر من مجالاتها هو «الإعلام»؛ لنَرَ مظاهر تلك الهزيمة واضحةً ملموسة تُرى بالعين المجردة. وهي مظاهر كثيرة متعددة نكتفي بذكر أبرزها فنقول:

(١) التناقض الواضح فيما يقدمه الإعلام في البلاد الإسلامية بمختلف وسائله إلى درجة تصل إلى حد العبث والاستهتار بالجمهور المتلقي، وأمثلة ذلك التناقض أكثر من أن تحصى، خذ مثلاً ذلك البرنامج الذي يعرضه التلفاز -

وقد يكون برنامجًا دينيًا أو صحيًا ـ فيتحدث فيه المتحدث عن أضرار التدخين ومساوئه، فما أن ينتهي ذلك البرنامج حتى يعقبه مسلسل أو تمثيلية تعج مشاهدها بالدخان والمدخنين.

وقد يعرض التلفاز برنامج تفسير لآيات من القرآن، وقد تكون تلك الآيات تتعلق بتحريم المعازف والمزامير أو بتحريم الخمر والميسر، فلا يكاد المفسر ينهي تفسيره حتى تصك مسامع المشاهدين وتصافح أعينهم مطربة تتلوَّى ومعها فرقة تعزف وكلها طبَّالون وزمَّارون، أو يصكُّ مسامع الناس ويصافح عيونهم إعلان عن قمار أو خمر أو أي شيء آخر مما يكون قد ورد التحذير منه والنهي عنه في برنامج سبق أو حديث مضى.

وهكذا يتمزق المشاهد وخاصَّةً الشاب الذي لم يتحصَّن بعد بسبب هذا التناقض الذي يراه صباح مساء؛ فلا يقيم لشيء وزنًا، ولا يحسب للكلمة حسابًا، ولا يؤمن بعد ذلك بأمر ولا نهي.

(٢) ويلحق بذلك مظهر آخر من مظاهر الهزيمة النفسية في مجال الفكر الإعلامي يتمثل في ضياع الهوية الحقيقية للأمة في وسائل إعلامها، وتخبط تلك الوسائل في دياجير الحيرة والتيه، وجمعها بين الغث والسمين مع طغيان الغث في معظم الأحيان، وهي في ذلك فريقان: فريق يسير بلا منهج مدروس ولا عقل واع؛ لأهمية دوره في الأمة، وخطورة ذلك الدور، ولا ينطلق فيما يقدمه للناس من مواد من سياسة مرسومة واضحة المعالم ظاهرة الأهداف، وأقل ما يوصف به هذا النوع من وسائل الإعلام البلاهة والغباء و«الببغاوية»، والتحول إلى مجرد وسائل عرض، لا وسائل بناء وتعليم وتوجيه وتثقيف وإعلاء.

أما الفريق الثاني منها فهو ما بان خبثه، وفاحت رائحته التي تزكم

الأنوف، وظهرت أهدافه التدميرية في صورة ما يقدمه للناس من مواد هابطة، وما ينفثه من سموم قاتلة ليس فيها مجال لخير ولا موضع لرشاد. إن أصحاب ذلك النوع من وسائل الإعلام والقائمين عليها لينطلقون من سياسة هدم مُتعمَّد وإضلال وإفساد مقصود.

وبلاهة النوع الأول من تلك الوسائل وغباؤه وببغاويته يدل عليها ما يراه المرء من تجاور الشيء ونقيضه في الصحيفة أو المجلة من ذلك النوع، فتجد زاوية دينية - مثلاً - وبجانبها أو فوقها أو تحتها إعلان عن شيء لا تقره عقيدة ذلك البلد المسلم الذي تصدر فيه تلك الصحيفة أو المجلة. وكما تجد الشيء ونقيضه متجاورين في الصحافة تجدهما متتابعين في الإذاعة مسموعةً أو مرئيةً؛ فتجد برنامجًا دينيًا تعقبه أغنية مثيرة لمغنية مائعة، أو تعقبه ندوة أو برنامج آخر ينسف صاحبه ما بناه البرنامج الديني، ويأتي عليه من القواعد.

وهكذا يستمر التناقض الكبير بين مواد تلك الوسائل الإعلامية فيُسبِّب بذلك ازدواجيةً في الفكر، وانفصامًا في شخصية المتلقِّي، وتحيل الأمر كله بتناقضها ذاك إلى مجرد عبث، ووقت ضائع، ومال مهدور، وطاقة مستنفدة فيما لا طائل تحته.

(٣) وانطلاقًا من صفة «الغباء» و«الببغاوية» التي تتمتع بها معظم وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية يظهر لنا مظهر آخر من مظاهر الهزيمة، هو نقل تلك الوسائل الإعلامية للأخبار والتحليلات السياسية وغيرها هكذا كما وردت، دون تمحيص أو تدقيق أو إعادة نظر، وصياغتها صياغةً تتناسب مع مفاهيمنا وتنطلق من قيمنا ومبادئنا، وإنما تأخذها تلك الوسائل من وكالات الأنباء العالمية والصحف الأجنبية كما تبعث بها تلك الوكالات والصحف، وتذيعها «وسائلنا الإسلامية» بصيغتها التي وردت بها إليها؛ ولو كانت تتنافى

مع عقيدتنا.

ولو أردت أن أحصي ما كان من ذلك القبيل لما كان ذلك في وسعي، ولكني أمثل بمثال واحد فقط، وهو تسمية المجاهدين الأفغان بـ«المتمردين» أو «الثوار» فقد ظلت عدد من وسائل إعلامنا المحسوبة علينا تردد تلك التسمية السمجة بغباء بارد ردحًا طويلاً من الزمن.

(٤) ومن مظاهر الهزيمة الكبرى الانشطار الإعلامي المماثل لذلك الانشطار الذي لاحظناه في المجال التربوي فيما سبق، أعني انشطار الإعلام في البلاد الإسلامية إلى «إسلامي» و«غير إسلامي»، ومن ذلك القبيل تخصيص إدارات للبرامج الدينية في الإذاعات المسموعة والمرئية وصفحات للدين في الصحف والمجلات تختص بنشر المواعظ وخطب الجمعة والفتاوى وما أشبه ذلك، فذلك الانشطار والتقسيم شيء لا ينبغي أن يكون في بلاد تنتسب إلى الإسلام بحال، بل يجب أن تصطبغ كل أنشطتها بالصبغة الإسلامية، ويجب أن تستظل كل نواحي حياتها بمظلة دينها الذي يعتبر عقيدةً وشريعةً ومنهج حياة.

(٥) ومن أشد تلك المظاهر الانهزامية في مجال الإعلام خطراً تقديم الإعلام بكل قنواته للساقطين والساقطات من المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات للمجتمع على أنهم النُّخبة والصَّفوة، وإطلاق الألقاب الضخمة عليهم مثل «النجوم» و«الأبطال»، وإضفاء مزيد من الهالة والتفخيم عليهم وتسليط الضوء على حياتهم الخاصة والعامة، ليكونوا مثلاً أعلى للشباب من الجنسين، ولإبرازهم كنماذج تحظى بالاهتمام والرعاية، فيحرص المخدوعون من أولئك الشباب والشابات على تقليد أولئك الرقعاء، وتتبع أخبارهم وملاحقة أنشطتهم الهدَّامة، والتلقِّي عنهم، والتَّشبُّه بهم.

(٦) ومن المظاهر الشنيعة للروح الانهزامية مما يمكن اعتباره إفرازًا طبيعيًا لعملية الهدم التي يمارسها الإعلام في البلاد الإسلامية وأثرًا من آثارها ـ ما ذكرته الصحف من انتحار خمسة عشر شابًا وشابّة بوسائل مختلفة حزنًا على وفاة «المغني الرقيع عبد الحليم حافظ»[١].

وكذلك سير ربع مليون إنسان في عاصمة من أكبر عواصم العالم الإسلامي في جنازة ممثلة يهودية[٢]! عجبي!!

(٧) سقوط قيمة الكلمة وامتهان شرفها وقدسيتها وبيعها لمن يدفع أكثر، واستعمالها في المديح الآنّي مدفوع الثمن مقدَّمًا في كثير من الصحف والمجلات التي تزخر بها بلاد المسلمين، أي أن الاتجاهات المختلفة تتحكم في ذلك النوع من الصحافة، فصديق اليوم قد يصبح عدوَّ الغد مثلما أصبح عدو الأمس صديق اليوم. إنها بعبارة أخرى صحافة بلا مبادئ، وإعلام لا يقوم على أسس أخلاقية.

(٨) ومما يمكن أن يُلحقَ بالمظهر الانهزامي الذي قدَّمناه والمتمثل في تقديس وسائل الإعلام لمن يسمونهم بـ «الفنانين»، ونسميهم كما هم في الحقيقة بـ «الرقعاء من الساقطين والساقطات»؛ مظهر آخر يتمثل في تفضيل تلك الفئة على غيرها من فئات المجتمع الأخرى فيما يتعلق بالمكافآت والأمور المادية، وتمييزهم على العلماء والأطباء والمبرزين في المجالات المختلفة، من حيث ما يصرف لهم لقاء مشاركاتهم، فما يعطاه الواحد من أولئك «الفنانين» يعادل أضعاف ما يُعطاه الواحد من غيرهم من الفئات الأخرى.

---

(١) انظر: «مرحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر» ليوسف العظم ص٧٥.
(٢) المرجع السابق ص٧٧.

(٩) طول فترات البث للإذعات المسموعة والمرئية دون وعي بمخاطر ذلك واستهلاكه لأوقات الناس، وأموال الأمة، وطاقات شبابها ورجالها ونسائها على السواء. في الوقت الذي نجد فيه كثيراً من تلك الدول «التقدمية» التي يقلدها «المهزومون» من المسلمين لا تتجاوز فيها ساعات البث التلفازي الساعة العاشرة ليلاً على أكثر تقدير، ويقابل طول ساعات البث في الإذاعة والتلفاز كثرة صفحات الصحف والمجلات، وزيادتها عن الحاجة وعن المعدل المعقول؛ مما يستدعي ملء تلك الساعات الطوال في الإذاعة والتلفاز وتلك الصفحات الكثيرة في الصحف والمجلات «بأي شيء» لسد الفراغ فيها وتعبئة «الوقت الزائد» و«المساحة الزائدة»، وسيكون «الكم» هنا على حساب «الكيف»، وسيكون الشكل على حساب المضمون.

(١٠) تحوُّل معظم أجهزة التلفزة في الديار الإسلامية إلى صالات عرض لأكبر عدد من برامج الهدم ومسلسلات الإثارة وتقويض أسس الأخلاق والفضيلة، بما تطفح به من عُري وشبه عُري وخلوات محرمة ولقاءات عابرة وغير عابرة وهمسات ولمسات وأحاديث شجية وقصص حب وغرام لا تنتهي وتأوهات وغمزات ولمزات . . . إلخ؛ في تحسين لذلك كله في أعين الشباب من الجنسين، وفي دعوة «صريحة» أحياناً إلى ذلك الأتون الملتهب.

(١١) ويُلحق بذلك مظهر للانهزام لا يقل عنه بشاعةً، هو إبراز صور النساء الكاسيات العاريات على صفحات الصحف والمجلات حول شواطئ البحار والأنهار أو في النوادي الليلية والحفلات الراقصة المختلطة، ومثل ذلك ما تقوم به بعض الصحف والمجلات المتخصصة في الدعوة إلى الرذيلة والقضاء علي الفضيلة ومحاربتها؛ من تتبع أخبار الجرائم وروايتها بتفاصيلها

المثيرة الدقيقة، ونقل أخبار «غرف النوم» إن صح التعبير، ونشر القصص الجنسية الفاضحة، وإغراء القراء «المساكين» واستشارتهم عن طريق تلك القصص بهدف الترويج للرذائل، وإشاعة الفاحشة بين الناس، وتهوين الجريمة الخلقية الفظيعة، وتعويد المجتمع عليها عن طريق التكرار.

(١٢) مساهمة الإعلام بنصيب وافر في جريمة الدعوة إلى «تحرير المرأة» كما يزعمون؛ وذلك بعرضه ونشره لأنماط مختلفة من حياة المرأة الغربية، وتلميعها لتبدو في أعين النساء المسلمات براقةً زاهيةً، وتمجيده لتحرر المرأة من قيود دينها وبيئتها وعاداتها وتقاليدها عن طريق أبواب ثابتة وزوايا ومقالات وقصص وبرامج تستهدف جميعها جرَّ المرأة المسلمة إلى تقليد غيرها في هجر بيتها والاختلاط بالرجال، وتزيين ذلك لها وحثها عليه باسم «التطور» و«التمدين» و«الرقي» و«المساواة».

وخطير هو ذلك الدور الذي يقوم به الإعلام عمومًا والصحافة بشكل خاص في سبيل دعوة المرأة إلى «التفرنج» عن طريق نشر صور للجمعيات النسائية وأنواع الأزياء وموضاتها المتلاحقة، وما ترويه من أخبار النشاط النسائي التي قل أن تخلو منها صحيفة أو مجلة.

ولقد كانت البذرة لذلك قديمة قبل أكثر من نصف قرن؛ حيث كانت الصحافة في «مصر» في ذلك العهد تتابع في لهفة وإعجاب تطورات الانقلاب «الكمالي» في «تركيا»، وآثاره في المجتمع النسوي خاصة، وترصد مراحله وتُقَدِّمها للمرأة المسلمة كنموذج يحتذى؛ فقد نشرت صحيفة السياسة الأسبوعية القاهرية مقالاً عن «فتاة تركيا ١٩٢٦م»، تصف فيه سفر باخرة اتخذتها وزارة التجارة التركية معرضًا عامًا في رحلة على نفقة الحكومة، تنتقل

فيها بين موانئ أوروبا الشهيرة؛ فتقول: «إن هذه الباخرة كانت تقل خمساً وعشرين فتاةً من فتيات تركيا الجديدة، كلهن جميلات مقصوصات الشعور، لا يكاد يميزهن الرائي من فتيات لندن وباريس»، ويقول مراسل الصحيفة: «إن أكثر الفتيات يتكلمن الإنجليزية بإتقان يدعو إلى الدهشة، وإن بعضهن قد تلقى العلم في الكلية الأمريكية بالقسطنطينية».

ويروي بعض ما صرحت به الفتيات من مثل قول إحداهن في بعض الموانئ الإنجليزية: «إن المرأة التركية اليوم حرة، فلن تسير في الطرقات في ظلام، وإننا نعيش اليوم مثل نسائكم الإنجليزيات؛ نلبس أحدث الأزياء الأوروبية والأمريكية، ونرقص وندخِّن ونسافر وننتقل بغير أزواجنا»، ومن مثل قول أخرى بأن: «معيشتهن على ظهر الباخرة معيشة سرور وصفاء لا يوصف؛ فكلهن يرقص، وبعد العشاء يبدأ الرقص من «تانجو» و«فوكس تروت»، وقد تعلمت ذلك في المدرسة»، ويعلق مراسل الصحيفة على ذلك بقوله: «إن هذا من أظهر الآثار التي تدل على تقدم المرأة التركية، ومجاراتها لأختها الغربية في ميدان العمل و«الجهاد» الفكري والاقتصادي، ولا يسع كل محب لتركيا إلا أن يغبطها على هذه الخطوات»[1].

فإذا كان دور الصحافة منذ أكثر من نصف قرن في جريمة التحرير المزعوم هوما رأيت، ومساهمتها في إخراج المرأة المسلمة من دائرة إسلامها على هذا النحو السافر؛ فماذا يمكن أن يقال عن صحافة اليوم، وعن إعلام اليوم في كل ديار الإسلام؟!

لقد اتسعت الهوة، وتضاعفت الأنشطة، ومضى الإعلام بعيداً بعيداً في

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر لمحمد محمد حسين ج٢ ص٢٥٧.

هذا الشوط إلى مداه الأخير، ومضت الصحافة الإسلامية أو «المتنسبة إلى الإسلام» -على الأصح- في الترويج لهذه الفكرة، ومحاولة إقناع المرأة المسلمة بها إلى آخر الدرب، وحققت نجاحًا تُحسَدُ عليه فأصبحت «فاطمة» كالليدي ديانا، «وخديجة» كـ«جولييت» في كل شيء تمامًا، كما عبرت عن ذلك منذ ستين عامًا الفتاة التركية التي «كانت مسلمة»، فانتزعها أعداؤها من إسلامها؛ لتكون كالإنجليزيات، وليس كذلك فحسب بل وتفتخر بذلك أيضًا، وتغبطها صحافة بلادنا الإسلامية في «مصر» عليه، وربما في غير «مصر» أيضًا!!

(١٣) استباحة وسائل الإعلام المرئية والمسموعة للغناء والمعازف والمزامير وشغل أكثر وقتها بها، حتى لكأن كلاً منها أصبح جوقةً من الطبالين والزمارين فلا يكاد يخلو من الغناء والموسيقى برنامج ولا حديث ولا ندوة ولا لقاء ولا شيء مما يُقدَّم في إذاعة أو تلفاز، بل لقد استحدثوا من وسائل حشر الأغاني والموسيقي في كل وقت ضُروبًا من الأفانين؛ من بينها تخصيص برامج كاملة للغناء كذلك البرنامج المسمى في جميع إذاعات الدول المتنسبة إلى الإسلام تقريبًا (ما يطلبه المستمعون)، ذلك البرنامج الذي يعقد الصلات بين الجماهير وبين الساقطين والساقطات من المغنين والمغنيات، ويقويها ويزيدها رسوخًا، حتى يصبحوا من متتبعيهم وعاشقيهم.

(١٤) التوسع في عرض المسلسلات الأجنبية من جهة، وعرضها على علاَّتها من جهة أخرى دون تعديل أو حذف لتُوائم مجتمعنا المسلم، وتُلائم أعرافه، ولا تتعارض مع عقيدته وأخلاقياته ومُثُله. هذا رغم ما تحتوي عليه تلك المسلسلات الأجنبية من ضرر، وما تشتمل عليه من خطر على الشباب والأطفال عقيديًا وأخلاقيًا ونفسيًا، وذلك كأفلام الرعب والعنف ومسلسلات

الجريمة واللصوصية مما يسمونه «الأفلام البوليسية».

(١٥) العناية الفائقة بالفلاسفة غير المسلمين، ورواد المذاهب الهدامة من فكرية وغيرها، وتتبع نشاطاتهم، واستضافتهم، وعقد اللقاءات معهم، والحرص على إظهارهم بمظهر العباقرة والطراز الفريد من البشر، ومحاولة تسريب آرائهم ونظرياتهم ومعتقداتهم إلى الجيل المسلم وإقناعه بصحتها، والأمثلة على ذلك كثيرة لكننا نكتفي بمثال واحد، هو استضافة جريدة الأهرام وأسرة تحريرها لفيلسوف الوجودية «جان بول سارتر» وعشيقته التي تعيش معه في الحرام «سيمون دي بوفوار»، وكان ذلك عام ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م[١]، ودعوة الناس رجالاً ونساءً لذلك اللقاء ليروا هذه القدوة القبيحة ويسمعوا أقوال أولئك الوجوديين المتهتكين وآراءهم وأفكارهم.

(١٦) إتاحة الفرصة للهدامين ليعتلوا منابر الإعلام في البلاد الإسلامية وليتولوا من خلالها توجيه الشباب وطرح آرائهم وأفكارهم ونظرياتهم عليهم ليفسدوهم بها، وكمثال على ذلك - والأمثلة أكثر من أن تحصى - نشير إلى برنامج «الشباب يريد أن يعرف» الذي كانت تقدمه الإذاعة المصرية حينًا من الدهر؛ فقد قال فكري أباظة من خلال هذا البرنامج يومًا: «إن أعظم رجل في التاريخ الحديث هو «مصطفى كمال» في تركيا»[٢]. ويقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله بعد أن أورد ذلك - في كتابه كفاح دين - معلقًا على هذا التعظيم «الأباظي» «لأتاتورك»: «ولا أدري لماذا يحترم رجلاً أبعد الإسلام عن الدولة، ورسم سياسةً جعل بها أمته ذيلاً للغرب وصديقًا لإسرائيل، ومتسولاً

---

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي للدكتور علي جريشة وزميله ص٧٢.

(٢) كفاح دين للغزالي ص٢٠١.

يمد يده طلبًا للعون، وظهيراً ضد قضايا التحرر والشرف في الشرق الأوسط؟ ما الذي يجب أن يعيه الشباب من أستاذهم «فكري أباظة» في هذا المجال، ولحساب من يقال هذا الكلام؟».

وممن تصدروا أعمدة الصحف والمجلات من الانهزاميين فاستغلوها للدعوة إلى كل غريب من الأفكار، شاذ من الآراء، خطير من المبادئ، باطل من المعتقدات: لويس عوض، وعبد الرحمن الشرقاوي، وفكري أباظة، وجرجي زيدان، ومحمد التابعي، ويوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس، وأنيس منصور، ويوسف إدريس، وأمينة السعيد، وموسى صبري، ويوسف الخال. وكثيرون غيرهم من النصارى واليهود والمنتسبين إلى الإسلام من «المتمسلمين»، فكل هؤلاء انهزاميون إن كانوا من «المتمسلمين»، وأعداء حاقدون إن كانوا من اليهود والنصارى، وأكثرهم هو الذي أتاح الفرصة لنفسه، أعني أن كثيراً من الصحف والمجلات في البلاد الإسلامية تحت أيديهم، وهم الذين أسسوها وقاموا عليها، كإنشاء جرجي زيدان «لدار الهلال» وما تحتها من صحف ومجلات ومنشورات، وإنشاء بشارة تقلا وآخرين لصحيفة (الأهرام ١٨٧٦) وإنشاء فاطمة اليوسف (والدة إحسان عبد القدوس) لمجلة «روز اليوسف» (١٩٢٦م)، وإنشاء التابعي لمجلة آخر ساعة (١٩٣٤م)، وإنشائه مع مصطفى أمين وكامل الشناوي وآخرين غيرهم لجريدة أخبار اليوم (١٩٤٤م) . . . وهلم جراً.

(١٧) ترويج الصحف في كثير من ديار الإسلام للمبادئ الدخيلة والعادات الضارة والفلسفات الهدامة كنظرية «اليوجا» التي تقوم على إنهاك الجسد والقسوة عليه في سبيل سمو الروح على حد زعمهم، وكبعض الظواهر التقليدية القائمة على التقليد والمحاكاة لبعض الساقطين من أهل

الشرق والغرب، كصرعة «جون ترافولتا» و«مايكل جاكسون» برقصاتهما المحمومة ومجونهما الشنيع، وصرعة السوالف الطويلة وإطالة شعر الرأس وارتداء القمصان الملونة أو ذات الصور والرسومات . . . إلخ.

وما أوجز وأصدق ما قاله الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «حصوننا مهددة من داخلها» عن الإذاعة - وهو ينطبق على وسائل الإعلام الأخرى كذلك - نثبته هنا ليكون ختام مسك لحديثنا عن مظاهر الهزيمة في مجال الفكر الإعلامي - قال رحمه الله: «خذ لذلك مثلاً من الإذاعة، فالسياسة التي تجري عليها هي إشباع الشهوات لا الإرشاد، وهي في كثير مما تهزّ به أجواء الأرض من كلمات أو أصوات تفسد ولا تصلح، وتغوي ولا تهدي، وتحتاج للمرشد مع أن مهمتها هي الإرشاد»[1].

* * *

(١) ص٦١ ط. ٤ المكتب الإسلامي.

المطلب الثاني : مظاهرها في مجال النظم

أولاً : النظام الاقتصادي :

يهتم الإسلام بجميع أوجه النشاط الإنساني ومن تلك الأوجه النشاط الاقتصادي الذي استطاع الإسلام أن يرقى به إلى أعلى درجات الكمال تأسيساً وتنظيماً وهدفاً، وأن يوجد من خلاله مجتمعاً متوازناً طيباً مستقراً لا مكان فيه لاستغلال ولا جشع ولا طمع، وإنما يحل فيه الإيثار محل الأثرة والتكافل محل الفردية والأنانية. مجتمع تسوده العدالة الاجتماعية، ويتمتع كل فرد فيه بحقوقه الخاصة في غير ما تعارض أو تناقض مع حقوق المجتمع ومتطلبات التكامل.

«إن الجانب الاقتصادي في الإسلام جزء من المفهوم العام للإسلام عن الحياة والكون والأشياء، وتفسير لجانب واحد ضمن جوانب متعددة، فالإسلام مثلاً يرى أن الملكية استخلاف تتبعه مسئولية وليس سلطاناً مطلقاً، والربح في الإسلام له مدلوله الواسع الذي يختلف عن المدلول المادي الخالص، فهو قد يشمل الجانب الذي يعتبره الاقتصاد في مذاهب أخرى خسارة»[(١)].

ويقوم النظام الاقتصادي في الإسلام على «قواعد أهمها اعتبار المال الصالح قوام الحياة، ووجوب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره، وإيجاب العمل والكسب على كل قادر، والكشف عن منابع الثروات الطبيعية ووجوب الاستفادة من كل ما في الوجود من قوى ومواد، وتحريم موارد الكسب الخبيث، وتقريب الشقة بين مختلف الطبقات تقريباً يقضي على الثراء

---

(١) انظر: «قضايا الفكر الإسلامي المعاصر» نشر الندوة العالمية للشباب الإسلامي ص٢٧٠.

الفاحش والفقر المدقع، والضمان الاجتماعي لكل مواطن، وتأمين حياته، والعمل على راحته وإسعاده، والحث على الإنفاق في وجوه الخير، وافتراض التكافل بين المسلمين، ووجوب التعاون على البر والتقوى، وتقرير حرمة المال واحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة، وتنظيم المعاملات المالية بتشريع عادل رحيم، والتدقيق في شئون النقد، وتقرير مسئولية الدولة في حماية هذا النظام»[١] .

أما «الخصائص الرئيسية للفكر الإسلامي الاقتصادي، والتي يمكن أن تستخدم كسلاح ضد التحديات الفكرية الأيديولوجية؛ فهي أن النموذج الإسلامي يتصف بالنظرة الكلية وبالتوازن وبتحقيق مصلحة المجتمع ومصلحة الفرد معًا، مع عدم وجود حلقة محكمة للفقر وسيولة نقدية مع سرعة تداول لها عالية»[٢] .

«إن مقومات النظرية الاقتصادية في الإسلام تتمثل في أمرين هما: الواقعية والأخلاقية، فهما الخطان المتلازمان اللذان يصحبان الفكر الاقتصادي الإسلامي ويغلبان عليه جملة وتفصيلاً، إن الواقعية والأخلاقية يتعانقان في التوجيهات الاقتصادية في الإسلام تحقيقًا للغايات التي يرمي إليها، وسلوكًا إلى الطريق التي ينتهجها .

فأما الواقعية؛ فلأن الاقتصاد الإسلامي يستشرف في قوانينه ونظمه غايات وأهدافًا تتسق مع واقع الإنسان اتساقًا كاملاً بلا شذوذ ولا انحراف، فهي تطابق طبيعته، وتوافق نوازعه وخصائصه العامة، وما أخطأ الاقتصاد

(١) مجموعة رسائل الإمام حسن البنا ص ٣٤٠ .
(٢) قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ص ١٤٤ .

الإسلامي الحساب أبدًا في تشريعه بصورة كلفت الإنسان عُسرًا، وما طار به يومًا في طبقات الخيال بمستوى يفوق قدراته وإمكاناته، وإنما رسم خطه الاقتصادي وسيرته على أساس من الواقعية والإنسانية، فهو براء من خيال الاقتصاد الشيوعي غير الواقعي الذي يتخيل أن الإنسان سوف تأتي عليه فترة تذبل فيها نوازعه الهابطة حين يجد كل حاجاته في متناول يده في مخزن عام يمد يده فيه إلى ما يشاء، ويدع ما يشاء في طوباوية مغرقة في تفاؤل ساذج يتصور الإنسان مبرأ خاليًا من هواجس الأنانية، متّسمًا بالأمانة المطلقة دون حاجة إلى أداة للتوزيع، أو سلطة من حكومة.

وهنا تبرز واقعية الإسلام سواء في أهدافه أو الطرق التي يسلكها إلى هذه الأهداف، فهو إذ يستشرف الغايات الواقعية فإنه يسلك إليها دروبًا واقعية ووسائل واقعية تضمن ضمانًا أكيدًا تحقيق الأهداف، فبجانب التوجيه والإرشاد والوعد والوعيد في العالم الآخر فإنه يرفع عصا السلطان وهراوة القانون لتردع ولتعاقب معًا؛ لأنه خير خبير بخبايا النفوس، إذ إن الصدفة والاتكالية أمران غير واردين في قاموسه الخالد. فالتوجيه والنصح واستجاشة العاطفة تسير جنبًا إلى جنب مع الضمان التشريعي؛ مما يجعل النتائج غايةً في الضمان وغايةً في التحقيق.

وأما الأخلاقية فهي تعني أن الإسلام لا يصل إلى أهدافه من خلال ظروف مادية بحتة، أو وسائل مقطوعة الصلة بالإنسان من حيث كونه كائنًا بشريًا، كما تحاول الماركسية حين تضع وسائل الإنتاج في قبضتها لتصل بها وعن طريقها إلى غاياتها. إن الإسلام يقيم غاياته باعتبارها تعبيرًا عن قيم ضرورية التحقيق، ولكن من وجهة نظر خلقية فهو مثلاً حينما يضمن للعامل

حياةً طيبةً كريمة، لا يزن هذا الضمان الاجتماعي في ضوء ظروف الإنتاج المادية، إنما يعتبره نموذجًا لقيمة عملية يتحتم إخراجها إلى حيز الوجود»[١].

«ونعني بالأخلاقية كوسيلة أن الإسلام يعطي الجانب النفسي قَدْرَهُ من الاهتمام عند سلوك الطريق التي ينهجها بلوغًا لأهدافه ووصولاً لغاياته، فهو حين يعطي الجانب الموضوعي اهتمامه اللائق به كأن يأخذ من الغنيِّ مالاً لإشباع الفقير، وحينئذ يكون قد انتهى من الغاية الموضوعية، وحقق الغاية المرجوة، فإنه لا ينسى أن يصبغ الطريقة التي يتبناها بصبغة الأخلاق، وأن يؤكد الحافز الأخلاقي والجانب الخيِّر في نفس الغنيّ، وآنئذ تتحول العملية المادية البحتة في مذاهب غير الإسلام إلى عبادات في الإسلام، وإلى فرائض يفترضها الشرع الشريف يتقرب بها العبد إلى ربه في تواضع كامل علَّها تُقبل كعبادة مقصودة لذاتها»[٢].

«وهنا نرى روعة النظام الاقتصادي الإسلامي الذي لا تخدعه قشور الأمور ولا يكتفي بالتنظيم السطحي، بل ينفذ ويتغلغل في اللباب والجوهر ـ أعني أعماق الإنسان وروحه وفكره؛ ليقوم بمواءمة رائعة بين داخل الإنسان وخارجه، بين مادته وروحه، بين فكره وحاجاته في غير تنافر أو اعتراك بين العامل النفسي والعامل المادي، وبين العامل الفردي والعامل الجماعي».

ولكن ومع ما يتميز به النظام الاقتصادي الإسلامي مما أشرنا إلى طرف منه نقول: هل استمسك المسلمون به وبنوا عليه حياتهم، وأخذوا به تنظيرًا وتطبيقًا؟ أم أنهم أداروا له أظهرهم كما أداروها لسائر أنظمة الإسلام الأخرى كنظامه السياسي ونظامه الاجتماعي وغيرهما؟

---

(١) المرجع السابق ص٢٦٧ ـ ٢٦٨.
(٢) المرجع السابق ص٢٦٨ ـ ٢٦٩.

لاشك أن الجواب الذي لا جواب غيره أنهم لم يطبقوا نظامهم الاقتصادي البديع الشامل رغم مميزاته، بل انساقوا مع الركب الغالب يولُّون وجوههم شطره ما بين مقلِّد لشرق ومقلِّد لغرب؛ فعل المهزومين الخانعين، فبدل أن يقدِّموا نظامهم المتكامل هذا إلى العالم لينقذوه به من مشكلات اقتصادية لا حصر لها، ومن لعنة الربا وسَوْءَة الاحتكار وسوء الجشع والطمع وهاوية استغلال الإنسان لأخيه الإنسان - ذهبوا هم في تقليد ذلك العالم كلَّ مذهب، فغاصوا في مستنقع الربا الآسن، وسقطوا في حمأة المشكلات الاقتصادية التي لا حصر لها، والتي لم تسلم منها دولة ولا مجتمع ولا فرد ولا جماعة.

ومظاهر الهزيمة النفسية لدى المسلمين في مجال النظام الاقتصادي كثيرة كمظاهرها في المجالات الأخرى التي بيَّنَّا بعضاً منها ولم نبيِّن الكثير.

ولكننا نكتفي بالإشارة إلى أهمها فيما نرى، فمن تلك المظاهر مثلاً:

(١) التخلف الاقتصادي الظاهر في بلاد المسلمين، وعدم الاستخدام الكافي للمصادر المادية والبشرية مما ينتج عنه الفقر والجمود، ويختلف ذلك من بلد إلى آخر، ولكن الصورة واحدة حتى في البلاد التي تزيد المصادر الطبيعية من ثرواتها ومن دخل أفرادها، فإن الحالة الاقتصادية تبقى متخلفة بصفة عامة، وما زالت الفجوة بينها وبين الاقتصادين الرأسمالي والشيوعي واسعة، بل ما زالت الدول الإسلامية معتمدة على غيرها.

(٢) افتقاد التوازن - بشكل خطير - في الهياكل الاقتصادية في الدول المسلمة.

(٣) وجود تناقض بين القيم الإسلامية الاقتصادية والاجتماعية، وبين الأوضاع الاقتصادية الواقعية.

(٤) الاستجابة السريعة لرغبات مديري شئون الاقتصاد الدولي، ومدبِّري أمره في انتهاج ذات النهج الذي تسير عليه العملية الاقتصادية الدولية، والدخول في متاهات الاقتصاد الربوي العالمي، رغم تعارض النظام الربوي مع البنية الاقتصادية الإسلامية، وليس تعارضًا فقط، ولكنه استحالة التقاء على الأصح نظرًا لتحريم الربا - بكل أصنافه وأشكاله وألوانه - في الإسلام تحريمًا مغلظًا شديدًا قوامه قول الله جل شأنه متوعدًا مهددًا من يتعامل بالربا بحرب منه سبحانه ومن رسوله ﷺ: ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٩].

فهل يبقى ذرة تردد عند أي مسلم وهو يسمع هذا النص القرآني الواضح الصريح في وجوب التخلص الكامل من كل تعامل ربوي، ومن كل بنك ربوي، ومن كل قرض ربوي سواء على مستوى الفرد، أو المجتمع، أو الدولة الإسلامية؟

إن الجواب المنطقي والطبيعي على هذا السؤال أنه لا يبقى لدى المسلم ذرة شك في ذلك، ومن هنا يرد سؤالنا الآخر: ترى ألا يكون الغرق الكامل

للعالم الإسلامي أفراداً ومجتمعات ودولاً في مستنقع الربا الآسن مظهراً بشعًا ومخزيًا من مظاهر الهزيمة النفسية القاتلة في مجال النظام الاقتصادي؟ والجواب الذي لا جواب غيره: بلى إنه لكذلك.

(٥) الوقوع في فخ «الاستعمار الاقتصادي» - إن صح التعبير - بتمكين الشركات العالمية الكبرى وأكثرها شركات يهودية، من استغلال ثروات البلاد الإسلامية تحت ستار العمل الدولي التنموي المشترك، بل تحت أغطية كثيفة من التضليل والتزوير والتزييف.

(٦) نتج عن ذلك وقوع المزيد من الأزمات الاقتصادية في البلاد الإسلامية، ورضوخ الكثير من دول العالم الإسلامي وشعوبه للاحتكارات العالمية والمقايضات اليهودية والديون الربوية التي طوّقت أغلالها رقابَ تلك الدول والشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها.

(٧) وكنتيجة للتبعية الذليلة لركب الاقتصاد العالمي، واستبعاد النهج الاقتصادي الإسلامي - يشيع الغلاء والفساد الإداري والانحرافات المالية في كثير من أصقاع العالم الإسلامي.

(٨) استمرار تخلف الأمة في الجانب الاقتصادي وتأخرها عن الأمم الأخرى التي طبق كل منها نظامه الاقتصادي الذي يقتنع به، ويدافع عنه، ويدعو إليه، ويحاول فرضه على غيره، بل قد فرضه فعلاً. فالعالم الآن يسوده نظامان اقتصاديان لا ثالث لهما: النظام الرأسمالي الغربي، والنظام الماركسي الشيوعي الشرقي.

(٩) ابتعاد البلدان الإسلامية عن مبدأ شرعية القوانين والنظم نتيجة

تقليدها للنظم المستوردة المبنية على مبدأ مسيحي أوروبي، أو يهودي تلمودي كما هو الحال بالنسبة لنظام الاقتصاد العالمي، ونظام النقد الدولي الذي ابتعدت البلاد الإسلامية بالسير في ركابه عن نظام شريعتها الإسلامية في مجال الاقتصاد والمال.

(١٠) عدم الاشتغال الجاد على مستوى الحكومات في البلاد الإسلامية بناء وتطوير النظرية الاقتصادية الإسلامية للتعرف على أهدافها وطرق عملها في مجتمع مسلم، وتطوير سياسة الإنتاج والتصنيع والتوزيع والاستهلاك والتجارة الخارجية، وعدم تقييم الوضع الاقتصادي الحالي في العالم الإسلامي، والبحث عن أسباب تخلفه، ومعرفة مصادر قوته وضعفه.

(١١) التكدس المريع لأموال المسلمين في البنوك والمصارف الأجنبية نتيجة تخلف العالم الإسلامي في ميدان الاقتصاد، وتمثيله دور التابع الذليل لأساطين الاقتصاد العالمي والممسكين بمقوده وزمامه، وعجزه عن تصريف فائض أمواله بطريقة علمية متخصصة مدروسة، بالإضافة إلى عجزه عن تخليص نفسه مما كُبِّل به من أغلال النظام الاقتصادي العالمي وقيوده.

(١٢) تعثر تجربة المصارف والبنوك الإسلامية التي أخذت في الظهور مؤخراً، وبقاء تلك التجربة حتى الآن في أضيق حدودها مما يوحي بوجود عديد من المشكلات المعقدة والعقبات الكبرى تعترض طريقها وتقف أمام انطلاقها.

(١٣) خلوُ الساحة الإسلامية حتى الآن من منظمة فاعلة للتقدم والتعاون الاقتصادي والاجتماعي، تقوم بجمع المعلومات والبيانات عن البلاد الإسلامية ومشكلاتها وأساليب التعاون بينها، وتأخذ بيد العالم الإسلامي

الحائر نحو تطبيق نظامه الاقتصادي المتميز مستغلاً موقعه وثرواته المتعددة وطاقاته البشرية الكبيرة.

(١٤) خلوُّ الساحة الإسلامية كذلك من مجلة اقتصادية متخصصة ذات مستوى عال ومتميز تناقش أهم مشكلات العالم الإسلامي الاقتصادية، وتقترح لها الحلول المناسبة، وتقدم خبرات الاقتصاديين المسلمين للدول والحكومات والشعوب الإسلامية، وتُسهم في التعريف بالنظام الاقتصادي الإسلامي ومزاياه وقدرته على حل مشكلات العالم الاقتصادية التي يرزح تحتها.

(١٥) ضعف أقسام الاقتصاد في الجامعات التي يوجد بها مثل تلك الأقسام في العالم الإسلامي، وعجزها عن مواكبة مثيلاتها في الجامعات الأجنبية في الشرق والغرب، وافتقار الجامعات في البلدان الإسلامية إلى مراكز بحوث عن اقتصاديات العالم الإسلامي الذي يفتقر أيضًا إلى مراكز بحوث اقتصادية على المستويين الإقليمي والمحلي.

(١٦) التفاوت العظيم والبون الشاسع والفرق الكبير بين الطبقات المختلفة في كافة البلاد الإسلامية، ووقوع المسلمين عمومًا بين ثراء فاحش أو فقر مدقع، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة، إذ إن غالبية من نعتبرهم من تلك الطبقة هم من الفقراء المعوزين الذين استطاعوا بجهد جهيد، وضغط نفسي هائل أن يواروا فقرهم عن الأعين وإن لم يستطيعوا مواراته عن الوجود.

ثانيًا: النظام السياسي:

يخطئ خطأ فاحشًا عظيمًا، بل يضل ضلالاً مبينًا، الذين يظنون أن لا علاقة للإسلام بالسياسة، ويتوهمون انفصال الدين عن الدولة في شريعة الإسلام، تلك المقولة البلهاء التي رددها كثيرون عن جهل بطبيعة الإسلام

الذي من أبرز خصائصه الشمولية والاستغراق، ومن أبرز صفاته أنه عقيدة وشريعة، وعبادة ومعاملة، ودين ودولة، لا ينفك كل وصف من الوصفين عن الآخر بل هما متلازمان ما تعاقب الليل والنهار.

إن شمولية الإسلام لكل مناحي الحياة جزء من عقيدته التي جاء بها، وعمل على تكريسها وبناء بنيانه كله على قاعدتها؛ فالحياة كلها بجميع مناشطها خاضعة في عقيدة المسلم وتصوره لله رب العالمين، لا تند منها شاردة ولا واردة عن علمه سبحانه وإحاطته وحكمه وقدرته: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].

فالكون كله إذًا خاضع في نظر المسلم لله جل جلاله، وهو بكل ذراته مملوك لله وحده لا شريك له؛ مما يستوجب معه عز وجل أن يوحّد، ويفرد بالعبادة بكل أنواعها؛ فلا يُخضَع لغير سلطانه، ولا يُحكَم بغير قرآنه، ولا يتوجه بشيء من العبادة مهما قل لغير وجهه تبارك وتعالى.

وهكذا نجد الاحتكام إلى شرع الله والخضوع له وحده ونبذ كل قانون يخالف شرعه أو يتعارض مع دينه - أصل من أصول عقيدة الإسلام، ومرتكز أساس من مرتكزاتها؛ مما يجعل القائل من المسلمين بمثل هذه المقولة - أعني أن «لا علاقة للإسلام بالسياسة» أو بعبارة أخرى «فصل الدين عن الدولة» - غير مسلم في حقيقة الأمر إن كان يدرك معنى ما يقول، أو جاهلاً على أقل تقدير

إن كان لا يدرك معنى ما يقول. والأول يُستتاب فإن تاب وإلا قتل كافراً، والثاني يُرشد ويُعلَّم؛ ليجدد إيمانه، ويفقه توحيده، ويفهم ضرورة الخضوع الكلي لله رب العالمين؛ حكمًا وسياسة وأخلاقًا واقتصاداً ومعاملة وعبادة وعقيدة.. إلخ.

ثم إن هذا الفصل بين الدين والدولة الذي حدث في أوروبا النصرانية عقب ثورتها على كنيستها نتيجة استبداد الكنيسة، وتسلطها على رقاب المجتمع الأوروبي بكل فئاته، وبمختلف درجاته ومستوياته بدءاً بالعلماء والمفكرين، وانتهاءً بالعامة - لا يجوز أن يطبق على الإسلام الذي يؤمن بالعلم، ويلتقي معه، ويدعو إليه، ويحث عليه؛ فليس من داع في الإسلام لذلك الفصل، وليس من مبرر لذلك التفريق، غير أن كثيراً ممن يرددون تلك المقولة، ويذهبون إلى ذلك الشطط؛ يقيسون الإسلام على النصرانية، ويشبهون المسجد بالكنيسة، فيظلمون الإسلام بذلك القياس، ويظلمون المسجد بذلك التشبيه أشد الظلم وأفظعه، مع أن الفارق بين الدينين جد كبير، والبون بين المعبدين جد شاسع.

لقد ردد كثير من المستشرقين تلك المقولة، وعملوا على إشاعة ذلك الرأي، وتبعهم في ترديدها وفي العمل على إشاعتها بعض المسلمين، وكان في مقدمة أولئك الشيخ علي عبد الرازق، وخالد محمد خالد، الأول في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، والثاني في كتابه «من هنا نبدأ»، وقد رجع أخيراً عن ذلك فيما نعلم[1] عفا الله عنا وعنه.

---

(١) كان هذا الرجوع في عنفوان الصحوة الإسلامية الغاضبة في أواخر عقد السبعينات وأوائل عقد الثمانينات من التقويم الميلادي ثم نكص على عقبيه وعاد إلى هجومه على التيار الإسلامي الذي اطمأن إلى أنه قد قمع؛ ولم يزل عدواً للتيار الإسلامي إلى أن مات. الناشر

وهؤلاء إنما وقعوا في هذا الخطأ و«الخطل» نتيجة خلطهم بين حقائق الدين وتجربة تطبيق هذه الحقائق؛ إذ لا يستطيع أي منصف أن يتجاهل تلك الأضرار التي لحقت بالإسلام والمسلمين نتيجة للأخطاء التي ارتكبتها السلطة الحاكمة في أمة الإسلام منذ نهاية الخلافة الراشدة إلى أن ألغيت الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤م[١].

«والخلط بين واقع المسلمين هذا وبين حقائق الدين نفسها هو الذي جعل أصحاب هذا الاتجاه يقولون بأن الإسلام دين لا دولة، فهم قد حكموا على الدين من خلال تجربة الواقع خاصةً بعد عصر الخلفاء الراشدين، ولم يحكموا على الدين من خلال المبادئ التي قررها، ومن خلال تجربة تطبيقه الحقيقية بكل ما اشتمل عليه من مبادئ في عصر النبوة، وفي عصر الشيخين أبي بكر وعمر»[٢].

وتقرير خطأ تلك المقولة ومجانبة القائلين بها للصواب أمر لا يحتاج إلى كثير عناء؛ إذ «يكفي أي منصف أن يطالع أحكام الدين الإسلامي ليعرف أنه ليس به هذا الانفصال بين الروح والجسد، أو بين الدين والدنيا، هذا الازدواج الذي كان هو أساس الصراع في أوروبا في العصور الوسطى. الإسلام يشتمل على أحكام الأسرة من زواج وطلاق وأصول للمعاشرة، كما يشتمل على أحكام للعقوبات والجرائم، ويشتمل على أحكام البيوع والشهادة والميراث، ويشتمل على أصول للحكم من الشورى والعدالة والمساواة، ويشتمل على مبادئ لتنظيم العلاقات بين جماعة المؤمنين وبين الجماعات الأخرى، أو تنظيم العلاقات الدولية كما نقول الآن. والإسلام يحض أصحابه على القوة وأن يُعِدُّوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل لأعدائهم؛ لكي يرهبوهم

---

(١) انظر: «حتمية الحل الإسلامي - تأملات في النظام السياسي» د. أبو المعاطي أبو الفتوح ص٢٨.
(٢) المرجع السابق ص٣٠.

ويجبروهم على احترامهم، ويحذرهم من الضعف ومن الفرقة حتى لا يطمع فيهم أعداؤهم ﴿ **إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ [الكهف: ٢٠].

وهو بجانب ذلك يحتوي على أصول العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة وتوحيد، بل إن الإيمان دائمًا في الإسلام يقترن بالعمل، وهذا هو معنى العبادة في الإسلام: عقيدة تدفع إلى العمل، وعمل يؤكد العقيدة ويقويها. فإن لم يكن هذا تنظيمًا لدولة ولجماعة مستقلة فما هو تنظيم الدولة إذًا في عرف هؤلاء؟! ما هي الدولة إذًا إذا لم تكن هذه الجماعة المستقلة المتميزة صاحبة هذا القانون العام الذي ينظم أمورها في الداخل، وينظم أمورها في الخارج، ويقوم على رأسها من ينفذ هذا القانون، ويضمن له احترامه وقدسيته؟!»[1].

ومعنى هذا أن الإسلام كما يحتوي على نظام اقتصادي متكامل ونظام اجتماعي فريد، يحتوي كذلك على نظام سياسي متميز يقوم على أساس «أن الحاكمية المطلقة في الكون كله لله وحده لا شريك له؛ فهو وحده جل جلاله خالق الكون وحاكمه الأعلى، والنظام السياسي لابد وأن يكون تابعًا للحاكم الأعلى، ومهمة الخليفة تطبيق قانون الحاكم الأعلى في كل شيء، وإدارة النظام السياسي طبقًا لأحكامه»[2].

وبُنيةُ النظام السياسي في الإسلام ذات أسس ومبادئ راسخة يأتي في مقدمتها أن الله سبحانه هو المطاع، والذي إليه يرجع الأمر كله، وأن المسلم عبد الله أولاً وقبل كل شيء، وحكم الله وطاعته هما محور حياة المسلم الفردية

(١) المرجع السابق ص٢٧ ـ ٢٨.
(٢) انظر: «الحكومة الإسلامية» للمودودي ص٩١.

ومركز نظام المسلمين الجماعي.

والأساس الثاني في بنية النظام طاعة الرسول ﷺ، وهي ليست طاعة مستقلة بذاتها، ولكنها الشكل العملي الوحيد لطاعة الله؛ فهو ﷺ مطاع لأنه مصدر موثوق به، تصل إلينا عن طريقه أحكام الله وأوامره ونواهيه.

والأساس الثالث لبنية ذلك النظام نوع ثالث من الطاعة يأتي بعد هاتين الطاعتين ويندرج تحتهما يجب على المسلمين القيام به وأداؤه، وهو طاعة أولي الأمر من المسلمين أنفسهم، ومفهوم أولي الأمر يتسع ليشمل كل من يتولون مقاليد الأمور في المجتمع، فتجب طاعة كل من كان صاحب أمر بين المسلمين، وكل من لا تستقيم أمور المسلمين وأحوالهم مع مخالفته ومنازعته بشرطين لابد من توافرهما لوجوب طاعته وهما: أن يكون من المسلمين، وأن يكون أمره في حدود طاعة الله ورسوله[١].

والأساس الرابع لتلك البنية «أن حكم الله ونهج رسوله ﷺ لهما وضع السلطة النهائية والقانون الرئيسي في النظام الإسلامي، فكل ما يحدث من نزاع بين المسلمين وأنفسهم، أو بين الحكومة والرعايا، لابد من الرجوع فيه إلى القرآن والسنة للفصل فيه، وعلى الجميع أن يذعنوا لما يصدر عنهما من حكم. وعلى هذا فالإقرار والتسليم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ مرجعًا رئيسيًا وسلطة أساسية في أمور الحياة ومشكلاتها ـ هو الخاصية الضرورية الأولية في النظام الإسلامي التي تميزه عن نظام الحياة الكافر، وأي نظام لا تلقى فيه هذه الخاصية فهو نظام كافر غير إسلامي»[٢].

---

(١) راجع في ذلك «الحكومة الإسلامية» للمودودي ص١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) المرجع السابق ص١١١.

وللحكم في النظام السياسي الإسلامي دعائم تتمثل في مسئولية الحاكم، ووحدة الأمة واحترام إرادتها؛ فالحاكم مسئول بين يدي الله، وأمام الناس، وهو أجير لهم وعامل لديهم. وفي الحديث المشهور: «**كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته**»، والأمة الإسلامية واحدة؛ لأن الأخوة التي جمع الإسلام عليها القلوب أصل من أصول الإيمان، لا يتم إلا بها، ولا يتحقق إلا بوجودها، يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ويقول سبحانه مكرراً هذا المعنى في سورة (المؤمنون): ﴿ **وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، ومن حق الأمة الإسلامية أن تراقب الحاكم أدق مراقبة، وأن تشير عليه بما ترى فيه الخير، وعليه أن يشاورها وأن يحترم إرادتها، وأن يأخذ بالصالح من آرائها، وقد أمر الله الحاكمين بذلك فقال: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾، وأثنى به على المحكومين فقال: ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾[1].

ولا نريد أن نمضي في الحديث بتفصيل عن مزايا النظام السياسي في الإسلام وروعة مبادئه وعظمة أسسه ودعائمه وشمولية مقوماته وتفرد خصائصه وتحقيق السعادة المطلقة بتطبيقه؛ فإن ذلك ليس مما يعنينا في هذا البحث، وله مجال آخر، وما أشرنا إليه من ذلك مختصراً فيما تقدم كاف فيما نرى للتعريف بأبرز مبادئ ذلك النظام وأسسه ومقوماته.

لكن الذي يعنينا هنا هو بيان مظاهر هزيمتنا النفسية نحن المسلمين في هذا الجانب؛ جانب النظام السياسي وحياتنا السياسية، ولاشك بأنه جانب غني بتلك المظاهر مزدحم بها على اعتبار أن ميدان السياسة هو الميدان الذي

---

(١) مجموعة رسائل الإمام حسن البنا ص٣١٨-٣١٩ بتصرف.

تُسُلِّطَ على المسلمين من خلاله في العصر الحاضر، بل قل وفي العصر الحديث كله فأزيح عن الساحة في واقع المسلمين - ضمن ما أزيح من أنظمة إسلامية كثيرة - النظام السياسي الإسلامي القائم على مرتكز أن الحاكمية المطلقة لله رب العالمين، وجرب المسلمون - وما زالوا يجربون - بل يراد لهم أن يجربوا في الحقيقة كل نظام سياسي إلا النظام الإسلامي، ورفعوا - بل أريد لهم أن يرفعوا - كل شعار إلا شعار الإسلام، وما زالوا يتخبطون في متاهات النظم ودياجير الشعارات الجوفاء، وسيظلون في تخبُّطهم حتى يلبسوا ثوب إيمانهم الذي خلعوه، واستبدلوا به ثيابًا كُفْرِيَّةً - ليست لهم - بين طويل الأكمام وقصيرها.

لقد أحكم أعداء الإسلام قبضتهم على المسلمين من خلال هذا النظام - أعني النظام السياسي - إثر تخطيط رهيب طويل الحلقات، ذلك الإحكام الذي من أبرز صوره وفي مقدمتها عزلهم عن نظامهم السياسي الفريد، وغزوهم بأنظمة الغرب والشرق السياسية، وقوانين الشرق والغرب الوضعية ودساتيرهم، وإقناعهم بأن البديل خيرٌ من المستبدَل، وأن الجديد خير من القديم، وأن نظامهم من ذلك القديم الذي أكل عليه الدهر وشرب، فلا يصلح لتطبيق، ولا تقوم به حياة. وهو إقناع لا قيمة له في الواقع؛ إذ إن ركوب المسلمين لقطار نظم الغرب السياسية والاقتصادية وغيرها إنما تم بالإكراه والقوة والحديد والنار فيما اصطُلح على تسميته بـ «الاستعمار» الذي ابتُليت به أكثر أقطار المسلمين، ففرض عليها نُظُمَهُ وأفكاره ولغته، بل وحاول فرض معتقداته أيضًا عن طريق «التنصير» الذي يسمونه اصطلاحًا بـ «التبشير».

أريد أن أقول: إن النظام السياسي هو بمثابة القلب من سائر النظم، فبصلاحه تصلح الحياة كلها، وبفساده تفسد، وذلك عن طريق الحاكم الذي يتم اعتلاؤه سدة الحكم بموجب هذا النظام، وعن طريق القوانين التي يحدد

طبيعتها ونوعها هذا النظام، وعن طريق ما يقرره هذا النظام من طريقة لحكم الأمة وسياسة الشعب؛ فإن كان النهج في كل ذلك إسلاميًا منطلقًا من تعاليم القرآن والسنة صلحت الحياة واستقامت الأمور، وإن كان النهج في ذلك كله مستمداً من شرق أو غرب - كما هو اليوم - فسدت الحياة، واعوجت الأمور - كما هو حالنا اليوم - فليس بعد فسادها فساد وليس بعد اعوجاجها اعوجاج.

وقد قلنا: إن أعداء المسلمين قد أحكموا قبضتهم عليهم من خلال إزاحة نظام الإسلام السياسي المتميز الفريد، وإحلال أنظمتهم السياسية الشوهاء مكانه، لعلمهم بأن النظام السياسي هو الموجه الأول للدول، والمدخل الرئيسي لكل تغيير فيها أو تبديل، والمعْبَرُ الوحيد السريع لإدخال ما يريدون إدخاله وإخراج ما يريدون إخراجه من نظم أخرى وأفكار وآراء ونظريات ومعتقدات. فهم إذا فرضوا النظام السياسي الذي يريدون والذي يخدم مصالحهم ويحقق أغراضهم جاء عن طريقه الحاكم الذي يسعى في رضاهم ويأتمر بأمرهم، ويتلقى عنهم، ويحمي سلطتهم، ويدافع عنهم، ويفرضهم على محكوميه، وجاء عن طريقه القانون الذي يحميهم ويمنحهم الحقوق والامتيازات والتسهيلات، وجاء عن طريقه مجلس الشعب (أو مجلس الأمة أو مجلس النواب - أو ما شئت من تسميات -) الصوري الذي لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم. وهكذا يتحقق لهم عن طريق النظام السياسي والسيطرة عليه ما لا يمكن أن يتحقق لهم من طريق غيره.

لذلك حرصوا وما زالوا يحرصون على عزل النظام السياسي الإسلامي عن واقع الحياة في ديار المسلمين، ويستميتون في سبيل ألا يَحكُمَ هؤلاء المسلمين كتابُ ربهم وسنةُ نبيهم ﷺ لعلمهم أن المسلمين إن حكموهما نسفوا بنيانهم من القواعد، وأخرجوهم من ديارهم، وليس ذلك فحسب، بل انهم

ليعلمون أن المسلمين لو عادوا إلى تحكيم شريعتهم بصدق وعزم وحزم لهدَّدوهم في بلادهم، ولأقضُّوا بإسلامهم مضاجع دياناتهم الباطلة، ودكُّوا صروح حضارتهم المنهارة. إنهم يعلمون ذلك، والشواهد على علمهم ذاك أكثر من أن تحصى؛ فقد ذكر الدكتور أحمد شوكت عن ـ البرمشادور ـ الذي تحدث عن المسلمين فقال: «ومن يدري؟ قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددةً بالمسلمين فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية في الوقت المناسب والزمن الموقوت، لست أدعي النبوءة، ولكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة، لا تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها».

وكتبت مجلة «التاريخ الجاري» الأمريكية بحوثًا بهذا المعنى تمامًا، ومن عناوين هذه البحوث: (محمد يتهيأ للعودة)، (المسلمون رقدوا خمسمائة عام ويتحركون الآن، ويتوثبون إلى السلطان).

ويقول لورانس براون: «كنا نُخَوَّفُ من قبل بالخطر اليهودي، والخطر الأصفر (اليابان وتزعمها على الصين)، وبالخطر البلشفي، إلا أن هذا التخوف لم نجده كما تخيلناه؛ لأننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا أثناء الحرب الثانية. أما الشعوب الصفراء فإن هناك دولاً ديمقراطية كبرى تتكفل بمقاومتها، ولكن الخطر الحقيقي كامن في المسلمين وفي قدرتهم على التوسع والإخضاع، وفي الحيوية المدهشة العنيفة التي يتملكونها، ألا إنهم السد الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي».

ويقول «غوستاف يونج» في أحد كتبه: «إن العالم الإسلامي قد أفلت من قبضة الموت الذي أعده ونسق أكفانه الاستعمار الأوروبي، وإن العالم الإسلامي ليسرع الخطى إلى الشباب ليصفي حسابه مع الاستعمار الأوروبي

الصهيوني، وهو حساب عسير رهيب».

وجاء في كلمة أحد المسئولين في وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٩٥٢م: «ليست الشيوعية خطراً على أوروبا - فيما يبدو لي - فهي حلقة لاحقة لحلقات سابقة، وإذا كان هناك خطر فهو خطر سياسي عسكري فقط، ولكنه على أي حال ليس خطراً حضارياً تتعرض معه مقومات وجودنا الفكري والإنساني للزوال والفناء. إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً عنيفاً هو الخطر الإسلامي، والمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، وهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة إلى «الاستغراب»، وفرصتهم في تحقيق أحلامهم هي اكتساب التقدم الصناعي الذي أحرزه الغرب، فإذا أصبح لهم علمهم، وإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في نطاقه الواسع انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الفتيٍّ، وانتشروا في الأرض يزيلون منها قواعد الروح الغربية، ويقذفون برسالتها إلى متاحف التاريخ»(١).

فهم إذاً ينطلقون في الحرص على السيطرة على المسلمين وعلى نظامهم السياسي بالذات من هذا الذعر الشديد من الإسلام، وتصور خطره عليهم وقوته المتجددة وعنفوانه وشبابه الدائم، وقابليته للانطلاق واستئناف دوره الفاعل المهيمن، هذا مع منطلق آخر قرره القرآن الكريم هو حسدهم للمسلمين وحقدهم عليهم ورغبتهم الأكيدة في ردهم عن دينهم.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل واقع المسلمين اليوم يشهد

---

(١) الخطر اليهودي على العالم الإسلامي - ماجد الكيلاني ص٨٩-٩١.

لهذا التخوف أو عليه؟ لا شك أن الواقع الإسلامي المعاصر يشهد عليه لا له، فالناظر إلى أحوال المسلمين وواقعهم في هذا العصر يستغرب تخوف أولئك الغربيين وضجرهم وتململهم. ولكن حقيقة الأمر أنهم لا يتخوفون من المسلمين وإنما من الإسلام. والإسلام شيء، والمسلمون شيء آخر؛ الإسلام تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والإسلام حق لا باطل فيه، وخير لا شر معه، وقوة لا سبيل معها إلى الضعف.

وهو باعتباره كذلك لا يتغير ولا يتبدل، فحفظه هو هو منذ نزل وحتى تقوم الساعة، وأحقِّيَّتُه كذلك، وخيريَّتُه كذلك، وقوته كذلك. أما المسلمون فشيء آخر بشر يقوون ويضعفون، ويَعِزُّون ويَذِلُّون، ويستولون ويُسْتَوْلَى عليهم ـ كل ذلك بمقدار قربهم من إسلامهم أو بعدهم عنه، وبمقدار تمسكهم به أو تهاونهم في ذلك، وبمقدار إقبالهم عليه أو إعراضهم عنه.

فالغربيون والشرقيون وجميع أعداء الإسلام لا يخافون المسلمين، وإنما يخافون الإسلام، ولا يرهبون سلطان المسلمين في هذا الزمان؛ لأنه ليس لهم سلطان، وإنما يرهبون سلطان الإسلام الذي لم يضعف ولن يضعف حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

لا نريد أن نطيل الحديث في هذا، ولكننا نسأل أيضًا سؤالاً ليكون مدخلنا إلى الحديث عن مظاهر الهزيمة النفسية للمسلمين في مجال النظام السياسي ـ فنقول: هل يعي المسلمون ذلك أو شيئًا منه؟ هل يعون عظمة دينهم وعلوَّ شأنه ومزيد رفعته وخوف أعدائهم منه؟ وهل يعون هيمنة دينهم على كل دين، وتميُّز نظامه على كل نظام؟ كلا لم يعوا شيئًا من ذلك؛ فلو وعوا منه شيئًا لما كانت حالهم هي ما نشاهد، ولما كان واقعهم هو ما نرى، ولما امتلأت صفحات ذلك الواقع المزري بالشقوق والندوب، ولما جلَت مظاهر هزيمتهم النفسية في كل

مجال عن الحصر، واستعصت في كل ميدان من ميادين الحياة على التعداد، ومن تلك المجالات مجال النظام السياسي، ومن تلك الميادين ميدان السياسة الذي نورد فيما يأتي عدداً من مظاهر هزيمة المسلمين النفسية فيه فنقول:

(١) من أعظم مظاهر الهزيمة النفسية في المسلمين في المجال السياسي نكبتهم بإلغاء خلافتهم الإسلامية في تركيا سنة ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤م[١]، أو أكتوبر سنة ١٩٢٣م[٢]، وعزل آخر خليفة للمسلمين في اليوم الثالث من مارس سنة ١٩٢٤م[٣] وطرده. ومعلوم أن السلطان عبد الحميد الذي ألغيت الخلافة في عهده قد أبى جميع عروض اليهود، ورفض كل محاولاتهم في إعطائهم فلسطين؛ لتكون وطناً قومياً لهم بما في ذلك عرضهم المغري بإعطائه أربعين مليون جنيه (أو ليرة) ذهباً، لقد رفض مقايضة شبر واحد من أرض المسلمين بالذهب، وليس ذلك فحسب بل لقد أصدر قانوناً بمنع الهجرة اليهودية، وبمنع إقامة مستعمرات لليهود في فلسطين[٤].

(٢) احتلال معظم البلاد الإسلامية في أواخر القرن الميلادي الماضي وأوائل هذا القرن، وتمزيق وحدة الأمة الإسلامية بذلك، وتدمير شخصيتها الإسلامية من خلال ذلك الاحتلال، ومحاولة القضاء على مقوماتها الأساسية وإضعاف قدرتها على المقاومة، واستمرار الاحتلال السياسي والفكري والثقافي حتى بعد انتهاء الاحتلال العسكري في كل منها.

(٣) تنازل الدول الإسلامية في ضعف وعجز عن شريعتها الإسلامية

---

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ص٧٤.
(٢) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية للدكتور عبد الحليم عويس ص١٩٧.
(٣) المرجع السابق ص١٩٨.
(٤) المرجع السابق ص١٩٢.

الخالدة، والتحول عن تحكيمها في كل شئون الحياة إلى تحكيم القوانين الوضعية الجائرة الناقصة، وعزل تلك الشريعة المطهرة الكاملة في ركن ضيقٍ قصيٍّ من أركان الحياة، وزاوية خاملة من زوايا دنيا الناس يسمونها دائرة الأحوال الشخصية.

(٤) استجابة البلدان الإسلامية - في بلاهة وغباء - ومنذ نصف قرن تقريباً لخطط أعداء الإسلام في زعزعة استقرار البلاد الإسلامية عن طريق الانقلابات العسكرية المتكررة. وكون ذلك من تخطيط أولئك الأعداء أمر غاية في البداهة؛ فقد كتب الكاتب الأمريكي «موروبيرجر» يقول: «إن النخبات الوطنية أقدر من النخبات الأجنبية في إحداث التغيير الاجتماعي المطلوب»، كما حذر من مجرد الاكتفاء بمجرد فرض التغيير، بل لابد من تعهده حتى يعمق في نفوس المجتمع مشيراً إلى أن المنطقة - ويعني المنطقة الإسلامية بالطبع - عرفت الانقلابات العسكرية بديلاً عن الجيوش الأجنبية.

بل إن «مايلز كوبلاند» في كتابه «لعبة الشعوب» يذكر صراحةً: «إن انقلاب حسني الزعيم - في سوريا - في يوم ٣٠ مارس (آذار) ١٩٤٩م كان من إعدادنا وتخطيطنا»، ثم يقول: «وكان قرارنا الأخير أن تكون مصر خطواتنا الجديدة»[١]. فمن خلال تلك الانقلابات المتعاقبة يصعد فريق من العسكر على أشلاء فريق آخر؛ مما أورث عدم الاستقرار الذي نجمت عنه ويلات كثيرة شملت كل مجال من مجالات الحياة.

(٥) وقوع الكثير من الدول الإسلامية إن لم نقل كلها في براثن أعداء الإسلام؛ يتحكمون في مقدراتها، ويرسمون سياساتها، ويخططون لها،

---

(١) أساليب الغزو الفكري (هامش ص٤٩).

ويوجهون قادتها بما ينبغي أن يأتوه أو يذروه عن طريق القوة والتهديد أحيانًا، وعن طريق الخداع باسم الاستشارة والإفادة من الخبرات أحيانًا أخرى، وعن طريق استسلام القادة وخنوعهم الذليل لأولئك الأعداء، بل وإعجابهم بهم، وسيرهم في ركابهم، والنظر إليهم بإكبار وإجلال. إن هنالك صنفًا من القادة في البلدان الإسلامية يوالون الأعداء، ويحاربون الأقرباء؛ مناقضين تمامًا لصفة محمد ﷺ والذين معه ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح: ٢٩]. فهم رحماء بالكفار أشداء بينهم!

إن واقع كثير من المسلمين ـ حكامًا ومحكومين ـ المناقض لصفة محمد ﷺ والذين معه هو في حد ذاته مظهر من مظاهر الانهزام السياسي المريع.

ذلك أن الإسلام يطلب من المسلم أن يوالي إخوانه المسلمين ويعادي أعداء الله ورسوله والمؤمنين، وذلك حين يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٠]، أو حين يقول جل شأنه: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [المائدة: ٥٥]، حين يقول سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [المائدة: ٥١]، أو حين يقول عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا** ﴾ [المائدة: ٥٧ـ٥٨]، أو حين يقول جل ثناؤه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ** ﴾ [الممتحنة: ١]، إلى غير ذلك من الآيات القاطعة الدلالة على وجوب موالاة أهل الإيمان ومعاداة المشركين والكافرين أيًا كانت صور شركهم وكفرهم، إذ الكفر ملة واحدة مهما تعددت أنواعه واختلفت ألوانه.

فحين ينقلب الأمر وينعكس الحال فيعادي المسلم إخوته المسلمين ويوالي

أعداءه وأعداء دينه من الكافرين، يكون ذلك من أقبح مظاهر هزيمته، وأشنع دلائل عجزه وضعفه وهوانه.

إن قاعدة الولاء والبراء من أعظم قواعد العقيدة الإسلامية، ومن أهم الأسس التي ترتكز عليها، وأي شرخ في هذه القاعدة الهامة يُعرِّض العقيدة ذاتها للضعف، بل قد يؤدي بها إلى الاضمحلال والتلاشي. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١].

(٦) التسليم بما نادى به الاستعمار والصهيونية والصليبية من فكرة فصل الدين عن الدولة، والأخذ بهذا المبدأ الهدَّام فعلاً في معظم ديار الإسلام - إن لم نقل كلها - حيث أبعد الإسلام عن ميدان الحكم وعن ميادين الاقتصاد والتربية والإعلام، وحُصِرَت سلطته في زاوية هامشية ضيقة تتمثل في المساجد الخالية من عنصر البناء والتكوين والفاعلية، وفي وزارات الأوقاف، وفي محاكم الأحوال الشخصية، وفي برامج معينة في الإذاعات المسموعة والمرئية، وصفحات أو أركان معينة محدودة في الصحف والمجلات، وتلك هي العلمانية بعينها. العلمانية في الحكم والسياسة، والعلمانية في التشريع والقانون، والعلمانية في التربية، والعلمانية في الإعلام؛ لقد أبى المنهزمون الإسلام ورضوا بالعلمانية الوافدة. أجل إن من أبرز وأخطر مظاهر الهزيمة النفسية في المسلمين قبولهم للعلمانية ورضاهم بها بديلاً للإسلام.

(٧) وكنتيجة طبيعية لذلك تنكرت كثير من حكومات البلاد الإسلامية للإسلام المُقْصَى عن الساحة، وتنمَّرت على الدعاة إليه بصدق وإخلاص، وحاربت كل ما يَمُتُّ إليه وكل ما يخدمه بقول أو فعل، وراحت تكيل لدعاته والمطالبين به والملتزمين بنهجه المتحمسين لعودته أصناف التهم الباطلة تلصقها

بهم، تشويهًا لسمعتهم وتنفيراً للناس عنهم، وإثارة للعامة والغوغاء عليهم ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

(٨) نشوء ظاهرة الشعارات الجوفاء التي يرفعها القادة والزعماء بمناسبة وبغير مناسبة، يطلقها أكثرهم وهو لا يفقه لها معنًى، ولا يعرف لها أصلاً، إنما هي الببغائية القاتلة والتقليد السمج والتبعية الذليلة إما لشرق أو لغرب فينعق التابع بما نعق به المتبوع دون أن يكلف الناعق الأخير نفسه عناء فهم معاني ما يردد من شعارات وما يرفع من لافتات. وما له وللمعاني؟! يكفي أن يجيد-إن أجاد- معرفة ألفاظها وأسمائها أما مدلولاتها ومقتضياتها وما وراء الأسماء والألفاظ فلا تهمه معرفته؛ لأن المتبوع لا يريد له أن يعرف من ذلك شيئًا، إنه لا يريده إنسانًا يحس ويدرك ويفهم، وإنما يريده ببغاءً جميلاً حاكيًا مردداً للصوت ليس غير.

وكفى بذلك انهزامًا، وهو استجابة حمقاء لمخططات اليهود، وتنفيذ حرفي لما ورد في البروتوكول الأول من بروتوكولات حكمائهم حيث يقولون فيه بالحرف الواحد: «كذلك كنا قديمًا أول من صاح في الناس: «الحرية والمساواة والإخاء» - كلمات ما انفكت ترددها منذ ذلك الحين «ببغاوات» جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر»[(١)]. وفي ترجمة أخري لهذا الكلام نقلها الأستاذ عبد الله التل في كتابه «جذور البلاء»[(٢)] ورد قولهم: «كنا أول من اخترع كلمات الحرية والمساواة والإخاء التي أخذ العميان يرددونها في كل مكان دون تفكير أو وعي، وهي كلمات جوفاء لم تلحظ الشعوب الجاهلة

(١) بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة محمد خليفة التونسي ص١٥٦.
(٢) ص٢٦٦.

مدى الاختلاف بل التناقض الذي يشيع في مدلولها. إن شعار الحرية والمساواة والإخاء الذي أطلقناه قد جلب لنا أعوانًا من جميع أنحاء الدنيا».

(٩) ومُضياً في درب الاستجابة لمخططات اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام ترى مظهراً آخر من مظاهر هزيمتنا يتمثل في إثارة القوميات المختلفة والنعرات الجاهلية، الممزقة لوحدة الأمة المسلمة، والمشتتة لشمل أهل الدين الواحد من طورانية تركية، وقومية عربية، وفارسية شاهنشاهية، وقومية هندية، إلى غير ذلك من القوميات العرقية المنتنة التي جمعها الإسلام ووحَّدها في قومية واحدة هي «القومية الإسلامية». ولم يكف هذا التمزق على نحو من هذه القوميات الكبرى، وإنما راح الأعداء ينفخون في نار القوميات الفرعية الجزئية فإذا بالقومية العربية تلد قوميات صغرى؛ فتلك فرعونية في مصر، وهذه فينيقية في لبنان، وثالثة بربرية في الشمال الإفريقي، ورابعة أشورية بابلية في العراق، وهلم جراً.

(١٠) الصراع المستمر والعنيف بين الشعوب الإسلامية وحكوماتها نتيجة مطالبة تلك الشعوب بتحكيم الإسلام، وتطبيق الشريعة الإسلامية، ورفض تلك الحكومات لذلك وإصرارها على إبعاد الإسلام عن الحكم، وإبعاد شريعته عن معترك الحياة. وما نتج عن ذلك الصراع الدامي المستمر من فقد الثقة بين الحاكم والمحكوم، وتعميق واقع التخلف في المسلمين، وإتاحة الفرصة لأعدائهم للمضي قدمًا في تنفيذ المزيد من مخططات الإبادة والاستيلاء والتدمير.

(١١) غياب العدل الذي هو سمة من سمات النظام السياسي الإسلامي الأساسية ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ

النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقيام التسلط والجور مكانه نتيجة سيادة الأثرة، وقيام القيم المادية مقام القيم الإسلامية في المجتمع المسلم.

(١٢) مُضِيُّ الطبقة التي تملك أزمَّة التوجيه والحكم في معظم الأقطار الإسلامية في محاولة دفع قطار الحياة اليومية إلى جهة تعاكس جهة الإسلام وتخالف آمال الأمة وأحلامها وعواطفها وأحاسيسها، ما بين إعلان صريح للعلمانية لدى البعض، وتسترٍ خلف مسمى الإسلام، واستغلال له؛ لتحقيق المطامع باسمه بعد تشويه حقيقته ومسخ ديباجته لدى البعض الآخر(١).

(١٣) بروز ظاهرة «الدكتاتوريات» وحكم الفرد ونظام الحزب الواحد الذي يقوم بالدعاية والترويج لما يريده الحاكم، والعمل على جذب العامة والناشئة إلى التنظيم المتفرد تحت الواجهات الخادعة التي يصطنعها، وبذلك تسود روح القطيع، وتنعدم الموضوعية، وتموت روح المسئولية، وتخفت كل الأصوات إلا صوت الحاكم الفرد المتسلط.

(١٤) تَحَوُّلُ الأحزاب التي تعتبر كثرتها وتعددها ـ مع توافر ضوابط ذلك التعدد ـ ظاهرة صحية ودليل وعي سياسي إلى تكتلات ـ إن صح التعبير ـ، وتَحَوُّلُ لغة الحوار بين السياسيين إلى لغة كلماتها الرصاص، فكل يريد أن يُخْضِعَ الآخر لسلطانه ويُنْزِله على حكمه ولو أدَّى ذلك إلى تمزق البلاد وهلاك العباد، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، ولبنان من أبرزها بما جرى فيه من صراع رهيب، وبما عاشه طيلة خمسة عشر عاماً من وضع مأساوي بالغ الخطورة، وكذلك ما يحدث في الصومال وتشاد وغيرها.

---

(١) الإسلام اليوم ـ للمودودي ص٥٥ بتصرف.

(١٥) وهناك ظاهرة أخرى لا تقل سوءاً برزت في الساحة السياسية الإسلامية لتمثل مظهراً قبيحًا من مظاهر انهزامنا النفسي وتدهور أوضاعنا وسوء أحوالنا ؛ تلك هي ظاهرة تزوير الانتخابات والتلاعب بها ، والعبث في نتائجها ، والتدخل السافر حينًا والمستتر حينًا آخر في مجرياتها وحركة سيرها ؛ لتحويلها لصالح الحاكم الذي لم يُجْرِهَا إلا ستاراً يغطي به شهوة الحكم لديه في عملية خداع مكشوفة غبيَّة للأمة المهزومة المحطمة المغلوبة على أمرها .

(١٦) استعمال المصطلحات السياسية الوافدة من الشرق والغرب والتغني بها والتأكيد عليها ، رغم كونها دخيلة على فكر الأمة ، غريبة على قاموسها اللغوي والسياسي ، كمصطلح «الديمقراطية» الذي يقابله بل يتفوق عليه مصطلحنا الإسلامي القرآني الرائع : «الشورى» ، وكمصطلحات «الليبرالية» ، و«الميكافيلية» ، و«البروليتاريا» و ، غيرها .

(١٧) التناقض والاضطراب في نظرة المسلمين إلى الإسلام وفي التزامهم به وتطبيقهم له من جهة ، وعدم مصداقية غالبية الحكومات في البلاد الإسلامية في تضمين دساتيرهم كون دين الدولة الرسمي هو الإسلام من جهة أخرى ، وتكاد أن تكون كل واحدة من المسألتين ناتجة عن الأخرى ، فعدم المصداقية في ذلك ناتج عن اطمئنان الحكومات إلى أن ذلك لن يثير هادئًا ولن يحرك ساكنًا من جماهير المسلمين ، وتناقض واقع تلك الجماهير واضطراب نظرتها إلى دينها ناتج عن عدم المصداقية الدستورية لدى الحكومات ضمن عوامل أخرى . والمحصلة النهائية لكل من الأمرين استمرار الوضع المهين لعموم المسلمين شعوبًا وحكوماتٍ ، رعاةً ورعيةً ، وتكريس واقع الانهزام المرير الأليم .

* * *

المطلب الثالث: مظاهرها في مجال السلوك الفردي والجماعي:

رغم إمكان اعتبار ما مر بنا في المباحث السابقة من مظاهر الهزيمة النفسية في كل مجالات التربية والإعلام والسياسة والاقتصاد مظاهر سلوكية ـ إلا أننا نعني بالسلوك التصرف الشخصي أو الجماعي الذي لا يمكن تصنيفه غالبًا في قالب من تلك القوالب، بل إنه ممارسة فردية أو جماعية لنمط معين من أنماط الحياة اليومية، كالأكل والشرب واللبس والنوم والكلام والمشي والحركة وأمثال ذلك من التصرفات التي لا تحصى، يقوم بها الإنسان بتلقائية وشعور داخلي يدفعه إلى تلك الممارسة على نحو معين.

وتلك الممارسة إما أن تكون منطلقة من وسط البيئة التي يعيش فيها الممارس وتحيط به؛ فتكون تلك الممارسة لألوان النشاط اليومي معبرةً عن أصالة الإنسان ودالةً على استقلاليته، وإما أن تكون نابعةً من تأثره ببيئة أخرى غير بيئته؛ فتكون بذلك دليلاً على تبعيته لتلك البيئة التي تأثر بعاداتها وتقاليدها وأنماط سلوك أهلها. وهو ما نعبر عنه بالهزيمة النفسية أو الروحية أو ذوبان الشخصية وتحلل الذاتية والوصول إلى مرحلة العجز عن التمييز بين ما يحسن وما لا يحسن استيراده من الأفكار والنظم والعادات والتقاليد.

فنحن إذًا حين نفرد مظاهر تلك الهزيمة في مجال السلوك ببحث خاص فإنما نعني ما يتصل بحياة الفرد اليومية وما يتصل بحياة الجماعة المسلمة كذلك، وهذا الجانب «أعني جانب السلوك» بشقيه سلوك الفرد وسلوك الجماعة ـ من أغنى الجوانب بمظاهر الهزيمة النفسية التي نعيشها للعفوية التي يتسم بها الجانب السلوكي في الإنسان وبعده عن «التنظير» و«العلمية» و«المنهجية»، وكون الإنسان «الفرد» هو المرآة التي تنعكس عليها آثار تلك

الهزيمة النفسية القاسية باعتباره - كفرد - ضحيتها الأولى.

وأول مظهر من مظاهر الهزيمة النفسية في مجال السلوك وأخطرها على الإطلاق هو مظهر «التقليد»، ومصدر خطورته كونه إلغاءً للشخصية وإذابة لمقومات الاستقلالية التي هي لازمة من لوازم التكريم الإلهي للإنسان. فالمقلد يلغي بتقليده لغيره وجوده، ويقضي على كيانه، ويغمض عينيه ليرى بعيون الآخرين، وأذنيه ليسمع بآذانهم، ويوقف حركة عقله وتفكيره ليفكر بعقولهم.

ولو أردنا الاختصار لقلنا: إنه يستحق ذاته ليكون جزءاً من الآخرين وتكملةً لهم. هذا في التقليد ككل، فكيف إذا كان التقليد في الضار دون النافع، والخبيث دون الطيب، والفاسد دون الصالح؟!

إنه حينئذ لا يكون إلغاءً للشخصية فحسب، ولكنه يكون قتلاً للإنسانية في الإنسان، وإنهاءً لوجوده بيده، وتحطيماً لمبدأ تكريمه الإلهي، ونزولاً إلى درك العجماوات التي يقود قطيعها واحد منها، فيسقط القطيع كله متتابعاً إن سقط ذلك الواحد، ويستمر مستقيماً في سيره إن استقام، ولأجل ذلك شنَّع الله على المقلدين لآبائهم بلا علم ولا بصيرة ولا هدًى ولا إعمال للعقل في مثل قوله تعالى: ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ [الزخرف: ٢٢ - ٢٤].

فخطورة التقليد الأعمى إذاً في كون المقلد يظن أنه مهتد وهو ضال، ويرى نفسه على حق وهو مرتكس في حمأة الباطل، وهذا التقليد الأعمى مقارن للترف، بل هو إحدى نتائجه الحتمية المريرة، فبمنطق القرآن لم يتشبث

بهذا التقليد الأعمى مفتخراً به إلا مترفو كل قرية أرسل الله إليها رسولاً ، فكأن مفهوم الآية أن غير المترفين أكمل عقولاً وأقل تقليداً؛ ولذلك حارب الإسلام الترف هو الآخر وحذر منه، معتبراً إياه مرضاً فتاكاً وداءً خطيراً يقضي على كيان الأمة وسوساً ينخر في عظامها .

والتقليد ذاته له مظاهر شتى، ليس في ناحية واحدة، وإنما في نواح كثيرة مختلفة نذكر منها :

* تقليد «المهزومين» من أبناء الأمة «للهازمين» في الملبس يستوي في ذلك الرجل والمرأة على حد سواء، فالرجل يقلدهم في شكل اللباس وشدة عنايتهم بشأنه فيما يسمونه بـ«الأناقة» التي يعقدون لها المسابقات، ويصرفون للفائزين فيها الجوائز . فللعمل ملابسه المعينة، وللسهرات ملابسها، وللّجان والجلسات الرسمية ملابسها المعينة، وهلم جراً . كل شيء من ذلك بمقدار معين، ويجب أن يراعى في ذلك اللباس التناسق التام، وعدم التنافر، فالألوان يجب أن تكون ملاحظةً بدقة؛ لون القميص مع لون «الياقة؛» «ربطة العنق» التي تناسبه، ولون الجورب مع لون الحذاء الذي يحتويه، وهكذا تقتضي الأناقة ألا يشذ شيء عن شيء أو يختلف .

وقلدهم الرجل كذلك في لبس الذهب من ساعة وخاتم و«دبلة» وما شاء لهم «التطور» أن يخترعوه غير ذلك، رغم تحريم ذلك في الإسلام على الرجل، لكن تقليد «المهزوم» «للسيد الهازم» أقوى من تحريم الإسلام .

وقلدهم الرجل كذلك في لبس الحرير رغم تحريمه هو الآخر على الرجال في شريعة الإسلام .

أما المرأة فإن تقليدها «لهازمتها الغربية» أوسع دائرة وأشد ضرراً وأعظم

خطراً، لكونها هي المحضن الأول لأبناء الأمة، فإذا استسلمت لداء «التقليد الأعمى» لم تعد تلك المسلمة المعتزة بإسلامها الحريصة على تخريج مسلم من محضنها، وإنما تتحول إلى نسخة كربونية من «سيدتها الغربية» أو قل إلى «غربية تعيش في الشرق في ديار الإسلام»؛ فتخرج من محضنها «غربيًا لا يربطه بأمته ودينها إلا المكان ليس إلا»، ذلك هو مكمن الخطورة في انسياق المرأة المسلمة نحو تقليد المرأة الغربية الكافرة، وذلك هو ما دفع «الغربيين الغزاة» إلى التركيز على المرأة المسلمة في خططهم التدميرية لكيان الأمة المسلمة.

وقد قلدت المرأة المسلمة المرأة الغربية الكافرة في أشياء كثيرة: قلدتها في السفور وانتهاك حرمة الحجاب، مستجيبةً في انهزام ظاهر لدعوة الداعين إلى ذلك وتزيين المزينين وتضليل المضللين، من الغزاة ومن بني جلدتها من المهزومينَ الوالغين في حب الغزاة وتقليد الغزاة والتلقي عن الغزاة، فجرَّت على نفسها بتلك الاستجابة لتلك الدعوة القائمة على التضليل والمغالطات كثيراً من المآسي والضياع والمخاطر التي سبقتها «سيدتها الغربية» إلى الأنين من آثارها والاكتواء بنارها، ومن ثم المطالبة بالعودة إلى وضعها السابق في ظل الالتزام والستر والحياء. ولكن هيهات فقد أبعدت عن ذلك كله، ويراد لها أن تسير في هذا الاتجاه المدمر إلى آخر الشوط؛ يريد ذلك لها دهاقنة التدمير من اليهود الذين أخذوا على أنفسهم عهداً بتدمير العالم وإفساده وتحطيمه والسير على أنقاضه إن استطاعوا.

* وقلدتها كذلك في التبرج والإسراف في استعمال الزينة بمختلف أشكالها وأنواع أدواتها، وذهبت بعيداً في العناية بذلك والاهتمام به حتى نسيت قيمتها وجوهرها وتذكرت «شكلها» فقط؛ فراحت تصوغه كما يريد لها

المفسدون في الأرض، وتلطخ وجهها بالمساحيق ما بين أحمر وأخضر وأسود، فلم تعد امرأةً بقدر ما أصبحت لوحةً تشكيليةً اختلطت فيها الألوان.

وراحت تغيير خلق الله فتزيل ما كان موجوداً، وتضيف ما لم يكن موجوداً؛ تزيل شعر الحاجبين وتضيف شعر «الباروكة»؛ في تحد صارخ للفطرة، وفي ثورة عنيفة على الطبيعة، وفي استجابة محمومة لأصحاب مصانع أدوات التجميل والمساحيق والأصباغ من اليهود.

* وقلدتها مرةً أخرى في اللباس - وما اللباس؟ ليس أعظم شأنًا من السفور والتبرج. فراحت تتابع «السيدة الغربية» في أمر لباسها حذو القذة بالقذة: إن لبست قصيراً لبست قصيراً، وإن لبست طويلاً لبست طويلاً، وإن لبست ضيقًا لبست مثلها، وإن لبست واسعًا فضفاضًا لبست كذلك، وراحت في تقليدها في أمر اللباس إلى أبعد من ذلك؛ فجعلت - كما جعلت تلك - للصباح لباسًا معيّنًا، وللظهيرة لباسًا محدداً، وللمساء لباسًا آخر غيرهما، وللسهرة ما يختلف عنها جميعًا، ولبست الغربية الحذاء ذا «الكعب العالي» فلبسته هي، ولبست تلك «الإيشارب» فلبسته هذه، وهي في ذلك كله إنما تلاحق «الموضة» التي تمر بالغرب، ثم يتلقفها الشرق فتسري في نسائه سريان النار في الهشيم.

واستمرت المرأة الشرقية المسلمة في مسار التقليد العفن حتى بلغت نهايته؛ فخلعت ملابسها كلها إلا ما يستر «السوءة» كورقة التوت عند الشاطئ والبحيرات، في «الشاليهات»، وعلى الرمال الناعمة، تمامًا كما فعلت «السيدة الغربية» حين خلعت جميع ملابسها إلا من شيء كورقة التوت أو العنب، فشواطئ البحار والأنهار والبحيرات لا تحتمل أكثر من هذا!!

وهي في تقليدها لها في اللباس تقلدها بالضرورة أيضًا في التفنن في أنواعه وألوانه، وفي التبذير من أجله والإسراف المتجاوز لكل حد في ثمنه، فالمرأة المهزومة في ديار الإسلام لا تعد اللباس لباسًا إلا إذا أحضرته من «نيويورك» أو «لندن» أو «باريس» أو «روما» أو غيرها من عواصم الغرب ومدنه الكبرى، ولا تحفل به إن لم يكن متمشيًا مع «أرقى» وآخر خطوط «الموضة»، والمستفيد الوحيد من ذلك كله هم اليهود من أصحاب دور الأزياء العالمية وكبار مصمميها، أما الخاسر الوحيد في هذه العملية الانهزامية القذرة فهو بيت المال الإسلامي الذي يبدد المهزومون من أهله من رجال ونساء أموالهم التي ينبغي أن تصب فيه؛ يبددونها في سبيل الشيطان.

* وقلد المهزومون «سادتهم» في المأكل والمشرب - وهو مما يستوي فيه الرجال والنساء -، فقلدوهم في أنواعه وطريقة إعداده، ثم قلدوهم في طريقة أكله حتى لو كان من ذلك الأكل باليد اليسرى التي رأى رسول الله ﷺ رجلاً يأكل بها فقال له: «**كل بيمينك**، فقال: لا أستطيع، فقال: **لا استطعت** - ما منعه إلا الكبر - فما رفعها إلى فيه قط»[١].

كما قلدوهم في الاعتناء بالأطعمة وتكثيرها وتنويعها وتعديد أشكالها وألوانها، فجعلوها غايةً في ذاتها، وهي في الأصل وسيلة للبقاء والعيش ليس غير، وأصبح الأكل والشرب «على الطريقة الغربية» مثار فخر عند كثير من أبناء هذه الأمة، فغزت الأكلات الغربية من أمريكية وفرنسية وبريطانية وألمانية وإيطالية أسواق المسلمين و«فنادقهم» وبيوتهم، وإن شئت فألق نظرة تأمل على أسماء تلك الأطعمة المستوردة تر عجبًا.

---

(١) رواه مسلم.

وقلدناهم في السرعة في الأكل على طريقتهم التي تقول إنهم يعيشون «عصر السرعة» الذي يتطلب السرعة في كل شيء، حتى في الأكل فاخترعوا شيئًا سموه «الوجبات السريعة»، فإذا به يغزونا في أقل من إغماضة العين أو لمح البصر، في كل مدينة وقرية من بلادنا الإسلامية.

وأقبح ما قلدناهم فيه في هذا الميدان استحلالنا لما حرم الله علينا من آنية الذهب والفضة، ولكننا صممنا آذاننا عن ذلك التحريم، وجرينا خلف القوم في استعمال تلك الآنية رغم أن نبينا ﷺ أخبرنا أنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة[1]. إلا أن فريقًا منا لا يؤمن بالآخرة مثلما أن «السادة» هناك لا يؤمنون بها، وفريقًا يؤمن بها ولكنه يريد أن يتمتع بالذهب والفضة في الدارين معًا. الدنيا والآخرة!!

* وقلدهم المهزومون منا في طريقة الكلام فترى الواحد منهم يُرصِّع حديثه كلما تحدث «بدُرَر» من لغات القوم! فمن مجيد للإنجليزية معتز بها وهم الأكثرية الغالبة، لا يخلو حديثه حين يتحدث بكلمات يقحمها في حديثه العربي إقحامًا ليؤكد انهزاميته وَضَعَتَهُ وهوانه على نفسه وعلى الناس. ومن مجيد لغيرها من لغات أخرى كالفرنسية ذات المرتبة الثانية، والألمانية ذات المرتبة الثالثة، ثم الإيطالية والأسبانية وهكذا. كل بحسبه وبقدر ما يجيد من لغات «الأسياد الهازمين»!

* وقلدهم كثيرون منا أيضًا في طرائقهم في الحركة والمشي وفي لهوهم وعبثهم وألعابهم وأغانيهم وموسيقاهم رغم حرمتها في ديننا، ولكن يأبى

---

(١) من حديث رواه الترمذي ٣/ ١٩٩ (١٩٣٩م)، وقال: هذا حديث صحيح حسن. وروى الشيخان نحوه عن حذيفة بن اليمان.

انهزامنا إلا أن نقلدهم في الخبيث دون الطيب، وفي القبيح دون الحسن، وفي الضار دون النافع؛ في التيه والضياع والعبث والمجون.

ألم يأتك نبأ «جون ترافولتا» وفيلمه الذي هز شبابنا وأغراهم بتقليده في رقصه الداعر؟ ذلك هو فيلم «حمى ليلة السبت» فأردنا «معاشر المهزومين» أن نصاب بذات الحمى التي أصابتهم. وألم يأتك بعده نبأ «مايكل جاكسون»؟ ذلك المغني الأسود الذي أصبح «صرعة العصر» فهب «مهزومونا» يقلدونه أيضًا مثلما قلدوا قبله «ترافولتا»؛ فذلك أبيض وهذا أسود ولابد من التوازن في تقليد المغنين والراقصين، أفنقلد الأبيض ونترك الأسود بلا تقليد؟ لا، هذه ليست عدالة وليست إنصافًا!!

* ويمضي بنا موكب التقليد الأحمق أو الأعمى أو كليهما معًا، فنغرق في تقليد «هازمينا» في مختلف أنماط حياتهم اللاهية العابثة فنقيم «حفلات الكوكتيل»، «الحفلات المختلطة» كما يقيمونها، ومنها تلك الحفلات الصاخبة التي تقام لاختيار «ملكات الجمال» تلك البدعة العصرية اليهودية التي تقاس فيها أعضاء أجسام العاريات بالبوصة والسنتيمتر.

ونحتفل بذات الأعياد التي يحتفلون بها رغم أنه ليس في ديننا سوى عيدين اثنين لا ثالث لهما: عيد الفطر وعيد الأضحى، لكن المهزومين من بني جلدتنا استبدلوا بهما أعيادًا كثيرة لا يحيط بها الحصر، تبدأ ولا تنتهي؛ فعيد للميلاد - ميلاد كل فرد في كل عام يجمع فيه أصدقاءه - صغيرًا كان أم كبيرًا وذكرًا كان أم أنثى - فتضاء الشموع ثم تطفأ، ثم يختلط الجميع في نشوة وهم يغنون أغاني نصرانية عابثة، ويأكلون ويشربون جامعين في أكلهم وشربهم بين ما حل وما حرم غير عابئين بحل ولا بحرمة، إنما هو العبث والضياع والذلة والهوان

والانهزام المريع. وعيد آخر للأم، وثالث للأسرة، ورابع للمعلم، وخامس للوطن، وما شئت بعد ذلك من مسميات جوفاء لا معنى لها ولا فائدة منها، بل كلها ضرر وشر وبلاء مستطير. فأوقات تضيع، وأموال تهدر، وحرمات تنتهك، ولكنه التقليد الأرعن المجنون.

وبلغت الوقاحة والخسة وانعدام الحياء بكثير من الإمَّعات من المسلمين أن يقلدوهم في أمر ما كنا نتصور أن يجرؤوا على تقليدهم فيه؛ لأنه ليس هناك من دافع غريزي يدفع إليه، وليس هناك من منفعة أيّاً كانت تترتب عليه، ليس فيه شيء من ذلك كله، فلم يكن تقليدهم لهم فيه إلا للتقليد ذاته ليس إلا: ذلكم هو تربية الكلاب والإنفاق عليها بوجوه متعددة من إطعامها وتطبيبها ودوائها والترفيه عنها، يفعل المهزومون منا ذلك كله بالكلاب، ومن أجل الكلاب، بينما الآلاف المؤلفة من بني أمتهم يتضورون جوعًا، ولا يجدون من الكساء ما يسترون به عوراتهم، ولا من الدواء ما يداوون به مرضاهم، ولا يجدون من الغذاء ما يسد لهم رمقًا ويكفل لهم البقاء على قيد الحياة. فهل بعد هذا المبلغ الذي بلغناه من تقليدهم من أمل في شفاء من هذا الداء العضال والمرض الخطير الفتاك - داء الانهزام ومرض التقليد البغيض الأعمى؟!

* وقلدناهم في مرض اجتماعي آخر دمر حياتهم، وأفسد أمزجتهم، وحطم الأسرة في ديارهم، وقام عقلاؤهم وعاقلاتهم منذ زمن يشكون منه ومن آثاره المدمرة ونتائجه الخطيرة مُرَّ الشكوى، ولكن ما الفائدة؟ لقد جاءت صيحاتهم بعد فوات الأوان - ذلك هو داء الاختلاط اللعين الذي بعث الشهوات من مرقدها، وأشعل أوراها، وأوقد نار الفتنة، وجعل ينفخ فيها، فتحطمت بسببه العلائق الأسرية، وتهدمت البيوت الغربية والشرقية، وضاعت

الأخلاق، وسقط كل من الرجل والمرأة اللذين اختلطا في الشارع والمكتب والمصنع والمدرسة والجامعة والنادي وفي كل مكان غير ذلك، ثم اختليا فسقطا في أتون فتنة الشيطان التي أنبأنا عنها نبينا ﷺ حين قال محذراً من تلك الخلوة المحرمة: «**لا يخلو رجل بامرأة لا تحل له؛ فإن ثالثهما الشيطان**»[1].

* وتنازلنا - في انهزام مكشوف - عن توقيتنا الإسلامي المرتبط بتاريخنا إلى توقيتهم هم؛ فقلدناهم في التوقيت بالأشهر الميلادية متخلين عن توقيت أسلافنا إلى عهد قريب بالأشهر الهجرية المرتبطة بأجلّ ذكرى في تاريخنا الإسلامي العطر، ذكرى بناء أساس دولتنا الإسلامية الأولى بهجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة.

* كما تنازلنا أيضاً عن طابعنا الإسلامي في العمارة والبناء وسعينا إلى تقليدهم في أشكال مبانيهم ونظام عمرانهم وتصميم بيوتهم ومساكنهم رغم ارتباط أشكال البناء بدين كلٍّ وعاداته وتقاليده؛ فتصميم بيوتنا - معاشر المسلمين - يراعى فيه فصل الرجال عن النساء ومنذ وضع مخطط البناء ولبنته الأولى، بينما لا يراعون هم شيئاً من ذلك. ومع ذلك قلدناهم بشغف في تصاميمهم، ولمَ لا، وقد قلدناهم قبل ذلك في إلغاء الفصل بين الرجال والنساء نفسه والأخذ بمبدأ الاختلاط بعدما أخذوا به؛ مما لم يعد معه حاجة إلى مراعاة الفصل بين الجنسين عند بناء المساكن أو تشييد أي مرفق آخر.

* وقلدناهم - ضمن ما قلدناهم فيه من أشياء كثيرة - في اقتطاع يومين من حياتنا كل أسبوع - يسمونهما هناك «الويك إند» أي (عطلة نهاية الأسبوع)،

---

(١) رواه الإمام أحمد.

ويتحررون فيهما من كل جد والتزام، فيعبثون فيهما ما شاء لهم العبث، ويضيعون فيهما الأوقات والأموال والأخلاق جميعًا، فرحنا نصنع كما صنعوا، فنضيع في «عطلة نهاية أسبوعنا» الأوقات والصلوات، ونعتبرهما فرصة للتحرر من كل قيد والانطلاق من كل مسئولية والانعتاق من كل التزام.

ولسنا نحظر أو نجرِّم أن يتخذ المسلم لنفسه سبيلاً إلى إزاحة ما قد يعلق بها من ضيق أو إرهاق أو كدر بشيء من الترويح المنضبط الملتزم في عطلة أو غيرها، ولكننا نعني فريقًا من المسلمين في كل مكان ساروا على الخط الغربي نفسه في مسألة العطلات الرسمية واستغلالها بما يتنافى مع كونهم مسلمين من إضاعة للأوقات وللصلوات، وعكوف على عبث لا ينتهي، ومحاذير أخرى لا تخفى على اللبيب. وانظر إن شئت شواطئنا الإسلامية في طول البلاد الإسلامية وعرضها أيام عطلاتنا، فهل تراها تختلف عن شواطئ القوم هناك في شيء؟! أكاد أجزم بأنها لا تختلف، وإن كان هناك شيء من اختلاف فهو يسير جداً لا يكفي لتمييزنا عنهم بصفتنا «مسلمين لنا شخصيتنا المستقلة وأنماطنا الاجتماعية الخاصة».

* ومضينا كذلك في اقتناء المجسَّمات من الصور والتماثيل رغم نهي ديننا عنها وتحريمه لها، فنزين بها جدران بيوتنا وأرفف «تحفنا الأخرى»، ونضعها في مقدمة سياراتنا وغرف نومنا وطعامنا. وامتلأت شوارع بلدان عالمنا الإسلامي في شرقه وغربه بتلك التماثيل والأنصاب، كامتلاء شوارع البلدان الغربية بها تمامًا بتمام. ولم نلاحظ الفرق بيننا وبينهم في هذا الأمر، كما لم نلاحظ ذلك الفرق بيننا وبينهم في أشياء كثيرة أخرى.

* ورأينا القوم هناك يعتنون بأشكال دور عبادتهم من تفخيم مبانيها،

وإطالة سقوفها، والإسراف في الإنفاق عليها، ويجعلونها آية في «الفن» والجمال من قبب زاهية و«ثريات» مشعة وزخارف لا حصر لها. ولا غرو في ذلك منهم ولا عجب، فهم ينظرون إليها على أنها متاحف لا أكثر ولا أقل. لقد ولّوها أظهرهم كأماكن عبادة، وأشاحوا وجوههم عنها كدور صلاة، لكنهم أقبلوا عليها كمبان جميلة فيها الكثير من تحف المعمار، وجمال الذوق الهندسي، وروعة التصميم، لقد أجاد فيها كل صانع صنعته من بنّاء وكهربائي ومزخرف؛ فيأتون ليشهدوا جمال الصنعة لا أكثر ولا أقل.

أقول: رأينا القوم كذلك فقلدناهم في هذا الأمر أيضًا كما قلدناهم فيما سواه؛ فمسلسل التقليد طويل تُسْلِمُ كل حلقة فيه إلى الحلقة التي تليها، فرحنا نبالغ في زخرفة مساجدنا ورفع أسقفها وإطالة جدرانها والإكثار من ثرياتها وتفخيم أبوابها ونوافذها، ونسينا أن العبرة ليست بذلك كله، وإنما بعمارتها الحقيقية المتمثلة في المحافظة على الصلاة فيها جماعةً في كل وقت من أوقاتها وعمارتها بذكر الله ودعائه وتلاوة كتابه وتدارس كل علم شرعي نافع من قرآن وسنة وسيرة وفقه... إلخ، وعقيدة القوم غير عقيدتنا ونظرتهم إلى العبادة وأماكنها غير نظرتنا، فلم نقلدهم في ذلك رغم ذلك الاختلاف الكبير، والفرق البعيد والبون الشاسع بيننا وبينهم في ذلك كله؟!

هذا كله عن التقليد؛ صور شتى لمظهر واحد من مظاهر الهزيمة سميناه التقليد، وكان رسول الله ﷺ قد سماه بـ«اتباع السَّنَن» في الحديث المشهور الذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام: «**لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم**. قلنا: يا رسول الله،

اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[١]، وفي رواية: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ...**» إلى آخر الحديث.

ولا يَظُنَّنَّ ظان أن مقصد رسول الله ﷺ مجرد الإخبار بذلك، كلا بل إنما أراد التحذير من ذلك «الاتباع» و«التقليد» البالغ الدقة والالتزام والحرفية؛ فهو «شبر بشبر وذراع بذراع ولو دخل اليهود والنصارى جحر ضب لدخلناه وراءهم»!! أفرأيت أدق من هذا الوصف المعجز لهذا الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ؟ وماذا وراء جحر الضب؟! أجل، ماذا بعده تناهيًا في الصغر والضيق والهوان؟! إنه تعبير غايةً في الدقة ومَثَلٌ غايةٌ في الدلالة على المقصود من السير على الخطى نفسها ومواضع الأقدام ذاتها (شبرًا بشبر وذراعًا بذراع). لقد كان ما أخبر عنه المصطفى عليه الصلاة والسلام غيبًا فأصبح اليوم - بل ما قبل اليوم بزمن يطول أو يقصر - شهودًا نراه ونسمع به ونكتوي بناره، ونتألم من آثاره، ونشتكي إلى الله من نتائجه.

وهذا التقليد والاتباع للسَّنَن ليس المظهر الوحيد للهزيمة في مجال السلوك.

ولقد أشرنا إلى ذلك عند الشروع في الحديث عنه حين قلنا: إنه أول المظاهر وأخطرها على الإطلاق، ومعنى هذا أن هناك مظاهر أخرى لا تقل خطورة عنه سنتناولها في الأسطر التالية.

غير أنه يجب قبل أن ننتقل إلى الحديث عنها أن نوضح أنه ليس معنى ما أوردناه من نقاط وأمثلة وصور للتقليد باعتباره أخطر مظاهر الهزيمة النفسية في مجال السلوك أننا نُحَجِّرُ واسعًا، أو نحظر مباحًا فيما يتعلق - مثلاً - بمسألة

---

(١) رواه البخاري.

اللباس أو الأكل أو قضاء العطلات في التنزه وما إليه، أو تعلم اللغات الأجنبية والتحدث بها، والأخذ بالتقويم الميلادي، وخلاف ذلك مما هو داخل في دائرة الإباحة ـ ولكننا أردنا التنبيه على أن فعلنا لكل ذلك ليس لأنه مباح فقط، ولكن لأن القوم هناك يفعلونه، فالمحرك لفعلنا إياه والدافع لقيامنا به ليس هو نظرتنا إليه من زاوية الحظر والإباحة، وإنما مجرد فعل الغربيين له وقيامهم به، فيكفي لكي نقوم بالشيء أن يقوموا به، ولكي نفعل الشيء أن يكونوا قد سبقونا إلى فعله.

إنني هنا أندد بالرغبة الكامنة في نفوسنا في مجرد تقليدهم، وأنحي باللائمة على الدافع للفعل، لا على الفعل ذاته، فليس ممنوعًا أن نلبس السترة والبنطلون، أو نأكل بالملعقة والشوكة والسكين، أو نقضي عطلاتنا حيث أردنا، أو نتعلم اللغة التي نحتاج إليها ونتحدث بها. ليس شيء من ذلك محظورًا لذاته، إنما المحظور أن يكون دافعنا إلى فعل شيء من ذلك مجرد تقليد أولئك الغربيين؛ ولا شيء غير التقليد؛ ذلك أن «تقليدنا» لأي كان إلغاء لشخصيتنا، وإنهاء لوجودنا، وانسحاقًا تحت أقدام من قلدناهم، وضياعًا لهيبتنا أمامه. هذا أمر أحببت التنبيه عليه حتى لا يقفز قارئ من مكانه مُحْنَقًا يقول: ما بال هذا الكاتب يحظر علينا المباح ويضيق علينا الواسع؟!

ثم نعود بعد هذا الإيضاح إلى صلب موضوعنا مستكملين تعداد مظاهر هزيمتنا النفسية في مجال السلوك قائلين:

* إن من تلك المظاهر اهتزاز القيم والأخلاقيات في مجتمعنا الإسلامي، وليس الأمر أمر اهتزاز فقط، ولكنه أمر تبدُّل لتلك القيم والأخلاقيات، فقد انمحت كثير من قيمنا الإسلامية، وحل محلها قيم حديثة غربية وافدة، ولو

أردنا التمثيل لقلنا: إن المادية قيمة غير إسلامية، بل هي قيمة غربية قلبًا وقالبًا سُداها ولُحْمتُها أن لا قيمة إلا للمادة، ولا عمل إلا للمادة ومن أجلها وفي سبيلها، فكل شيء مرتبط بالمادة، منها يبدأ وإليها يعود، حتى العلاقات الإنسانية دخلتها القيمة المادية تلك التي يعبرون عنها بقانون «المنفعة» أو سياسة «تبادل المصالح»، فما لم يكن للمرء هناك نفع من وراء عمل ما فلن يعمله، وإذا كانت له مصلحة في عمله عمله مهما كان ضاراً لنفسه أو لغيره.

لقد دخلت المادية هناك لديهم في الغرب أنبل نوع من العلاقات الإنسانية؛ أعني علاقات الآباء بالأبناء، فما لم يكن هذا الابن قادرًا على الدفع المادي لأسرته فلا مكان له بينها، لقد حطمت هذه المادية قيمًا كانت راسخة من التراحم والتعاون والتكافل وأزاحتها لتحلَّ محلها. حدث ذلك هناك في الغرب المتفلت من كل قانون أو قيمة، ويحدث هنا في الشرق في ديار المسلمين ومجتمعاتهم مع تفاوت بين ما يحدث لديهم وما يحدث لدينا من ذلك، مرده إلى قوة الأثر الروحي العميق للإسلام وقيَمه في نفوس المسلمين. لكن ذلك التفاوت الذي قد يُلحظ وقد لا يُلحظ صائرٌ إلى التلاشي وإلى ضيق دائرته، إذا استمر سيرنا على سرعته وقوته للحاق بالقوم.

ومن أعظم قيمنا الإسلامية التواصل الأسري الذي بدأ يحل محله التفكك رويدًا رويدًا، ومع التفكك الأسري بدأ تفكك المجتمع وتحلله إلى وحدات صغيرة وأجزاء متناثرة هي المساكن. لقد كان مجتمعنا مترابطًا متقاربًا، فأصبح مجتمع مدننا الكبرى مجتمعًا متباعدًا متفككًا مقطع الأوصال.

ومن القيم التي سادت حديثًا في المجتمعات الإسلامية تلك التي يسمونها «الحرية الفردية» أو «الحرية الشخصية»، وهي قيمة قامت على أنقاض قيم «الحياء» و«احترام المشاعر»، وفهمها مجتمعنا الحديث فهمًا مغلوطًا؛ اعتدى

الفرد بموجبه على حرية المجموع، وتجاوز باسم هذه الحرية التي منحها كل فرد نفسه كما يشاء كل الحدود والقيود والسدود؛ يأتي من الأفعال التي لا ينبغي أن تؤتى ما شاء باسم الحرية الشخصية، ويترك من الأعمال ما لا ينبغي أن يترك باسم تلك الحرية ذاتها. وحدث عما فعلته بنا تلك القيمة الغربية الحديثة الوافدة علينا مع الهزيمة النفسية التي نعيشها بأقسى صورها، حدث عن ذلك ولا حرج.

ومن القيم الثوابت في المجتمع الإسلامي - أو التي كانت كذلك على الأصح - تلك المتعلقة بمسألة الاهتمام بالأولاد، والعناية بتربيتهم تربية صالحة مستقيمة، والحرص على تخريجهم من مدرسة البيت رجالاً صالحين مصلحين، فهل بقي الأمر بالنسبة لهذه المسألة على ما هو عليه؟ أم امتدت إليها يد التغيير والتبديل فانزاحت عن واقع مجتمعنا المسلم ليحل محلها الإهمال والتضييع وإضاعة الأمانة في هذا الجانب الخطير - جانب تربية الأولاد وصياغتهم حسب النموذج الإسلامي الفريد؟

وقل مثل ذلك عن كل قيمنا الإسلامية الأخرى التي زاحمتها قيم وافدة حتى زحزحتها، واحتلت مكانها الواحدة تلو الأخرى، فإذا بالقيم الغربية الوافدة هي السائدة، وإذا بقيمنا الأصلية أثر بعد عين.

لقد تضعضعت قيمة الأخلاق في نفوس «كثير من المسلمين» مثلما تضعضعت عند «كل الغربيين»، فقد فصلوا كل مجالات حياتهم هناك عن الأخلاق؛ فصلوا السياسة ثم الاقتصاد ثم العلاقات الاجتماعية والأسرية بما في ذلك «الجنس نفسه»؛ فلم يعد لشيء من ذلك كله علاقة بالأخلاق، ونحن على ذلك الدرب الخطير سائرون؛ لأننا منهزمون في داخلنا، فبعضنا أتم مرحلة الفصل تلك وأصبح كل شيء مما ذكرناه ومما لم نذكره لا علاقة له

بالأخلاق عنده، وبعضنا في منتصف الطريق من ذلك، وبعضنا لا زال في بداية الطريق لكنه مصمم على المضي فيه إلى نهايته إلا أن تتداركه عناية الله.

* ومن تلك المظاهر أيضًا التخاذل الواضح عن القيام بواجبات كبرى لا تنهض الأمة ولا يستقيم أمرها إلا بالقيام بها، من مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. هذا الواجب التقويمي المستمر لسلوكيات الأمة أفرادًا أو مجتمعًا، والنصيحة لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، والتعاون الدائم الذي لا يكل ولا يمل على كل ما فيه خير الفرد والمجموع. فَضَعْفُ قيام الأمة بهذه الواجبات الأساسية، بل انعدام قيامها في أحيان كثيرة مظهر صارخ من مظاهر هزيمتها النفسية وافتقادها القدرة على إدراك ما يجب عليها فعله لضمان بقائها وصمودها واستمرار قوتها.

* ومن تلك المظاهر كذلك سريان العمل بقاعدة تعاملٍ يرفضها الإسلام وهي: أن الغاية تبرر الوسيلة، ذلك المبدأ الخطير الذي يستحل كل محرم من قول أو فعل في سبيل الوصول إلى الغرض وحصول المقصود.

* ومن أبرز مظاهر الهزيمة تفضيل الصناعات الغربية على غيرها، والاعتقاد الجازم عند الكثيرين منا بأنها لا تضاهَى، وهي وإن كانت الأجود في الكثير الغالب، إلا أن المبالغة في الاعتزاز بها والركون إليها إنما يدل على الانهزام النفسي الداخلي الذي يربطنا بكل ما هو غربي ويجعلنا ننظر إليه على أنه رمز الجودة ومثال الكمال.

* ومنها كذلك الحرص على التردد على بلاد الغرب والشعور الداخلي لكل ذاهب منا إلى هناك بالفخر والاعتزاز، انعكاسًا لتعلقنا بتلك البلاد وأهلها وإحساسنا بالعجز عن محاكاتهم، بله التفوق عليهم.

* ويُلحق بذلك أيضًا الإقبال على القصص والروايات الغربية وسائر

ألوان الآداب الغربية من قبل مثقفينا والتعلق بها، ومحاكاة مذاهبهم الأدبية والاستعاضة بها عما لدينا، رغم تركهم لكثير منها، وكون ما لدينا هو الأنسب لنا والأفضل والأمثل، ولكنها عقدة التعلق بهم، ومركب النقص ليس غير.

* ومن هذا القبيل ما يحرص عليه كثير من أثرياء المسلمين ومثقفيهم من الزواج بالغربيات والارتباط بهن، عن إعجاب مبعثه الإحساس بتفوقهم في كل شيء، ومما يعتقد أولئك المخدوعون بهم تفوقهم فيه فن العلاقات الزوجية، فهم يرون أن الغربية أفهم له وأعرف به وأقدر على ممارسته وأنجح في تحقيق ثماره المرجوة وغاياته المتوخاة، وهو اعتقاد لا يقوم على أساس علمي صحيح، ولا سند له من واقع، بل إن الواقع ليؤكد تنكر كثير من الغربيات لأزواجهن من الشرقيين عمومًا والعرب المسلمين خصوصًا، في شعور منهن بتفوق عرْقهنَّ الآري وفي غطرسة وتعالٍ لا حدود لهما. وكثيرات أولئك الغربيات اللواتي تركن أزواجهن من الشرقيين يندبون حظهم، وقد رمين عليهم بأولادهم منهن فالمرأة الغربية لا تقيم وزنًا لزوج ولا ولد ولا بيت في الغالب الأعم.

ونقول: في الغالب الأعم حتى لا نقع في خطأ التعميم؛ إذ لا تخلو بلاد الغرب من نساء عاقلات مستجيبات لنداء الفطرة، ساكنات إلى أزواجهن، مرتبطات ببيوتهن، قائمات بحقوق الزوج وشئون البيت والأولاد، كبقية نساء الدنيا، ولكننا نتحدث عن الغالب الذي يشكل القاعدة ولا عبرة بالاستثناء.

ولاشك أن التجربة قد أثبتت أن المسلمة للمسلم أصلح، وبه أرفق، وعليه أحنى، ولولده أكثر رعاية، وبه أكثر اهتمامًا، رغم ما قد يخدع في الغربية من صفات شكلية تلفت أنظار الكثير من الشرقيين، ومنا معشر العرب والمسلمين على وجه الخصوص. فإن الشكل لا يغني عن الجوهر، وفي أمثالنا العربية

الرصينة: «ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة، ولا كل حمراء جمرة».

* ومن المظاهر الانهزامية التي يلحظها كل ذي عينين وهي من قبيل ما أشرنا إليه من الحرص على الزواج منهم ومصاهرتهم - حرصُ الكثيرين منا أيضًا على إلحاق أولاده بالمدارس ذات الصبغة الأجنبية والطابع الغربي، وجلب الكثير من الأسر المسلمة المهزومة «مربيات غربيات لتربية أولادهم»، وما أشد خطر ذلك وأدهاه حين تكون تلك الأسر الجالبة لهن من أسر الصف الأول في المجتمع، ممن سيكون أبناؤها فيما بعد السادة والقادة والموجهين للدفة الممسكين بالزمام!

ومبعث ذلك الحرص على تدريس الأولاد في المدارس الأجنبية وجلب المربيات الغربيات لهم - كما هو مبعث كل سلوك مماثل - الإعجاب الذي لا حدود له بالقوم، والشعور بتميزهم علينا وعلى غيرنا، والانبهار الشديد بنظرياتهم في مجال التربية، وتَصوُّرُ أن أية مدرسة تسير على مناهجهم، أو تقع تحت إشرافهم؛ إنما تقوم على أحدث النظريات التربوية التي ترقى بمستوى الطلاب، وتحقق لهم مزيدًا من التفوق في جو يشع بالبهجة والحبور والسرور والرضى النفسي.

ونحن لا نغمط القوم حقهم، ولا نبخسهم أشياءهم، فلا ننكر أن لديهم نظريات «تربوية» جيدة ونظريات أخرى في كل مجال، ولكن الذي نقوله ونردده ونؤكد عليه أنه ليس بالضرورة أن نغمض أعيننا فنأخذ كل ما عندهم، ولسنا ملزمين بأن نلغي ذواتنا لنعيش بذواتهم، فليس كل ما لديهم يصلح لنا، فهم شيء ونحن شيء آخر؛ ديننا يختلف، مفاهيمنا تختلف، وتصوراتنا تختلف؛ فبالتالي يجب أن تختلف سلوكياتنا عنهم تبعًا لذلك.

هذا هو ما قلناه ونقوله وسنظل نقوله حتى تنقشع الغشاوة عن عيون الملايين من مسلمي هذا العصر.

* ولعل أغرب ما يمكن تصوره من مظاهر الهزيمة القاتلة ما أنقله هنا بنصه - لغرابته وجرأة صاحبه - عن فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين - رحمه الله الذي كان شيخًا من شيوخ الأزهر السابقين - حيث قال في كتابه (رسائل الإصلاح) الجزء الأول[1] ضمن موضوع بعنوان «محاكاة المسلمين للأجانب» ما نصه: «وقد وصل ببعضهم الشغف بالانحطاط في هوى الأجانب والانغماس في التشبه بهم أن اقترح في غير خجل قلب هيئة المساجد إلى هيئة الكنائس، وتغيير الصلوات ذات القيام والركوع والسجود إلى حال الصلوات التي تؤدى في الكنائس». ثم علق - رحمه الله - على ذلك بقوله: «وهذا الاقتراح شاهد على أن في الناس من يحمل تحت ناصيته جبينًا هو في حاجة إلى أن توضع فيه قطرة من الحياء».

* وآخر ما نود ذكره في هذه العجالة من مظاهر هزيمتنا النفسية في مجال السلوك ما يشاهده الناظر إلى شوارعنا الإسلامية من تلك الأسماء الغربية التي نطلقها على محلاتنا التجارية وشركاتنا ومؤسساتنا و«دكاكيننا» بمختلف مستوياتها ونوعياتها بدءًا من الشركات الكبرى وانتهاءً بمحلات بيع الشاي والفطائر، وكأن أسماءنا لا تغنينا، أو كأن لغتنا ضاقت عن أسماء لشركاتنا ومؤسساتنا ومحلاتنا الكبرى والصغرى، وهي اللغة التي لم تضق يومًا ولن تضيق عن أي اسم أو مصطلح أو وصف، ولكنه العقوق لها والتنكر لأصالتنا والتعلق بكل شيء غريب ليس إلا. وذلك التعلق هو داؤنا العضال، وهو مرضنا الفتاك، وهو ما سميناه بهزيمتنا النفسية الخطيرة!

(١) ص١٥١.

المبحث الثاني
خطر الهزيمة النفسية للمسلمين

أولاً: في نطاق الفرد:

لقد سمينا هذه الظاهرة - موضوع بحثنا - في أكثر من موضع منه داءً عضالاً ومرضًا فتاكًا وكنا ونحن نسميها بذلك نعي ما نقول، وندرك معنى كل كلمة نقولها. فهل يُتَصَوَّر داء بلا خطر أو مرض بلا ضرر؟ وكيف يتصور ذلك والداء هو الخطر بعينه والمرض هو الضرر ذاته؟!

إن هذه الظاهرة التي طبعت حياة المسلمين اليوم بطابعها طافحة بالأخطار مليئة بالأضرار، إن أخطارها لم تقف عند حد، ولم تقتصر على فئة من فئات الأمة المسلمة دون أخرى، أو شعب من شعوبها دون آخر. لقد شملت الفرد والجماعة والأمة في مظهرها العام الواسع، وشملت الرجل والمرأة على السواء، وشملت الصغير والكبير؛ ذلك أنها فتنة هوجاء عاتية ينشأ فيها صغير المسلمين، ويهرم فيها كبيرهم، مما لن أتمكن معه من استقصاء جميع تلك الأخطار، ولن أستطيع التحدث عنها جميعًا بشيء من التفصيل، وإنما سأشير إلى أبرز تلك الأخطار وأعظمها.

(١) فمن أبرز مخاطرها على مستوى الفرد أنها دمرت كيانه وحطمت ذاته؛ فأضعفت مقاومته، وهتكت الحاجز النفسي الذي كان قد بناه الإسلام بينه وبين

أعداء الإسلام بكل طوائفهم وبمختلف فرقهم، وخدّرت فيه نزوعه إلى التطلع إلى أعلى، وجعلته يكتفي من حياته بما يشبع نهمًا، أو يروي ظمأ، أو يطفئ سعار غريزة. أي إنها باختصار حولته إلى حَمَل وديع يأكل ويشرب وينام ويقلد وحسب، أما العقل والفكر والعمل والإنتاج فلا يرى حاجة لشيء منها، فقد كفاه مؤونتها «الغرب»، فهو يفكر له ويعمل له وينتج، وما عليه هو إلا أن يستمتع بثمار فكر «الغرب الهازم» وحصاد إنتاجه وعمله.

(٢) وخطر آخر تؤدي إليه هذه الهزيمة الماحقة عبر ذلك كله هو استخفافه بدينه واحتقاره له؛ متصورًا أنه سبب ضعفه وعجزه، وغلبة الغرب له، وانتصاره عليه، فيؤدي هذا الاستخفاف منه بدينه والاحتقار له إلى انسلاخه منه وثورته عليه.

(٣) وهذا الانسلاخ من الدين يؤدي إليه أيضًا طريق آخر أشرنا إليه، كأخطر مظاهر هذه الهزيمة، وهو التقليد؛ ذلك أن التقليد بمختلف صوره التي عددناها يقود إلى محبّة المقلَّد - شاء المقلِّد أم أبى - ولعل ذلك ما يفسر لنا حرص الإسلام الشديد على منع تشبه المسلمين بأعدائهم، أو تقليدهم لهم؛ فإن السبب الرئيسي في ذلك أن يبقى الجدار العدائي الفاصل بين المعسكرين قائمًا صلبًا فلا يتأثر موقف المسلم المتصلُ باعتزازه بما عنده، ورفضه لما عند أعدائه أبدًا ولا يضعف ولا يلين.

ذلك أن المحاكاة في الظاهر تؤدي إلى المحاكاة في الباطن ولو بعد حين، فالتقليد صلة روحية بين المقلِّد والمقلَّد، ووساطة انتقال لمعتقداته وأفكاره و«أيديولوجياته» إليه، إما بشكل مباشر وعنيف ودفعة واحدة كما حدث في تركيا على يد مصطفى كمال أتاتورك، وإما بشكل تدريجي سريع أو بطيء كما يحدث في كل زمان ومكان بين كل مقلِّد ومقلَّد.

وما دام التقليد يقود إلى محبة المقلَّد لمن قلده، ويؤدي إلى هيامه به وعشقه لكل ما لديه، فإن هذا المقلد بصفته محبًا وهائمًا سيسعى إلى إرضاء محبوبه بأي شيء. والمقلَّد في مسألتنا هذه التي نعيشها - وهو الإنسان الغربي والدولة الغربية والأمة الغربية والكيان الغربي - لن يرضى إلا اتباع هذا «المقلِّد المسكين» لدينه بعد انسلاخه من دينه هو! أجل، لن يرضيه غير ذلك، فهذا ما أكده القرآن الكريم؛ يقول جل شأنه: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ فيستجيب المقلِّد المحب الهائم لرغبة سيده الذي قلده فأحبه، فهام به؛ فينسلخ من دينه هو، ويتبع دين السيد المحبوب. وليس بالضرورة أن يدخل في النصرانية بعد انسلاخه من الإسلام، فحتى السيد المقلَّد قد انسلخ منها، ولكنه يتبع دين مقلَّده الجديد وهو العلمانية واللادينية.

فهل بعد هذا الخطر من خطر؟ وهل أبلغ من هذا الضرر أو أشد فتكًا؟ وهذا المعنى الذي أردت الإفصاح عنه هو ما يشير إليه «ليوبولد فايس» ذلك الأوروبي النمساوي الذي هداه الله إلى الإسلام فأصبح اسمه «محمد أسد» في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» بقوله: «إذا حاكى المسلم أوروبا في لباسها وعاداتها وأسلوب حياتها فإنه يتكشف عن أنه يؤثر المدنية الأوروبية مهما كانت دعواه التي يعلنها، وإنه لمن المستحيل عمليًا أن تقلد مدنية أجنبية في مقاصدها العقلية والبديعية من غير إعجاب بروحها، وإنه لمن المستحيل أن تُعْجَبَ بروح مدنية مناهضة للتوجيه الديني، وتبقى مع ذلك مسلمًا صحيحًا»[1].

(٤) وأخطر ما في أمر انسلاخ الفرد «المهزوم في ذاته» من دينه أن انسلاخه ذاك قد لا يكون بصورة ظاهرة مباشرة فيبقى له اسمه الإسلامي وهويته

(١) ص٨٣.

الإسلامية وانتماؤه الجغرافي الإسلامي، ولكنه منخور من داخله كالشجرة المتمددة الأغصان ذات الأوراق الخضراء، بينما السوس في داخل جذعها ينخر ليل نهار، إننا نسميها شجرة لما نرى من ظاهرها، لكنها في حقيقتها ليست أكثر من أعواد من الحطب التي ستسقط بفعل النخر المستمر ذات يوم إن عاجلاً أو آجلاً.

إن الفرد الذي يعيش مثل تلك الهزيمة في داخله ليس أهلاً لأن يقدم لنفسه فضلاً عن مجتمعه، بله أمته - شيئًا. إنه كمٌّ مهمل، لا يُعْمِلُ فكرًا، ولا يستعمل عقلاً، ولا يحس بكرامة أو عزة تدفعه لأن يضحي من أجل ذلك الشيء الذي يعتز به. إنه يفقد أهم خصائص الإنسان، فأول خصائص الإنسان الذي يستحق هذه التسمية هو الشعور بالذات.

لذلك نفى الله «الإنسانية» عن الكافرين لأنهم مهزومون في ذواتهم أمام تلك الأصنام التي عبدوها أيًا كان نوعها؛ أصنامًا قديمة من الشجر والحجر، أم أصنامًا حديثة من «المادة» و«الحزب» و«الزعيم»، فكل عابد لصنم من تلك الأصنام القديمة أو الحديثة هو مهزوم ذاتيًا أمامه، مستعبد له، محطم الكيان في مقابله، ولأنه كذلك فإنه يفقد صفة الإنسانية؛ لأنه فقد أهم خصائصها، وهي الشعور بالذات، أو الشعور بالكرامة، أو ما نسميه باستعمال العقل. إنه خصيصة التفكير؛ يقول الله عز وجل في ذلك: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إن تلك الهزيمة تقود إلى التقليد الأعمى - كما بيَّنَّا ذلك مفصلاً - والتقليد الأعمى تعطيل لقوى العقل والبصر والسمع، وذلك التعطيل لها مشابهة

للحيوان الأعجم، بل إنه أكثر من المشابهة. إنه نزول عن درك الحيوان الأعجم وهبوط عن مستواه؛ فذلك الحيوان لم يكرم بشيء مما كُرِّم به ذلك الإنسان الذي رفض التكريم الإلهي، وعطل قواه التي أنعم الله بها عليه، وسلك سبيل غيره في ذلة وخنوع وبلاهة طائعًا مختاراً.

(٥) ومن مخاطر هذا الشعور بالهزيمة الذي يلف حياة المسلمين اليوم أنه يُسْلِمُ الفرد المسلم الملتزم بدينه إلى نوع من اليأس القاتل والإحباط المرير، لما يراه من ضياع معالم العزة، وتلبد سماء الأمة بغيوم التبعية، وانعكاس مفاهيم بني قومه ومواطنيه. أجل، ما أشد معاناة الذي يشعر بالعزة بين الأذلاء! وما أمر حياة من يريد الإسلام بين من يريدون الاستسلام! إنها أشبه بحياة الأسير بين الأعداء، بل إنها لأمرُّ كثيراً! إنها كحياة الحي بين مجموعات من الأموات، فلا هو يستطيع نفخ الروح فيهم ليعودوا إلى الحياة، ولا هم بشاعرين بوجوده بينهم مهما علا صراخه وبُحَّ صوته.

ومن صور ذلك الإحباط ما ذكره الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في كتابه «كفاح دين» ضمن الموضوع الذي عنونه بـ«تعليم دميم الوجه» حيث قال عن نفسه وولده: «سألني صديق: أنت عالم تخرجت في الجامع الأزهر من سبع عشرة سنة ولك غيرة بادية على دينك فهل دفعت بأولادك إلى الأزهر ليؤدوا الرسالة التي تقوم بها؟ قلت له: لا، إنني يا صديقي أجنِّب ذريتي المآسي التي لحقت بزملائي وكادت تلفني في أكفاني لولا أن الله لطف بي. لقد دخلت الأزهر وعمري عشر سنين وقضيت فيه خمسة عشر عامًا فلم أكن خلالها طالب علم يتفرغ لتلقي دورسه، بل كنت مقاتلاً في حرب دائمة مع المجتمع والدولة!! كانت الدنيا متجهمة لي، الدنيا الرسمية والدنيا الشعبية، فأما الدنيا الرسمية فإن قوانين الدولة كانت تحظر على أمثالي الالتحاق بالوظائف العامة،

وتجعل المناصب كبراها وصغراها لأبناء «التعليم المدني»، وكان مفروضًا أن جميع الوزارات تزدحم بغيرنا، وتوصد أبوابها في وجوهنا، ويستحيل أن يفلت إلى داخلها أحد منا، والذي بقي لنا بعد ذلك عدة وظائف تافهة لا يكفل راتبها حياة دابَّة.

إلى أن يقول: إن الاستعمار السافر منه والمقنَّع دفع بالأزهر ورجاله إلى مستقبل كالح. فإذا تجاوزت الناحية الرسمية إلى الناحية الشعبية، فإن الفجوة التي حُفِرَت بيننا وبين الناس كانت عميقة، ولا تسلني من حفرها؟ كان كثير من العامة يتعرض لنا بألفاظ السخرية والتهكم، ويرى التندر بملابسنا والتفكه بعمائمنا مسلاة مستباحة. ولما كان أغلب القادرين الواجدين يرفض تعريض أبنائه لمستقبل أسود ويفضِّل الاتجاه بهم إلى التعليم المدني؛ فإن «التعليم الديني» أصبح منتجع الطبقات الفقيرة»[1].

وهذا الذي يتحدث عنه الشيخ الغزالي ثمرة من ثمرات الهزيمة المرة التي تتجرع غصصها، فأولئك المهزومون على المستوى الرسمي يحاربون التعليم الديني ليجعلوه يؤدي برواده إلى المستقبل الأسود الكالح، والمهزومون على المستوى الشعبي يستهزئون بخريجي ذلك التعليم ويتهكمون بهم ويسخرون منهم. وأولئك الخريجون المعتزون بدينهم الملتزمون بإسلامهم في المظهر والمخبر يعانون أشد المعاناة بين هؤلاء وهؤلاء، وفي ذلك خطر ماحق على الفرد بفعل الهزيمة التي يعيشها الرسميون والشعبيون معًا، بل إن صورة الخطر لتتضح لنا أكثر إذا تصورنا ما ستؤدي إليه تلك المعاملة البشعة الرسمية والشعبية للدين ورموز الدين وأهل الدين وطلاب العلم الديني من انهيار

(١) كفاح دين للغزالي ص٢٣٥-٢٣٦.

مقاومتهم، وسقوط معاقلهم، وتحطم قدرتهم على الصمود، وعندها ينتهي كل شيء وتحل الكارثة، وتتحول الهزيمة النفسية إلى تحول كامل للكفر بعد الإيمان، وإلى سيل جارف يقتلع كل ما يمت إلى الدين بصلة أو سبب. ولسنا متشائمين ولكننا حذرون، ولسنا شاكّين في مقوماتنا أو في صدق وعد الله لعباده المؤمنين بالنصر والتمكين؛ حاشا ومعاذ الله أن نكون كذلك، لكنها منَّا صيحةُ النذير بأن هزيمتنا النفسية التي نعيشها خطيرة النتائج على ضوء ما ألمحنا إليه في ثنايا فصول هذا البحث ومباحثه. وحين قلنا: إن التقليد يؤدي إلى محبة المقلَّد للمقلِّد، والمحب يسعى لرضى محبوبه، ومحبوبه لن يرضى بأقل من اتباعه على دينه - حسب إفادة القرآن الكريم - فنخشى أن يحقِّق له هذا المطلب فعلاً وواقعًا وحقاً وصدقًا، فيتنازل عن إسلامه «تنازلاً كاملاً» بعد أن تنازل عنه انهزامًا وتخاذلاً واستسلامًا لذلك المحبوب المقلَّد: «الغرب».

إننا نخشى أن يحدث ذلك كمرحلة ثانية ونهائية لمسلسل الحب والإعجاب والانبهار الذي يمثل المرحلة الأولى. أجل نخشى أن يقع ذلك؛ لأنه إن وقع - لا قدر الله - فهي الكارثة، وهو الطوفان.

ثانيًا: في محيط الأسرة:

أجد من المناسب في بداية الحديث عن أخطار هذه الهزيمة المدمرة في نطاق الأسرة أن أنقل هنا تلك الكلمات المشرقة التي دبجها يراع الكاتب الإسلامي الكبير الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله في كتابه الجيد «حصوننا مهددة من داخلها» في الفصل الذي عنونه بـ «الجنس الثالث»، قال رحمه الله: «وفي الوقت الذي يتجرع فيه الغرب آثار خروج المرأة على فطرتها ووظيفتها، كان بعض كتابنا ومفكرينا ينادون بأن نأخذ في ذلك الطريق الذي انتهى بالغرب إلى ما هو فيه من مشاكل اجتماعية واقتصادية هزت دعائم مجتمعه هزآ عنيفًا

أفقده استقراره واتزانه، وعرَّض سلامته وكيانه لأشد الأخطار. ولقد يبدو للدارس المتأمل أن المرأة لا توضع الآن حيث تدعو الحاجة - صحيحة كانت أو مزعومة - إلى أن توضع، ولكنها توضع لإثبات وجودها في كل مكان ولإقحامها على كل ما كان العقل والعرف ينادي بعدم صلاحيتها له. فليس المقصود بتوظيفها في هذه الأيام سد حاجة موجودة، ولكن المقصود هو مخالفة عرف راسخ، وتحطيم قاعدة قائمة مقررة، وإقامة عرف جديد في الدين وفي الأخلاق وفي الذوق، وخَلق المبررات والمقومات التي تجعل انسلاخنا من إسلامنا وعروبتنا وشرقيتنا أمراً واقعًا، كما تجعل دخولنا في دين الغرب ومذاهب الغرب وفسق الغرب أمراً واقعًا كذلك»[(١)].

(١) وقصدت من نقلي لهذا الكلام الذي لا يحتاج إلى تعليق التنبيه إلى ما أكده رحمه الله من كون إخراج المرأة - التي هي دعامة الأسرة وأساس تكوينها - من بيتها إلى خارجه وتوظيفها بجانب الرجل؛ ليس القصد منه سد حاجة قائمة إليها كما يدعي الانهزاميون دائمًا في بداية تنفيذ مؤامراتهم على المرأة المسلمة، وإنما المقصود من ذلك هو مخالفة العرف الراسخ وتحطيم القاعدة القائمة لإقامة عرف جديد في الدين والأخلاق والذوق، وإيجاد المبررات والعوامل التي تفرض بسياسة الأمر الواقع الانسلاخ من الدين، وتحتم بالسياسة نفسها دخولنا في دين الغرب، إن كان للغرب دين!

فانظر - رعاك الله - مقدار الخطر الذي يهدد حياة المسلمين من جرّاء هذا الأمر الذي يبدو في ظاهره بسيطاً مهملاً، وهو إخراج المرأة المسلمة من بيتها وتوظيفها بجانب الرجل. إنه خطر ماحق مدمر؛ حيث يقصد منه الهازمون

---

(١) ص١١٤.

والمهزومون على السواء أن يقود إلى حتمية الانسلاخ من الإسلام، ثم حتمية الدخول في دين الغرب الذي هزمنا وأذلّنا. وكفى بذلك خطرًا وبلاءً وشرًا مستطيرًا وإثمًا مبينًا.

(٢) ولقد قلنا: إن الهزيمة النفسية عبارة عن انبهار بالغرب وإعجاب به وسير في ركابه واستعداد لتقليده في كل شيء، وقلنا كذلك: إن المنبهر بالغرب يرى بعيني الغرب، ويسمع بأذني الغرب، ويفكر بعقل الغرب، ومعنى ذلك ببساطة أنه امتداد للغرب وجزء مكمل له؛ فهو يرحب بكل ما يأتيه من الغرب، وينفذ ما يطلبه منه الغرب، ويسمح لكل ضلالات الغرب أن تجوس خلال دياره ولو كانت «محاولات تنصيره» التي يسمونها «التبشير»، ولذلك يصفق المبشرون باليدين؛ لأن المرأة المسلمة قد تخطت عتبة دارها. لقد خرجت إلى الهواء الطلق! لقد نزعت عنها حجابها، ولكنهم لا يصفقون لأن المرأة المسلمة قد فعلت ذلك، بل لأن فعلها هذا يتيح للمبشرين أن يتغلغلوا عن طريق المرأة في الأسرة المسلمة بتعاليمهم التبشيرية، ولهذا السبب خاصة أخذ المبشرون منذ أمد يأتون بالنساء المبشرات ليتصلن بالنساء المسلمات، وهم يصيحون: لقد سنحت لنا فرصة جديدة![1].

فانظر إلى هذا الخطر الماحق الآخر على الأسرة المسلمة من خلال آثار الهزيمة النفسية، التي جعلت المسلمين يفتحون قلوبهم وديارهم وبيوتهم لكل مدمر مهلك بما في ذلك «التبشير»!

(٣) لقد تفككت عرى الأسرة في معظم بلاد المسلمين نتيجة للسقوط في حمأة التقليد للغرب الكافر، والانسياق الأعمى وراء كل نحلة ترد منه أو

---

(١) التبشير والاستعمار للخالدي وفروخ ص٢٠٣.

يسبق إليها، ثم نلحق به في تطبيقها، ولقد سبقت الأسرة الغربية إلى التفكك، بل إلى الانهيار الكامل والانعدام التام، فلم تعد هناك أسرة بالمعنى المفهوم بقدر ما بقي نوع من الارتباط المُعرَّض للانفصام في أية لحظة بين رجل وامرأة لا يلتقيان في مقر إقامتهما إلا ساعة أو بعض ساعة من ليل أو نهار، وقد لا يلتقيان أبدًا أوقاتًا طويلة أو قصيرة، فلكل منهما ما يغنيه عن صاحبه.

ولقد كثرت حالات الطلاق كثرة تلفت نظر اللبيب، بل لقد بدأ الآلاف من النساء والرجال يَعْزفون عن الزواج أصلاً لاختلال نظرتهم إلى المقاصد المطلوبة من ورائه؛ حيث قصروها على اللذة الحسية فحسب، وحينئذ وجد الواحد والواحدة منهم أن إنفاق العمر في ارتباط ملزم من أجل هذا المتاع الحسي أمر غير صحيح ما دام أنه سيجد في كل لحظة حضْنًا جديداً، وستجد هي كذلك، فلم الارتباط بواحد أو واحدة؟!

وتبع تفكك الأسرة الغربية وتصدع البيت الغربي الانطلاق المحموم وراء الشهوات البهيمية، فأخذ كل من الرجل والمرأة يعب منها عبًا؛ فامتلأت المحاضن بمئات من الأولاد غير الشرعيين، وانتشرت عمليات الإجهاض السري والعلني في كل مكان من ديار الغرب، وبدأ عقلاؤهم يتصايحون، ولكن بعد فوات الأوان!

ومصدر الخطر على الأسرة المسلمة أن تصل إلى هذه النتيجة المخزية التي تمثل الدمار.

(٤) إن ما يدعو إليه المنهزمون من بني جلدتنا في الديار الإسلامية قديمًا وحديثًا من خروج المرأة من بيتها، وطرحها حجابها، واختلاطها بالرجل في كل مكان، ومشاركتها إياه في الوظيفة العامة ـ سعيٌ نحو تدمير المرأة نفسها وتدمير

الرجل كذلك، بل وتدمير المجتمع كله ومن ثم الأمة في مجموعها.

إن ذلك خطر كبير، وشر مستطير، وما أكثر ما كتب وما قيل عن ذلك، بيانًا وتحذيراً ولفتًا لأنظار أولئك المنهزمين الببغائيين إلى الآثار المدمرة لذلك كله في المرأة الغربية والرجل الغربي والأسرة الغربية والمجتمع الغربي بل والأمة الغربية عامة.

ولفتًا لأنظارهم كذلك إلى الصيحات المتتالية والصرخات المتعاقبة التي يطلقها بين الحين والحين رجال غربيون ونساء غربيات، ممن اكتووا واكتوين بنار المكر اليهودي المقيت والتدبير الشيطاني الخبيث.

ألم يقل رئيس وزراء فرنسا عقب هزيمة بلاده الساحقة من قبل ألمانيا خلال أسبوع واحد: «إن فرنسا هزمها الانحلال قبل الاحتلال»[1]؟!.

وألم تقل «مارلين مونرو» الممثلة الأمريكية التي طبقت شهرتها الآفاق، والتي انتحرت فجأة في لحظة إحساس مرير بالتعاسة كأنثى طبيعية وكأم ـ ألم تقل في الرسالة التي وجهتها إلى فتاة تطلب نصيحتها: «احذري المجد. احذري كل من يخدعك بالأضواء. إني أتعس امرأة على هذه الأرض، لم أستطع أن أكون أمًا، لقد كنت أفضّل البيت والحياة العائلية الشريفة على كل شيء، إن سعادة المرأة الحقيقية في الحياة الزوجية الطاهرة التي هي رمز سعادة الأنثى بل الإنسانية. لقد ظلمني كل الناس، وجعل العمل في السينما مني سلعة رخيصة مهما نلت من السمعة والشهرة الزائفة»[2].

فهل بعد هذا التحذير ـ من امرأة كانت يومًا سيدة «هوليود» الأولى، والتي

(١) أساليب الغزو الفكري للدكتور علي جريشة وزميله ص٨٧.
(٢) مكانك تحمدي لأحمد جمال رحمه الله ص١٢٩.

كانت النساء تنظر إليها على أنها أسعد امرأة في العالم - من تحذير؟! فهل من مُدَّكر؟!

وفي جريدة «استيرن ميل» نشرت كاتبة إنجليزية مقالاً يقطر حسرة وأسى قالت فيه بالحرف الواحد: «إنني أتمنى أن تسير بلادنا على نظام الإسلام، ولأنْ يشتغل بناتنا خوادم في البيوت أو كالخوادم خير لهن وأخف بلاءً من اشتغالهن في المصانع والمعامل التي تذهب بجمال أنوثتهن. ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفة والطهر؛ إذ الخادم والرقيق يتنعمان بأسعد عيش، ويعاملان كما يعامل أولاد البيت، ولا تمس الأعراض بسوء، فما بالنا لا نسعى لجعل البنت تعمل ما يوافق فطرتها الطبيعية من شئون البيت والزوج والولد، وتدع أعمال الرجال للرجال سلامةً لشرفها؟!

ثم تساءلت الكاتبة: ألم تدر أن أكثر أمهات أولاد الزنى من المشتغلات بالمعامل والمختلطات بالرجال في الوظائف والأعمال؟ ولولا الأدوية المسقطة للحمل التي يتناولنها لرأينا أضعاف ما نرى الآن!! وهو غاية الانحدار والانهيار في حضارتنا»[1].

فهل هناك ما هو أكثر صراحة من هذا الكلام الذي تجأر به امرأة إنجليزية من «الأمَّة الهازمة»، تتمنى فيه أن تسير بلادها على نظام الإسلام دين «الأمة المهزومة»؟

إني لا أرى كلامًا من أنثى تعيش المأساة وتتكلم بمنتهى الصدق - أكثر صراحة وصدقًا وواقعية من هذا الكلام، فهل يتعظ «مهزومونا»؟! وهل يذَّكرون؟! وهل يعتبرون؟! ليتهم يفعلون ليجنبوا أنفسهم أولاً ونساءهم ثانيًا

(١) المرجع السابق ص١٤٧.

ومجتمعهم وأمتهم ثالثًا الدمار والمآسي والويلات.

(٥) وأما ما ابتليت به الأسرة المسلمة من استقدام المربيات الأجنبيات، ونخص منهن الغربيات بالذات؛ فهو أمر شديد الخطورة على الأسرة وعلى النشء الذي سيتخرج على أيديهن، فيصنعنه بالشكل الذي يردنه، وعلى الطريقة التي يخترنها. ولا تسل عن ذلك الشكل وتلك الطريقة فإنهما معروفان لدى كل مدرك رشيد!!

ونخلص إلى القول بأن مخاطر هذه الهزيمة الروحية التي أضعفت مقاومتنا وخدرت مركز حواسنا، مخاطر هذه الهزيمة في محيط الأسرة من أظهر المخاطر وأوضحها، ذلك أن أثرها في هذا المحيط الهام يتمثل في «تحرر» المرأة من «بيتها وزيها» ودخولها معتركًا ليست مهيأة لدخوله، ونعني به معترك الحياة الصاخبة في المكتب والمصنع والمتجر والحقل والشارع في البر والبحر والجو، هذا المعترك الذي يناسب الرجل وحده، ولا يناسبها بحال من الأحوال.

وهذا الذي تفعله المرأة من ذلك مؤد إلى جملة من الأضرار التي تتعلق بشخصها هي؛ حيث ستُحمِّل نفسها ما لا قبل لها به وما ستنوء بحمله في يوم من الأيام حين يثوب إليها رشدها فتتمنى العودة إلى بيتها، فيعز عليها ذلك وتعجز عن تحقيقه بعد أن يفوت الأوان.

وأضرار تتعلق بالرجل الذي ستضيعه زوجًا وتضايقه في رزقه عاملاً وموظفًا وتجره إلى الضياع، وتغريه بالفتنة زميلاً أو رئيسًا أو مرؤوسًا.

وأضرار تتعلق بالمجتمع كله حين تتسبب بخروجها ذاك «وتحررها من الحجاب والتزام الآداب»، في انهيار صرح أسرتها التي هي قوام المجتمع فيسرع الانهيار إلى المجتمع كله.

وأضرار تلحق بالنشء الذي سيؤول أمره إما إلى المربيات الغربيات، أو إلى المحاضن التي ستكون المربيات فيها منهن أيضًا، والنتيجة التي سيصل إليها أمر هذا النشء الضائع، بل المضيَّع، واحدة في الحالتين؛ إنها ضياعه وانسلاخه وتحول ولائه وانتمائه إلى معسكر أمه الحقيقية ـ أعني «مربيته الغربية» أو «حاضنته الغربية» ـ وهذه الأضرار جميعًا، سواء ما كان منها متعلقًا بالمرأة أو ما كان منها متعلقًا بالرجل أو بالأسرة، إنما تصب في النهاية في قناة الأمة الواسعة لتكون المحصلة النهائية لها جميعًا بالنسبة للأمة بداية تيه طويلٍ، وضياع أمجاد، وتحطم كيان؛ ذلك أن الأمة مجموعة أسر ومجتمعاتٍ صغيرة، وتلك الأسر مجموعة أفراد من الجنسين، وقد فسد هو، وفسدت هي، وتحطمت الأسرة التي تتكون منهما. فهل يبقى ثَمَّ أمة؟! وإن بقيت فهل ستكون إلا على هامش الحياة؟!

ثالثًا: في نطاق الجماعة والأمة:

قلنا في ختام الأسطر الماضية إن كل تلك المخاطر في محيط الفرد وفي محيط الأسرة إنما تصب جميعًا في قناة واحدة هي الأمة بمفهومها الشامل، وذلك حق لما أوضحناه من أن الأمة كل يتكون من مجموعة أجزاء، فإذا فسدت تلك الأجزاء وتحللت واندثرت أو كادت فهل يبقى ذلك الكل بعد ذلك متماسكًا أو قائمًا أو سالمًا من الخطر الذي داهم أجزاءه؟ ذلك أمر غير متوقع وشيء غير متصور، ويتعارض مع طبائع الأشياء.

وهدم دين الأمة المسلمة في مجموعها والقضاء عليها مطلب يلح عليه أعداؤها ويسعون لتحقيقه؛ فقد قال أ. ل. شاتليه في مقدمة كتابه «الغارة على العالم الإسلامي»: «ولا شك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ولا يتم

لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوروبية، فبنشرها اللغات الإنكليزية والألمانية والفرنسية يتحكك الإسلام بصحف أوروبا، وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها»[1].

وقال غيره مثل ذلك، فهم إذًا يريدون ويخططون «لهدم الفكرة الدينية الإسلامية» هكذا . . هدم . . بصريح العبارة! فهلا قرأ منهزمونا اعترافات الغربيين أنفسهم من مثل هذا بسبق الإصرار والترصد على هدم دينهم والقضاء عليهم، أم أنه لا مانع لديهم من ذلك؟! ثم هلا قرؤوا اعترافاتهم أيضًا بأن سر قوتنا وحفظ كياننا إنما هو بعزلتنا وانفرادنا. تلك العزلة وذلك الانفراد الذي أصبح نسيًا منسيًا وأثرًا من آثار الماضي وذكرى من ذكريات التاريخ، مع أنه ـ وباعتراف الغربيين ـ سبب عزتنا وقوتنا وحفظ كياننا، فحين هدم مستغربونا جدار تلك العزلة، وحطموا ذلك الحاجز النفسي الذي أقامه الإسلام بين الكفر والإسلام، وسعوا إلى «الغرب الكافر الداعر» يتلقون منه ويحتكون به ويتتلمذون على يديه، ذهبت ريح العزة، وتلاشت القوة، وتهدَّم الكيان، وتلك نتيجة طبيعية تلتقي مع سنة الله التي لا تتبدل.

وإن مما يؤسف له كثيرًا أن يكون عدونا أعرف منا بأنفسنا، وأكثر منا إدراكًا لأسباب قوتنا وأسرار انتصارنا وعوامل تقدمنا وارتفاع شأننا وعلو كلمتنا. إنه يعرف جيدًا أن ذلك كله بسبب إسلامنا، وأن ذلك الإسلام هو الحركة الفاعلة المؤثرة الدافعة لطاقات المسلمين للتقدم بوعي وفهم وحذر.

وقد أدرك «الغرب» أن الإسلام لن يستطاع تحطيمه بالقوة المسلحة

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص١٧.

المكشوفة، ولكن ذلك قد يستطاع بالقوة الخفية القائمة على عنصري الإغواء والإغراء. . . وبدأ التخطيط لذلك فعلاً، وأول مراحل الخطة «هدم الحاجز النفسي» أو قل بتعبير «شاتليه» نفسه: «هدم جدار العزلة والانفراد»، فاستدرجونا إليهم باسم «المدنية» و«التطور»، حتى وجد منا من يسعى إلى «تطوير الإسلام» ليوافق «المدنية الغربية»، وإن خففوا العبارة قليلاً فقالوا: المواءمة بين الإسلام والمدنية الغربية.

إن هدم جدار العزلة الإسلامية وانفراد الأمة المسلمة واستقلالها بشخصيتها المتميزة قد جر عليها ويلات كثيرة، بل لقد بدأ في إذابة كيانها شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن من حال تسر العدو وتسوء الصديق.

إن هدم ذلك الحاجز الذي حرص الإسلام على إقامته وتأكيده وطلب من المسلمين المحافظة عليه بمثل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾ [الكافرون: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة: ٥٧]، وقوله جل ثناؤه: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء: ٧٦].

وآيات أخرى كثيرة يقرر الله سبحانه فيها أن ليس هناك إلا معسكران: معسكر إيمان، ومعسكر كفر؛ حزب الله، وحزب الشيطان: ﴿ **أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وفي المقابل ﴿ **أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقد وردت هذه المفارقة وهذا التمييز في سورة واحدة فالآية الأخيرة هي الآية الثانية والعشرون في سورة المجادلة والآية الأولى هي الآية التاسعة عشرة

في السورة نفسها، لقد وردتا شبه متجاورتين ليكون التمييز بين الطائفتين والتفريق بين الحزبين واضحًا كل الوضوح قائمًا في الأذهان في كل حين، وليبقى الجدار بينهما سميكًا قائمًا يفصل بين المعسكرين فلا يختلطان، ولا يلتقيان لقاء مودة ومحبة وولاء.

نقول: إن هدم هذا الحاجز هو الذي قضى على رابطة الإسلام ودولة الخلافة بفعل المؤامرات التي حاك «الكافرون» خيوطها في الظلام أولاً، ثم أكملوا حياكتها في النور بعد أن ضمنوا غشاوة الأبصار، وما كان لهم أن يحيكوها ويقدروا على تنفيذها لولا وجودهم ثغرات في الجدار الفاصل بيننا فتسللوا منها إلينا؛ ومن ثم عملوا على تدميرنا بعد أن أصبحوا بين ظهرانينا بعد أن اطمأننا إليهم ووثقنا بهم وأحببناهم، إن انهيار الحاجز النفسي بيننا وبينهم هو الذي هدم الخلافة وقضى على الجامعة الإسلامية، وأفقدنا فلسطين وفيها ثالث المساجد المقدسة، بل وأفقدنا قبل ذلك كله «أندلسنا الغالية»، وهو الذي جعلنا نسلم فلذات أكبادنا لأعدائنا باسم «التعليم والتدريب وما شابه ذلك» في بعثات بالآلاف المؤلفة ليصنعوهم على أعينهم فيعودوا إلينا ليكملوا مهمة «معلميهم ومدربيهم» في هدم ما تبقى من «الفكرة الدينيَّة» التي يريد «شاتليه» وأحزابه هدمها والقضاء عليها.

الحاجز النفسي يا قوم جدار أقامه الله بين أوليائه وأعدائه، بين المؤمنين والكافرين؛ فلا يجوز هدمه ولا ينبغي فتح أية ثغرة فيه، إنه كالسد الكبير الضخم الذي يحجز المياه، لو عبث فيه عابث ففتح فيه ثغرة لدمر ما وراءه من بلاد بمن فيها، فما بالك لو هدم السد كله؟! هل يُبْقي أخضر أو يذر يابسًا؟ إنه كالسفينة لا يجوز خرقها، فلو خرقت لغرقت لا محالة.

وأعجب ما في الأمر أن الكفار كانوا في فترة ضعفهم وقوتنا أحرص منا

اليوم - في فترة ضعفنا وقوتهم - على بقاء هذا الحاجز وعدم هدم ذلك الجدار الذي كان بيننا وبينهم، فرغم بطلان عقيدتهم وضعف الأسس التي يقوم عليها دينهم، ورغم شدة حاجتهم إلى علمنا وتقدمنا آنذاك - كانوا يُحَذِّرون شبابهم الذين يأتون للتعلم لدينا من أن يتأثروا منا بعقيدة أو دين، أو ينزعوا إلى التشبه بنا في أي شيء.

ألم أقل لك إن الأمر جد عجيب؟! يقول الدكتور طه جابر فياض العلواني في مقدمة تحقيقه لرسالة «النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار» من تأليف العلامة الشيخ مصطفى بن محمد الورداني ما نصه: «حينما كانت البعثات الطلابية النصرانية تفد إلى ديار الإسلام وحواضره لتلقي العلم رغمًا عن رجال الكنيسة، كان ذوو هؤلاء الطلاب ورجال الكنائس التي يتبعونها يبذلون كل جهودهم لوضع حواجز نفسية في نفوس هؤلاء الطلاب وعقولهم تحول دون تأثرهم بالفكر الإسلامي وبحياة المسلمين. ولقد بلغ من حرص الكنيسة على هذا أنها أصدرت قرارًا كنسيًا تقول فيه: إن هؤلاء الشبان الرقعاء الذين يبدءون كلامهم بلغات بلادهم ثم يكملون كلامهم باللغة العربية لنعلم أنهم تعلموا في مدارس المسلمين، هؤلاء إن لم يكفُّوا عن ذلك فستصدر ضدهم قرارات حرمان»[١].

فما أشد الفرق بين أهل الكفر وأهل الإسلام، بين أهل الباطل وأهل الحق، أولئك يحولون بين قلة من شبابهم وبين التأثر بحقِّنا ويهددونهم لمجرد استعمالهم كلمات من لغتنا بالحرمان من الكنيسة والطرد من الدين والإخراج من الملة، ونحن نرسل شبابنا بالآلاف المؤلفة، فلا نكترث بمسألة تأثرهم بباطل أولئك أدنى اكتراث. إننا نرسلهم وكأننا نرسل أكوامًا من الدجاج! عجبي!!

---

(١) ص١١.

(٢) أرأيت هذه الأخطار ما أشدها وما أفظعها، إنها كلها نتاج الهزيمة النفسية وسقوط الحاجز النفسي وتهدم جدار العزلة بين الإسلام والكفر، وهناك أخطار أخرى تحيق بالجماعة المسلمة والأمة المسلمة على نطاق أوسع من جراء الذوبان في الحضارة الغربية والانهزام أمامها، وتتمثل تلك الأخطار في خطر كبير مدمر يشملها جميعًا هو التحول عن الإسلام بمحض الإرادة وبشكل لا يلفت الأنظار غالبًا. يقول محمد أسد في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»: «ولكن الشيء الذي لا يستطيع المسلمون أن يتمنوه هو أن ينظروا بعيون غربية ويروا الآراء الغربية، إنهم لا يستطيعون أن يتمنوا - إذا أرادوا أن يظلوا مسلمين - أن يتبدلوا بحضارة الإسلام الروحية تجارب مادية من أوروبا»[١].

فلا يمكن استبدال هذه بتلك ويظل المستبدل مسلمًا أبدًا.

(٣) وكان من أخطار المدنية الغربية في حياة المسلمين إعراض الناس عن السنة. إن حياة التفرنج التي يحياها المسلمون اليوم حالت بينهم وبين الأخذ بأسباب السنة السمحاء؛ لأنها لا تتفق مع أهوائهم، حتى العلماء الذين يعرفون السنة حق المعرفة أثرت فيهم البيئة التي يعيشون فيها فأخرجوا لنا فقهًا لا تربطه رابطة بكتاب الله ولا بسنة رسوله ﷺ[٢]. فانتشار المدنية الغربية بين المسلمين يخلق بيئة أخرى لا تتقيد باتباع السنة، ليس ذلك فحسب، بل وتحمل العارفين بها على تأويلها بما يتفق مع هذه المدنية الفاسدة[٣].

---

(١) ص٧١.

(٢) مؤامرات ضد الأسرة المسلمة - محمد عطية خميس ص٢٦.

(٣) المرجع السابق ص٢٨.

(٤) وهذا الخطر العظيم المتمثل في إعراض الناس عن السنة نتيجة تأثرهم بالغرب وذوبانهم فيه واستسلامهم له يشير إليه «محمد أسد» موضحًا سببه الحقيقي فيقول: «إن السبب يرجع إلى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة، وبين روح الإسلام الصحيح كما يظهر في سنة النبي في نظام واحد»[1].

إلى أن يقول بعد ذلك بشيء من التفصيل: «وفي هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدنية الغربية في البلاد الإسلامية[2] نجد سببًا جديدًا يضاف إلى الموقف المستغرب الذي يقفه من نسميهم «متنوري المسلمين» من هذه القضية؛ ذلك هو قولهم: إنه من المستحيل أن نعيش على سنة النبي ﷺ وأن نتبع الطريقة الغربية في الحياة في آن واحد. ثم إن الجيل المسلم الحاضر مستعد لأن يُكْبِرَ كل شيء غربي، وأن يتعبد لكل مدنية أجنبية؛ لأنها أجنبية ولأنها قوية وبراقة من الناحية المادية. هذا التفرنج كان أقوى الأسباب التي جعلت أحاديث النبي ﷺ، وجعلت جميع نظام السنة معها لا تجد قبولاً في يومنا هذا.

إن السنة تعارض الآراء الأساسية التي تقوم عليها المدنية الغربية معارضةً صريحة، حتى أن أولئك الذين خلبتهم الثانية لا يجدون مخرجًا من مأزقهم هذا إلا برفض السنة على أنها غير واجبة الاتباع على المسلمين؛ ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها. وبعد هذه المحاكمة الوجيزة يصبح تحريف تعاليم القرآن الكريم ـ لكي تظهر موافقة لروح المدنية الغربية أكثر سهولة»[3].

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص٩٧.

(٢) لقد ألف كتابه في حدود ١٩٤٦م فلو رأى بلاد المسلمين اليوم ماذا تراه يقول؟!

(٣) الإسلام على مفترق الطرق ص٩٧ ـ ٩٨.

فخلاصة هذا الخطر محاولة إخضاع السنة للمدنية الغربية، وهو طريق سيؤدي في النهاية إلى إخضاع القرآن ذاته لها، وهو شيء في منتهى الخطر، بل هو الخطر ذاته والكفر عينه!

(٥) ومن الأخطار التي تحيط بالأمة كلها حين يستسلم طوائف منها لفكر غير فكرها ومناهج غير مناهجها وأنظمة غير أنظمتها، ما عبر عنه أحد كبار المؤرخين بقوله: «لقد علمتنا التجارب أن المقلّدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وتكون أفئدتهم مهبط الدسائس نتيجة لتعظيم الذين قلدوهم، ويكون هؤلاء المقلّدون طلائع الجيوش الغالبة وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ويثبتون لهم الأقدام، ويمكّنون السلطان»[١].

(٦) ومن أعظم أخطار هذه الهزيمة النفسية والروحية على الأمة أنها تحول دون قيام وحدة فكرية بينها تكون سبيلاً ومصدراً لوحدتها العامة، وذلك بما تستقبله طوائف الأمة في دور انهزامها من عشرات المذاهب والدعوات التي تبلبل العقل وتشل التفكير، وبما تستجيب له من تجميد الفوارق الثقافية والاقتصادية بين أجزائها مما يحول دون قيام وحدتها[٢].

(٧) وأخيراً اقرأ معي ما سطره يراع فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين عن دور الانهزاميين زائفي العقيدة من أبناء الأمة، في فتنتها عن دينها، وتقطيع حبل اتحادها، وانتهاك حرمات شريعتها إلى آخر ما ذكره من آثارهم المدمرة

(١) الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي لأنور الجندي ص١٨٧.
(٢) المرجع السابق بتصرف ص٢٢٤.

لأمتهم - يقول رحمه الله: «ودلت التجارب على أن زائغ العقيدة متى ملك جاهًا أو سلطة فتن الأمة في دينها وانتهك حرمات شريعتها، ولم يخلص النظر في إصلاح أمرها، ولاقى منه المؤمنون اضطهاداً، والجاحدون أصحاب الأهواء مناصرة وإقبالاً، فيكون داعيًا عمليًا إلى الخروج على الدين، فتموت الفضيلة والغيرة على الحقوق العامة، ويتقطع حبل اتحاد الأمة إربًا»[١] .

* * *

(١) رسائل الإصلاح ج١ ص١٠١.

الفصل الثاني

أسباب الظاهرة وعوامل تكوينها

الفصل الثاني

أسباب الظاهرة وعوامل تكوينها

المبحث الأول

أسباب وعوامل ذاتية

لقد كان لبروز هذه الظاهرة موضوع البحث أسباب عديدة ساعدت على إيجادها أولاً، ثم على تكريسها وتعميقها في واقع الفرد المسلم والمجتمع المسلم والأمة المسلمة ثانياً.

وهذه الأسباب منها ما هو ذاتي ينبع من داخل النفس، ومنها ما هو خارجي أملته ظروف خارجية أو صنعته قوى خارجية كذلك، ولقد تناول معظم من كتب عن هذه الظاهرة تلك الأسباب بالبيان والتحليل والدرس. ولكل منهم نظرته الخاصة حول تلك الأسباب سواء منها الداخلية أو الخارجية؛ فما يراه أحدهم قد لا يراه الآخر، وما يراه اثنان أو أكثر سبباً قد يختلفان أو يختلفون في طريقة تحليله وفي النظرة إليه من حيث الأهمية وعدمها.

وفي يقيني أن كل سبب من تلك الأسباب الرئيسية الكبرى لهذه الهزيمة يحتاج إلى بحث مستقل، بل يتطلب كتاباً كاملاً لتحليله ودراسته دراسة عميقة متأنية تتناول نشوءه، والظروف التي أحاطت بنشأته، ومدى عمق ارتباطه بهذه الظاهرة الخطيرة كسبب ومسبب. فدراسة أمهات الأسباب بهذه الكيفية وعلى

هذا المستوى من الدقة والشمول والعمق كفيل بإبطال مفعول تأثيرها واكتشاف العلاقة بينها وبين ما تعانيه أمتنا من آثار هذه الظاهرة المدمرة، وهو خطوة لابد منها في طريق علاج تلك الظاهرة وإزالة آثارها، لكن القيام بهذا العمل الضخم يحتاج إلى إسعاف الوقت، وتوافر العزم، ووفرة إمكانات كثيرة يتطلبها البحث.

لكنني في الوقت الذي أجزم فيه بالحاجة الماسة إلى ذلك أرى ضرورة الإشارة إلى أهم تلك الأسباب في بحثنا هذا بعد أن بينا خطر الظاهرة ـ موضوع الحديث ـ، وتحدثنا قبل ذلك عن مظاهرها في عدد من مجالات الحياة.

والأسباب التي ساهمت في إيجاد هذه الظاهرة كثيرة ومتشعبة كما أسلفنا غير أننا سنحاول الوقوف عند بعض الأسباب الكبرى الجامعة التي نعتقد بقوة تأثيرها في هز كيان الأمة من جهة، وقوة ارتباطها بهذه الظاهرة وشدة تعلقها بها تعلق المؤدِّي بالمؤدَّى إليه وارتباط السبب بالمسبَّب من جهة أخرى، مشيرين إلى ما ذكرنا في صدر هذا المبحث من أن من تلك الأسباب أسبابًا داخلية مصدرها الأمة ذاتها، وأسبابًا أخرى خارجية لا دخل للأمة في صنعها ولا يد لها في نشوئها وإنما فرضت عليها فرضًا.

وسنبدأ بذكر الأسباب الداخلية فنقول مستعينين بالله تعالى:

٥٥ تعطيل الشريعة الإسلامية وتحكيم القوانين الوضعية:

هذا سبب جوهري لما يعانيه المسلمون في العصر الحاضر من هزيمة نفسية مروعة، بل إنه السبب الجامع لغيره من الأسباب؛ إذ إن فهم الشريعة والاحتكام إليها ممثلة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ مصدر كل خير ومنطلق كل رشد، ولو أن المسلمين ظلوا متمسكين بشريعتهم عاضين عليها بنواجذهم لما أصابهم

ما أصابهم، ولكن غيروا فغيَّر الله عليهم مصداقًا لقوله تبارك وتعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

لقد كان المسلمون بتمسكهم بتلك الشريعة سادة الدنيا وقادة العالم بعد أن كانوا قبلها نسيًا منسيًا لا قيمة لهم ولا وزن ولا كيان، وامتن الله عليهم بهذه النعمة السابغة المتمثلة في بعث رسوله منهم وإنزال كتابه عليهم بلغتهم واختيارهم ليكونوا الأمة الوسط الشهيدة على الأمم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

هذا القليل الذي ساد فيما بعد ودوَّخ امبراطوريتي فارس والروم، بم ساد وبم دوَّخ؟ أليس بهذا الإسلام العظيم الذي من الله به عليه وأكرمه به؟ بلى به وحده ساد وقاد وشرَّق وغرَّب، فماذا تكون الحال إن رفض المنعَم عليه (بفتح العين) النعمة واختار بديلها عليها؟ ألا يكون الشيء الطبيعي أن يعود إلى حالته الأولى التي سبقت الإنعام عليه؟ بلى أيضًا فذلك هو الذي يلتقي مع طبيعة الأشياء. وفعلاً عاد أدراجه إلى حالته الأولى ذليلاً قليلاً - رغم كثرته الشكلية - مستضعفًا يخاف أن يتخطفه الناس. ذلك هو واقع المسلمين اليوم نتيجة هجرهم للقرآن وإعراضهم عن سنة محمد بن عبد الله ﷺ، وتعطيلهم لشريعتهم الخالدة واستعاضتهم عنها بقوانين الكفر المستوردة من كل مكان.

٭٭ إهمال العلوم العملية والمعارف الكونية:

هذا سبب رئيسي فيما آل إليه أمر الأمة الإسلامية من ضعف علمي أدى

إلى شعورها بالإحباط والعجز، ومن ثم الانهزام الروحي أمام الغرب الذي تفوق عليها في هذا المجال.

فقد أهمل المسلمون منذ زمن بعيد جانب العلوم التطبيقية العملية ووقفوا عن المضي في الدرب الذي اختطه أسلافهم الميامين ممن تتلمذت أوروبا على أيديهم فيما بعد؛ حيث خرجت من ظلامها الدامس مستضيئة بنور الحضارة الإسلامية والعلوم الإسلامية المتقدمة يومذاك، بينما اكتفى المسلمون منذ ذلك التاريخ بفلسفات عقيمة وعلوم سقيمة، يصرفون فيها أوقاتهم، ويضيعون فيها جهودهم، لنضوب معين علومهم، وجمود قرائحهم وعقولهم، وعجزهم عن الاجتهاد والتفكير وقوة الاكتشاف والإبداع، ولما مُني به علماؤهم من جمود وركود، فلا يضيفون للعلم جديداً، ولا يفتحون للعقل أبوابًا، ولا ينظرون في علوم الطبيعة والكون[1]، وإنما قصاراهم شروح وحواش يذيلون بها ما كتبه أسلافهم حتى طغت الشروح على المؤلفات وزادت الحواشي على المتون.

إنك في قرون عديدة مرت على المسلمين لا تكاد تعثر على أثر فكرة مبتكرة واختراع مبتدع واكتشاف جديد، ولذلك طرأ علينا جمود فكري وغشيت أجواءنا العقلية سحابة سوداء من العقم والتبلد[2]، ولقد نشأ عن هذا السبب الرئيسي الجامع أسباب صغرى نجملها فيما يلي:

*** جمود الفقه الإسلامي وانسداد باب الاجتهاد:**

فإن ذلك النضوب الفكري والأفول العلمي أدى إلى هذه الجزئية

---

(١) إلى الإسلام من جديد للندوي بتصرف ص١٣٠.

(٢) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم للمودودي ص١٣٨.

الخطيرة، وهي جمود الفقه الإسلامي ووقوفه حيث هو؛ لموت قدرة علماء المسلمين على الاجتهاد وإيجاد الحلول الناجعة لكل ما يستجد من قضايا، حتى جاء الاحتلال الثقافي الغربي والمسلمون على هذه الحالة المزرية، فكانوا مهيئين لقبول التهم التي أخذ أعداؤهم يوجهونها للفقه الإسلامي، وأنه عاجز عن مسايرة الحياة جامد متخلف، ثم التهمة الأخيرة بأنه لم يكن هناك فقه إسلامي أصلاً، فالفقه الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني!!

*** أفول الفكر الإسلامي:**

ترتب على ذلك الإهمال لعلوم الطبيعة والمعارف الكونية وجمود قرائح المسلمين وعقولهم أفول لشمس الفكر الإسلامي، التي كانت ساطعة قد أشرقت أنوارها حتى عمت أوروبا كلها فأنارت لها الطريق وبددت سحب ظلامها، فقد كان الفكر الإسلامي في العصور الإسلامية الأولى حياً نشطًا حافلاً بالإبداع والتجديد والحيوية، وظل كذلك إلى أن أخذ المسلمون يستمدون مناهج تفكيرهم من غير أصولهم الإسلامية الصافية، فأخذوا بالفلسفة والسفسطة والجدل، وكثر اعتمادهم على التقليد المذهبي، ووقع كثير منهم في الطرق الصوفية المتطرفة التي تشل الفكر وتغلق الفهم وتعزل الفرد عن واقع الحياة الإيجابية؛ فأصيب المسلمون بالخمول الفكري؛ ومن ثم بالفراغ الفكري، مما أوجد لديهم القابلية للتقليد الأعمى[(١)] والهزيمة النفسية عند أول هزة.

*** تخلف المسلمين في مجال العلم التجريبي:**

لعل من مكرور القول الحديث عن ذلك التقدم العلمي الهائل الذي حققه علماء المسلمين في مجال الطبيعيات في عصور الازدهار العلمي لديهم، فما

---

(١) التقليد والتبعية ـ ناصر العقل ص١٠٧.

خلفه علماؤهم الكبار في ذلك دليل صادق وشاهد عيان. لكن ذلك التقدم لم يستمر فقد خلف من بعدهم خلف تنكبوا سبيلهم وحادوا عن طريقهم ولم يتابعوا السير على منوالهم، وإنما وقفوا حيث هم واكتفوا بالافتخار بما فعله أولئك، في الوقت الذي صَحَتْ فيه أوروبا من رقدتها ووضعت أقدامها على طريق أولئك العلماء فتتلمذت عليهم وأفادت منهم ثم واصلت السير على خطهم وتجاوزت رحلتهم وتقدمت في هذا السبيل وانطلقت إلى آفاق واسعة ومجال رحب لا يحد، وكأنها تحقق بذلك مضمون قول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

*** انتشار الجهل والأمية الدينية:**

وتصوَّرْ وجود إهمال للعلوم الكونية وتخلف في العلم التجريبي المادي، وتجميد للفقه، وأفول للفكر، ونضوب معين الاجتهاد، وانغلاق بابه، وجمود القرائح وتيبس العقول... تصور ذلك كله ينيخ بكلكله على مجتمع من المجتمعات أفتبقى فيه كوَّة نور أو مدخل لشعاع؟ لقد أدى هذا الخليط من عوامل الجمود والتخلف إلى انتشار الجهل والأمية الدينية، فوجدت الخرافة ميدانًا خصبًا لتعشش فيه، فكثرت الطرق الصوفية القائمة على استغلال البسطاء والجهال، وسادت الشعوذة، وأصبحت العبادات طقوسًا تُؤدَّى وقد اختلط فيها الصحيح بالسقيم، وغلبت عليها المبتدعات والمحدثات، وأصبح العلم الحقيقي أندر من الكبريت الأحمر كما يقولون.

*** الاعتماد على كتابات المستشرقين في إثبات الوقائع ودراسة التاريخ:**

ونظرًا لامتداد جانب التخلف العلمي عند المسلمين إلى علم التاريخ ومناهجه وأساليب كتابته ودراسته ونقده؛ فقد وجدوا أنفسهم وقد بلغ بهم

الضعف مبلغه عاجزين عن كتابة تاريخهم الوقائعي والعلمي حسب المنهج العلمي المطلوب لذلك، وقد استغل الغربيون ذلك الضعف والعجز في المسلمين فتولوا هم كتابة تاريخ المسلمين وألفوا الموسوعات الضخمة التي وجد المسلمون أنفسهم مضطرين لاستخدامها والاعتماد عليها منذ زمن بعيد، وهي مؤلفات تحتل مكانة (الكتاب المقدس) في موضوعها (عند واضعها)؛ فإن كتبًا مثل تاريخ آداب العرب لـ«نكلسن»، وتاريخ العرب والإسلام للدكتور «حتى»، وكتاب تاريخ الآداب العربية لـ«بروكلمان»، وكتاب مصادر الفقه الإسلامي لـ«شاخت» ـ تعتبر فريدة في موضوعها ومصدرًا علميًا له أهميته وقيمته في جامعات الشرق الإسلامي ـ وعليها اعتماد المؤلفين في الأقسام الإسلامية في الجامعات[١].

إن «دائرة المعارف الإسلامية» التي ألفها المستشرقون ولو كان فيها لبعض المسلمين إسهام ضئيل، وصدرت منها طبعات متعددة في أوروبا وأمريكا ـ تعد أكبر مصدر للمعلومات والحقائق الإسلامية وأثمن ذخيرة لها، وتعتبرها بعض البلاد الإسلامية اليوم كمصر وباكستان أساسًا للمعلومات الإسلامية وتقوم بترجمتها إلى العربية والأوردية[٢].

ومكمن الخطر في هذا الاعتماد على كتابات المستشرقين هو ما تطفح به كتاباتهم من روح العداء والحقد الدفين على الإسلام وكتابه ونبيه عليه الصلاة والسلام، ومن روح التبشير ومرارة ذكريات الحروب الصليبية، وما يلاحظ عليها من التعصب ضد الأتراك المسلمين والرغبة الجامحة في الانتقام منهم مما

(١) المسلمون تجاه الحضارة الغربية للندوي بتصرف ص٤٣.

(٢) المرجع السابق ص٤٤.

يجعلهم نتيجة هذه الأوضاع النفسية التي لديهم يقلبون الحقائق ويغالطون، ويحاولون الإساءة عامدين إلى الإسلام، مغلّفين إساءتهم تلك بروح البحث العلمي النزيه، فيظن الجاهل بحقيقة الإسلام صدق ما كتبوا، وما هو في حقيقة الأمر إلا الكذب والدس والافتراء المكشوف. فالتخلف العلمي الذي أصاب المسلمين أوقعهم في حال لا يحسدون عليها، وجعلهم عالة على أعدائهم حتى في تاريخهم هم أنفسهم؛ إذ أصبحوا يستقون معلوماتهم عنه من كتب المستشرقين، وفي ذلك ما يكفي للدلالة على الهزيمة النفسية الغالبة والاستسلام الروحي المشين.

٥٥ فقد الاستقرار النفسي والفكري لدى المسلمين:

وهو سبب أدت إليه أسباب أخرى كثيرة زلزلت حياة المسلمين وكانت كالصواعق المتتابعة عليهم وأثارت فيهم ألوانًا من الاضطراب في النفوس والأفكار؛ فقد مُنُوا في أعز ما كان لديهم وهو خلافتهم الإسلامية التي كانت رمز وحدتهم ومتعلّق رجائهم بعد الله سبحانه حيث شاهدوها تسقط كالقتيل المضرَّج بدمائه، بعد أن كانت ملء سمع الدنيا وبصرها يوم دقت جيوشها الظافرة أبواب «فيينا».

ثم شاهدوا الأمم الأوروبية التي كانت تخطب ود الدولة الإسلامية والخلافة الإسلامية تتسابق إلى اقتسام تركة الرجل المريض على حد تعبيرهم، وتوزع بلاد المسلمين التي مات حاميها وحارسها فتختار كل أمة منها ما يحلو لها من أرض الإسلام، ثم شاهدوا تلك الأمم الأوروبية وهي تنهض نهضات أعجب من العجب نفسه في سرعة رهيبة وانطلاق لا يتوقف، فدخلت أولاً عصر البخار، ثم دخلت أخيراً عصر الفضاء. ثم زرعت وسط بلادهم وفي مكان مقدس لديهم شرذمة من ألد أعدائهم وأشنأ خصومهم، فشاهدوا اليهود

وهم (يُعْطَون) فلسطين من قبل الدولة المنتدبة عليها آنذاك (بريطانيا) فيدخلونها ومعهم الظلم والقهر والتبجح والاستعلاء.

أفرأيت هذه الأسباب جميعًا ومثلها كثير تُبْقي على جَلَد أو بقية من طمأنينة نفس أو مسكة من عقل؟ إن واحدًا منها كاف في زعزعة طمأنينة النفس وسلامة العقل والحواس، فكيف وقد حدثت جميعًا وتتابعت حتى لكأنها عقد منفرط؟![1].

إنني لا أبرر بهذا للهزيمة التي حلت بالأمة من جراء ذلك، ولا أجيز لنا أن ننحني للعاصفة مهما تكن شدتها، ولكنني أرجع الأمر هنا إلى الطبيعة البشرية القائمة على التأثر والتأثير؛ حيث تأثرت الأمة في مجموعها بهذه الهزات العنيفة، فشوشت فكرها، ولاثت نفسيتها، وأبدلتها قلقًا واستكانة وعجزًا بما كانت عليه من استقرار نفسي، وطمأنينة قلبية، وشعور بالقوة.

○○ اختلال ميزان الأخلاق والفضائل عند المسلمين:

إن للخلق والفضيلة ميزانًا واحدًا لا يتغير في الإسلام؛ فالخير خير أبدًا، والشر شر أبدًا، والفضيلة تبقى فضيلة إلى يوم القيامة والرذيلة كذلك.

هذا ما جاءت به شريعتهم، وما حدده منهاجهم، وما يعتبر عاملاً من عوامل تميزهم على غيرهم واستقلال شخصيتهم عن سواهم، فهل بقي ذلك الميزان الخلقي على ما هو عليه لدى المسلمين؟ لا سبيل إلى الافتئات على الواقع والإجابة بنعم؛ لأن الواقع خلاف ذلك؛ حيث تغيرت نظرة المسلمين إلى الأخلاق، وتأثرت بنظرة غيرهم إليها، ونشأ ذلك التغير في ذلك الجو الذي

---

(١) انظر في هذا «من المسئول عن تخلف المسلمين» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص٤٥ - ٥٠.

وصفناه بالظلام الشديد من جمود للعقل، وتوقف عن الإبداع والإضافات العلمية الرصينة، وتفشي الأمية الدينية، وغلبة الأهواء والبدع والخرافات. إنه جو مظلم يساعد على اختلال الموازين، ويؤدي إلى انعكاس المفاهيم وعمى الألوان.

بل لقد وصل اختلال الموازين الخلقية في زماننا هذا إلى حد حين يصل الأمر إليه يصبح خطيراً جداً؛ حيث يفقد فيه كل شيء قيمته، ويأخذ كل شيء صفة غيره، إنها مرحلة اختلاط الأوراق وضياع السمات؛ حينذاك يصبح الأبيض أسود والأسود أبيض، أعني يصبح الخير شراً، والشر خيراً، والفضيلة رذيلة، والرذيلة فضيلة وهكذا.

ولكي أؤكد وقوع ذلك الاختلال بالدليل القاطع؛ فإنني سأختار أمراً واحداً - كمثال - هو السفور والتبرج، لنرى كيف كنا ننظر إليه في الماضي وكيف أصبحنا ننظر إليه الآن، فأنقل لك هنا وصفًا لما حدث من المسلمين في مصر حين دخلها نابليون بونابرت - قائد الحملة الفرنسية المشهورة - تأذيًا منهم لمرأى النساء الفرنسيات الكاسيات العاريات في شوارعهم وطرقاتهم؛ لأنهم يرون ذلك (انحلالاً) ويعدونها (جريمة خلقية بشعة)، ويعتبرونه موجبًا للثورة والإنكار والاعتراض ولزوم التغيير.

إني أنقل لك هنا ما ذكره محمد عطية خميس عن ذلك في كتابه «مؤامرات ضد الأسرة المسلمة» قال: «حينما دخل نابليون بونابرت البلاد المصرية على رأس جيش عرمرم كبير لم تكد ترتاح وتطمئن جيوشه قليلاً حتى بدأت تقيم حفلات الظفر والانتصار، وخرج الفرنسيون إلى الشوارع والطرقات بصحبة زوجاتهم الفرنسيات، وهن - كما نعرف - عاريات أو شبه عاريات. لم تكد تقع أنظار المصريين على أولاء الفرنسيات بهذه الأوضاع الداعرة؛ حتى قالوا في أنفسهم: ويل لهؤلاء الفرنسيين، إنهم يريدون أن يفسدوا علينا بيوتنا حتى ينتقل

فسق نسائهم إلى نسائنا، إنهم يفتنوننا بالمدنية الغربية . . . مدنيَّة العري والإباحة والفجور . إن رضانا بخروج الفرنسيات على مرأى من أنظارنا بهذه الأوضاع، معناه الخطر الأكبر الذي يهدد أخلاقنا ونفوسنا وأرواحنا وبيوتنا، وإن رسول الله ﷺ قال : «**ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء**».

وما أن سرى ذلك الخاطر الكريم في قلوب المصريين حتى صدرت الأوامر من العلماء بأن تقام المتاريس في الشوارع والحواري والأزقة، وأن تخرج القاهرة على بكرة أبيها في ثورة جارفة ضد الفرنسيين الكافرين، وكان أول أسباب الثورة ـ كما يحدثنا التاريخ ـ هو خروج الفرنسيات إلى الشوارع وهن سافرات كاسيات عاريات . لقد عزت عليهم أعراضهم فعزت عليهم رجولتهم وكرامتهم»[(١)] .

كما أنقل لك أيضًا ما نقله الأستاذ محمد قطب في كتابه القيِّم «هل نحن مسلمون» في معرض حديثه عن الفارق بين تأثير الحروب الصليبية والحملة الفرنسية الحديثة على المسلمين، يقول واصفًا حال المسلمين ونظرتهم إلى الصليبيين الغزاة : «وكانوا ينظرون إلى الجيوش الغازية ـ مهما كانت قوتها وعدتها وعتادها ـ على أنها مجموعة من البرابرة المتأخرين الذين لا يعرفون الله حق معرفته، ومن ثم فهم مخلوقات أدنى منهم ولو خدمتهم ظروف المعركة فترة من الوقت وغلَّبتهم على المسلمين .

وكانوا يندون تنديداً عنيفًا بتقاليدهم المنحلة وأخلاقهم الفاسدة، وكان من أشد ما ذكره المقريزي في التنديد بهم : أنهم قوم فاقدو الرجولة، فتجد الواحد منهم يصحب امرأته في الطريق حاسرة الوجه والصدر والذراعين، فيقابلهما صديق لزوجته فيتنحى الزوج ليترك امرأته وصديقها يتبادلان الحديث، حتى إذا انتهيا عاد فتأبط ذراعها وسار في الطريق .

---

(١) ص٦٠ .

وكان هذا بطبيعة الحال دنسًا وانحلالاً خلقيًا في نظر المسلمين وفُقدانًا لمعاني الشرف في ذلك المجتمع الغربي، لا يسيغونه هم ولا يكادون يتصورون أنه ممكن الحدوث. فانظر كيف انقلب الميزان في نفوس المسلمين بعد ذلك فصاروا يرون هذا الدنس تقدمًا ورقيًا وروحًا اجتماعية عالية»[١].

ولك أن تستوحي من هذين الخبرين دلالتهما العميقة التي يأتي في مقدمتها - وأنت تشاهد أوضاع المرأة المسلمة اليوم - صدق ما قلناه من تبدل قانون الأخلاق عند المسلمين واختلال ميزان الفضيلة والرذيلة، فأنت ترى كيف كانوا ينظرون - وفي الماضي القريب - إلى سفور المرأة وتهتكها وتبرجها، كانوا يعدونه خطرًا أكبر يهدد أخلاقهم ونفوسهم وأرواحهم وبيوتهم، فكيف ينظر المسلمون اليوم إلى الأمر ذاته والشيء عينه؟ أهي النظرة ذاتها أم أنها قد تبدلت؛ فما كان بالأمس رذيلة أصبح اليوم - إن لم نقل فضيلة - شيئًا مستساغًا وعاديًا لا يلفت نظرًا ولا يثير ساكنًا! وذلك ما نقصده باختلال موازين الأخلاق. أجل والله لقد اختل ذلك الميزان عند المسلمين اختلالاً عجيبًا، بلغ إلى حد أن ذلك الشيء الذي تسبب في ثورة عارمة ونقمة عامة في الماضي القريب؛ أصبح مظهرًا للمدنية ودليلاً على التقدمية وسلوكًا عصريًا لا يأباه إلا المتخلفون.

وانظر واعجب كيف كانوا يخافون إفساد الفرنسيات لنسائهم وأن يسري فسقهن إليهن، وقارن وضع نساء المسلمين الحاضر بذلك يظهر لك صدق مقولتنا في اختلال موازين الفضيلة والأخلاق عند المسلمين؛ فالفسق الذي كان المسلمون المصريون يخشون سريانه من الفرنسيات إلى نسائهم أصبحت نساؤنا اليوم تصدِّره للفرنسيات وغير الفرنسيات، لقد تفوق التلميذ على

---

(١) هل نحن مسلمون ص١١٣ - ١١٤.

أستاذه ـ كما يقولون، فقرأنا منذ سنوات ورأينا صورة بنت رجل مسلم ذي مسئولية كبرى تُعَلِّم وزير خارجية أوروبيًا رقصة البطن!! ألم أقل لكم لقد اختلت نظرة المسلمين إلى الفضائل والرذائل؟! وهذا الاختلال من الأسباب الجوهرية لهزيمتهم النفسية.

ﻫﻫ سير القيادات في بلاد المسلمين في الخط المعارض للإسلام:

وهذا من الأسباب الجوهرية كذلك لما يعيشه أفراد الأمة من هزيمة نفسية داخل ذواتهم، فانعدام الثقة بين قطاعات الأمة ممثلة في الحاكمين والمحكومين، وامتلاك الفئة الحاكمة لوسائل القوة والبطش مع اختيارها سلفًا السير في الطريق المعاكس للتوجه الإسلامي أوجد داخل نفوس الفئة المحكومة إحباطًا تحول إلى سلبية قاتلة وانهيار تام واستسلام لكل وافد جديد، وحتى الفئة الحاكمة تعيش تلك الهزيمة المدمرة داخل ذواتها، بل إن سيرها في ذلك الخط المعارض للإسلام أكبر دليل على تلك الهزيمة بل هو الهزيمة نفسها.

لقد استجاب كثير من الحكام في البلاد الإسلامية لتنفيذ مخططات أعداء الأمة واعتبروا أنفسهم أوصياء عليها ومسئولين عنها، وأظهروا فعلاً استماتتهم في سبيل أن تصبح تلك المخططات واقعًا حيًا ملموسًا بكل إصرار وبكل عزيمة وبكل تفان وإخلاص؛ فأثبتوا من خلال ذلك انهزامهم أمام أولئك الأعداء وذوبان شخصياتهم فيهم وتحولهم إلى نسخ كربونية لهم.

والشعوب المغلوبة على أمرها ترى ذلك ولا تستطيع تغييره فتكبت مشاعرها الغاضبة فيتحول كبتها في النهاية إلى أحد شيئين: إما ثورة عنيفة تدمر كل ما يمت بصلة إلى أولئك الحكام المهزومين، وإما انهيار أشبه بالانهيار العصبي تفقد فيه الأمة قدرتها على التمييز بفعل القهر المستمر فتتنازل عن كل شيء: عن دينها وتاريخها وانتمائها، وحتى عن مشاعرها فلا تعود في نظر

نفسها شيئًا ذا بال، وإنما هي الذلة تستشعرها والهزيمة تلف حياتها. والذي حدث لشعوب الأمة الإسلامية هو الثاني من هذين الشيئين اللذين قلنا إنها تتحول إليهما ولابد من مشاعر الغضب المكبوتة زمنًا طويلاً.

**** جهل المسلمين بحقيقة دينهم من جهة وبحقيقة الحضارة الغربية الغازية من جهة أخرى:**

يقولون: «إن من جهل شيئًا عاداه»، وهذا القول ينطبق تمام الانطباق على مسلمي اليوم مع دينهم؛ إنهم يجهلون حقيقته ويجهلون عظمته وارتفاع قدره. إنهم لا يعلمون أنه الدين الذي جمع فضائل الأديان وزاد عليها، وأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده دينًا خاتمًا إلى قيام الساعة، ولا يعلمون أنه يجمع المحاسن كلها، فما من ميزة إلا وهو بها متفرد، وما من فضل ولا فضيلة إلا وقد دل عليها وأمر بها، ولا شر ولا رذيلة إلا وقد نهى عنها وحذر منها.

بل إنهم ليجهلون أنه دين يلبي مطالب الروح والجسد في آن، ويمتاز على غيره في هذه الناحية من الأديان سماوية كانت أو أرضية، وإنهم يجهلون أنه دين يحث على العلم ويدعو إلى إعمال العقل ويحض على التفكر والتأمل والتدبر.

وعدّد ما شاء لك التعداد من مزايا هذا الدين الخالد، وحدث عن فضائله ولا حرج، لكن مسلمي هذا الزمان جهلوا ذلك كله، وإن شئت فقل: جُهِّلوا ذلك كله فجهلوه.

ساعدهم على الجهل به إعلام يسيء إليه، وتربية تتجاهله، وأعداء يشوهونه، وعلماء تخلوا عن واجب التعليم والتوعية والبيان. ونتيجة لجهلهم

هذا المطبق بحقيقة دينهم أهملوه وازدروه وسهلت هزيمتهم على غازيهم بعد أن أصبحوا كيانًا فارغًا لا روح فيه ولا غَنَاء، وحين يعلم المسلمون حقيقة هذا الدين العظيم تتبدل الأحوال وتتغير الأوضاع وفقًا لسنة الله الثابتة التي أوردنا الآيات عليها في أثناء حديثنا عن السبب السابق.

وهم من ناحية أخرى يجهلون حقيقة الحضارة الغربية الزائفة، فقد أعشى ضوءها البراق أبصارهم، فلم تنفذ إلى عمقها، وإنما اكتفت بالنظر إلى السطح وإلى القشرة الخارجية ذات الألوان الزاهية المتعددة، ولو نفذوا لرأوا شيئًا بل أشياء تثير السخرية وتجلب الغثيان. إنها حضارة متداعية فَقَدَ فيها عنصر الإنسان قيمته وأصبح يبحث عن شيء غيره له قيمة، فحينًا يحسب تلك القيمة خمراً فيعب منها بلا حساب، وحينًا يحسب تلك القيمة في الجنس فيكرع في حمأته بلا حدود ثم يتبين له بعد ذلك كله أن لا قيمة لشيء من ذلك أيضًا، فينزع من جديد للبحث عن شيء له قيمة فلا يجد إلا الكلاب يعيش بينها ويُعيِّشها معه في حب ظاهر، ومودة غامرة، وحنان لا يخفى، فهل أكون مبالغًا إذا قلت: إن أصدق أسمائها اليوم أنها (حضارة الكلاب)؟!

لقد انحطوا أسوأ انحطاط ففضلوا الكلاب النجسة على السود منهم في عنصرية بغيضة وتعالٍ كريه، وانحطوا عن مستوى الحيوان الأعجم حين تعارفوا على التسافد في وسط الطريق، وألفوا عيش البهائم مع قاذورات المخدرات والمسكرات في تشرد ظاهر وبؤس مشهود، فأية حضارة تلك يا صاحبي؟! إن كثيراً من المسلمين لا يعلمون أنه لم يبق في عرف تلك الحضارة شيء محرم أبدًا. لقد استحلوا كل محرم، واستباحوا كل محظور، واستحسنوا كل قبيح، وماذا بعد استحسانهم وجود علاقات جنسية بين الأقارب في النسب كالأب

وابنته والأخ وأخته؟! عياذًا بالله من ذلك.

إن كثيرًا من المسلمين لا يعلمون أنه لم يعد هناك نوع من أنواع الوقاحة ولا لون من ألوان الشناعة إلا ويعرض في مسارحهم وتحتوي عليه أفلامهم السينمائية ومسلسلاتهم التليفزيونية وكتبهم ونشراتهم الإباحية، ويكفي أن نشير في بيان آثار ذلك الدمار الخلقي الشامل إلى مواقف ثلاثة لدول كبرى من دول تلك الحضارة المنهارة.

أما الموقف الأول: فهو انهيار فرنسا وتسليمها للألمان خلال أسبوع فقط وهي الدولة القوية ذات الجيش الجرار والتدريب العسكري الراقي، وقد مرَّ بنا أن رئيس وزرائها يومها قال كلمة لخَّص فيها مأساة الغرب كله في كلمة واحدة هي: لقد هزَمَنا الانحلال قبل الاحتلال.

وأما الموقف الثاني: فهو للرئيس الأمريكي الراحل جون كنيدي الذي صرح قائلاً: «إن الشباب الأمريكي مائع منحل مترف غارق في الشهوات، وإنه من بين سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين بسبب انهماكهم في الشهوات». وأنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا، وأهاب بالعلماء والمصلحين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر[١].

وأما الموقف الثالث فهو لرئيس دولة (عظمى) أيضًا؛ إنه خروشوف أحد رؤساء الاتحاد السوفييتي السابقين فقد صرح قائلاً: «إن الشباب الشيوعي بدأ ينحرف ويفسده الترف وإن من بينه عصبجية وصُيَّعًا». وأنذر بأن الحكومة السوفيتية تبحث إطلاق يد البوليس في معالجة هؤلاء البلطجية، كما أنذر بأن

(١) التطور والثبات في حياة البشرية ـ محمد قطب ص١٧٣.

معسكرات جديدة قد تفتح في سيبريا للتخلص من الشباب المنحرف لأنه خطر على مستقبل روسيا[١].

وهذان التصريحان في سنة ١٩٦٢م فكيف بشبابهم اليوم بعد ثلث قرن من هذا التصريح؟!

إذًا فشباب الغرب منهار منحل غارق في الشهوات، وإذا كان هذا هو حال الشباب الذي هو عماد الأمة فهل يرجى بعد ذلك للأمة من بقاء؟ إن النصوص التي تدل على انهيار حضارتهم وقرب أفولها كثيرة جدًا لا يتسع لها المقام وكلها بأقلامهم هم؛ بأقلام علمائهم وعقلائهم وساستهم ومفكريهم. الجميع يحذرون وينذرون ويصرخون، ولكن لا مجيب فسفينتهم ماضية إلى حيث الغرق الشامل، وإن كتبًا مثل «الحجاب» لأبي الأعلى المودودي، و«التطور والثبات في حياة البشرية» لمحمد قطب، وغيرها ـ لطافحة بعشرات من تلك النصوص التي أشرنا إليها وعشرات من أمثلة انحلال الغربيين وفقدهم عناصر البقاء.

إن تلك الكتب لمليئة بما يثير الاشمئزاز من تلك الحضارة الآسنة؛ فالجنس يُمارَس على قارعة الطريق، ومئات الآلاف بل الملايين من الأولاد غير الشرعيين (أولاد الزنى)، ومئات الآلاف لعمليات الإجهاض، وشذوذ جنسي من كل لون، وخمور وحشيش وأفيون ومخدرات من كل نوع، وعُرْيٌ وصخب وضجيج آثم باسم الرقص، ونواد ليلية وقمار وسرقات وجرائم واغتصاب وهمجية وعنف، وأشياء أخرى كثيرة هي قوام حضارتهم، بل دعني أقل: هي الوجه الآخر لحضارتهم الذي لا يعلم عنه كثير من المسلمين مما

(١) المصدر السابق.

كان سببًا في انخداعهم بهم، وقبولهم لوفادتهم، وترحيبهم بغزوهم لهم.

إن جهل المسلمين بحقيقة دينهم من جهة وبحقيقة ما يسمى بالحضارة الغربية من جهة أخرى من أكبر عوامل هزيمتهم النفسية أمام الغزو الثقافي الغربي بلا جدال وبلا أدنى ريب. أليس كذلك؟!

وإضافةً إلى تلك الأسباب الرئيسية الكبرى يمكن أن نذكر الانغماس في الترف والنعيم، وضعف التربية وسوء أساليبها وإهمال قواعدها في البيت ومؤسسات التعليم، كأسباب إضافية أخرى.

* * *

المبحث الثاني
أسباب وعوامل خارجية

تلك كانت أهم الأسباب الذاتية النابعة من داخل كيان الأمة أي التي لم يكن لأحد من خارج الأمة يد فيها، أما الأسباب والعوامل الخارجية أي التي كانت من صنع خارجي ومن تدبير قوى معادية للأمة فكثيرة هي الأخرى ومتنوعة، ولكننا سنقتصر على بيان أهمها في نظرنا مثلما فعلنا في حديثنا السابق عن العوامل الذاتية:

٥٥ الحروب الصليبية:

تلك الحروب المستعرة التي دامت نحو قرنين من الزمان (سنة ٤٨٩ هـ إلى سنة ٦٦٨ هـ، ١٠٩٧م-١٢٧٠م)، وهي من أعظم الحروب وأشدها بأسًا وأطولها أمدًا، ومن أكبر ضروب التصادم بين المسيحية الغربية وحضارتها والعقيدة الإسلامية وحضارتها.

وعن أهدافها يقول باركر الإنجليزي: «للحروب الصليبية وجهان، فهي من حيث الباعث الأصلي عليها حركة روحية وحرب مقدسة باركها رجال الدين وربطت الأمم المسيحية جميعًا برابطة العداوة لعدو عقيدتها اللدود (يقصد الإسلام)، وهي من حيث النتائج الثمن الذي دفعته المسيحية أملاً في تخليص أورشليم من ربقة المسلمين، وهي أقدس الأماكن وأبعد المزارات

الدينية عن أوروبا، لذلك كان حج الأوروبيين إليها غفرانًا مضاعفًا»[١].

لقد كانت حروبًا ضارية أدت إلى سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ إلى أن استعاده السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله سنة ٥٨٣ هـ، وكانت لها آثار ثقافية وآثار اجتماعية عديدة، وهي وإن لم تكن سببًا رئيسًا فيما يعيشه المسلمون اليوم من هزيمة وخذلان لكونها جرت في عصر كانت كفة المسلمين الحضارية فيه هي الراقية، إلا أنها تعتبر من العوامل المهيئة لما حدث بعد ذلك بتأثير عوامل أخرى أقوى تأثيراً.

ونكاد نلمس آثارها الاجتماعية في المجتمع الإسلامي آنذاك متمثلة في كثرة الطرق الصوفية كنوع من ردة الفعل للحروب والهجمات المتكررة، أو بعبارة أدق كنوع من الهروب من ذلك الجو المتوتر القائم على المناوشات والاشتباكات التي لا تهدأ مع ما دفعت إليه تلك الأجواء المشحونة بالخوف والرهبة من الانصراف عن المعاصي واللجوء إلى الله لكشف الضر ودفع البلاء، ونلمسها كذلك في سوء الحالة الاقتصادية في بلاد الشام ـ مسرح تلك الحروب.

ونلمسها كذلك في وقوع بعض ضعاف النفوس من المسلمين في المحرمات لشيوعها في مثل تلك الظروف وجلب النصارى لها معهم؛ فقد ذكر الدكتور محمد الهرفي في كتابه «شعر الجهاد في الحروب الصليبية» نقلاً عن صاحب كتاب «الفتح القيسي»: «أنه في إحدى المعارك قدمت ثلاثمائة فتاة جميلة للمشاركة في الترفيه عن المقاتلين وإدخال السرور على نفوسهم، وعلم المسلمون بهذا الأمر وعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية، وأبق من المماليك والأغبياء والمدابير والجهلاء جماعة جدَّ بهم الهوى واتبعوا من غوى،

---

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم ٢/ ١٧٩ إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

فمنهم من رضي اللذة بالذلة ومنهم من ندم على الزلة»[١].

ونلمس آثارها أيضًا في انتشار الرقيق بأجناسه المختلفة ودور اللهو في بلاد الشام، مما أشاع جوًا أكثر فيه التغزل بالنساء بل وأفحش الشعراء في أوصافهن والتغزل بهن في كثير من الأحيان، بل إن الشاعر ابن حمويه جعل ديوانه كله غزلاً وذكر في آخره أنه إنما ألف هذه القصائد لتُفرِّج هَمَّ من تعذر عليه المطلوب، أو بعد عنه المحبوب. كما شاع في المجتمع آنذاك الغزل بالمذكَّر وهو مع التغزل في النساء نتيجة الانغماس في بحور اللذة الحسية الجارفة لقلة ما يشغل الناس في زمن الحروب من الأمور الجادة، إضافة إلى كون تلك العصور المتأخرة من فترات تلك الحروب عصور ركود وانحدار وتدهور.

ومع الغزل الفاحش بنوعيه وبتأثير تلك الأجواء كلها انتشرت الخمور في أوساط المسلمين، وكثرت الحانات بتأثير من النصارى ومخالطتهم لبعض المسلمين ولنصارى الشام الأصليين[٢].

**** الحملة الفرنسية على مصر والشام ١٢١٣هـ-١٧٩٨م:**

لا أجد في مجال التعبير عن آثار هذه الحملة على الأمة الإسلامية وكونها سببًا جوهريًا في هزيمتهم من الداخل - أبدع ولا أحسن تصويرًا من كلام الأستاذ محمد قطب عن ذلك في كتابه «هل نحن مسلمون»، ورغم ما قد يبدو من طول ما سأنقله عنه إلا أنني أرى أهميته وعدم إمكانية اجتزاء شيء منه. إنه يقول[٣]: «ثم كانت الهزيمة الحربية التي وقعت بالمماليك على يد نابليون في إمبابة إيذانًا بالهزيمة الداخلية؛ هزيمة العقيدة في داخل النفوس. لقد روع

---

(١) ص٦٥.

(٢) انظر المرجع السابق ص٦٣-٦٦.

(٣) ١١٥-١١٨ (دار الشروق ١٣٩٨هـ).

المسلمون بمدافع نابليون وبدت لهم سيوف المماليك هذرًا فارغًا إزاء تلك المدافع الجديدة التي لم يكونوا يعرفونها أو يتصورون وجودها في يد الأعداء. وانقلب ميزان القوى انقلابًا عنيفًا في نفوسهم فتلك هي المرة الأولى التي تنهزم فيها جيوش المسلمين عن جدارة، وتتغلب جيوش الصليبيين لأنها تملك قوة حقيقية من العتاد والفن الحربي والمعرفة لا يملكها المسلمون.

ولقد كان ممكنًا مع ذلك كله ألا يتغير الميزان في داخل النفوس، كان ممكنًا أن تصمد النفوس للهزيمة ريثما تتجمع للانقضاض من جديد كما حدث مرات كثيرة من قبل، ولكن (الرصيد الداخلي) للعقيدة في تلك الفترة لم يكن من القوة بحيث يصمد للصدمة ويتجمع من جديد. حقًا لقد قام الشعب بمقاومة باسلة للحملة الفرنسية، وثارت القاهرة بزعامة العلماء وتأثيرهم الروحي وحدثت بطولات عجيبة. حقًا لقد حدث كل ذلك، ولكنه كان أشبه بالأعمال الفردية الفدائية، أما الكيان الحقيقي للدولة المسلمة المقاتلة التي تنظم القتال وتجيش الجيوش وتقف للغزاة بوصفها (دولة الإسلام)، أما ذلك كله فكان قد ذاب في معركة إمبابة ولم يعد له وجود.

وأحس المسلمون بالهزيمة حتى وهم يرون الغزاة ينسحبون، لم تكن الهزيمة الحقيقية هي هزيمة الحرب، فقد وضع نابليون في فترة إقامته في مصر قانونًا جديدًا يحكم به المسلمون غير شريعة الله. قانونًا مستمدًا من التشريع الفرنسي، وحصر تشريع الله في أمور الأحوال الشخصية ـ من زواج وطلاق وميراث، وكانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ المسلمين. المرة الأولى التي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله، يضعه وينفذه قوم غير مسلمين، لقد كان الصليبيون يدخلون الأراضي الإسلامية أحيانًا، ويبقون في بعض الأحيان سنوات، بل

وصل بهم الأمر قبيل صلاح الدين أن يقيموا لهم دويلات على شاطئ البحر الأبيض في بلاد الشام، ولكنهم لم يجرؤوا قط في أية مرة أن يضعوا قانونًا من عندهم يحكمون به المسلمين؛ فقد كانوا في كل مرة غزاة انتهبوا قطعة من الأرض ولم يكونوا قط دولة حاكمة مسيطرة في الأرض، وفي هذه المرة كانوا ـ لأول مرة ـ دولة حاكمة في أرض الإسلام بعد أن أطاحوا بالدولة المسلمة وذوّبوها في ميدان القتال.

وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقية؛ هزيمة العقيدة، وبدء انحسارها في عالم الواقع، وانحسارها ـ من ثم ـ في داخل النفوس، وفي ظل هذه الهزيمة وتلك كان الانبهار الذي أحدثته الحملة الفرنسية في نفوس المصريين؛ انبهار بقوة السلاح أولاً، وانبهار بالعلم الغربي الذي حمله رجال البعثة المرافقة للحملة، وانبهار بالمطبعة التي جاء بها نابليون إلى مصر، وانبهار بالتنظيمات التي أحدثها، وفي كلمة واحدة انبهار بكل ما جاء من الغرب وكل ما ليس بإسلام.

وكانت هذه هي الهزيمة الحقيقية الكاملة التي مهدت لكل ما أحدثه الاستعمار الصليبي بعد ذلك من تدمير مخرب في حياة المسلمين وعقيدتهم وأفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم في واقع الحياة، لذلك لم يكن طرد الفرنسين من مصر أو انسحابهم حدثًا حقيقيًا في عالم الواقع بعد هذه الهزيمة الداخلية التي خلفتها الحملة في نفوس المسلمين».

٭٭ احتلال الإنجليز لمصر:

في سنة ١٨٨٢م احتلت إنجلترا مصر إثر طرد فرنسا منها بعد أربع سنوات من الاحتلال الفرنسي الذي اعتبرناه سببًا من الأسباب الخارجية للظاهرة ـ موضوع بحثنا ـ، والذي يدعونا إلى اعتبار الاحتلال الإنجليزي لمصر من ضمن الأسباب الخارجية لظاهرة الهزيمة النفسية التي تعيشها الأمة اليوم على أوسع

نطاق ـ هو أنها صاحبة خطة جديدة للتغريب، وهي سياسة النفس الطويل التي يعبر عنها مثلهم المشهور: (بطيء ولكنه أكيد المفعول)، إنها سياسة تعمل عملها دون أن يفطن الناس للتغيير.

وعيَّنت بريطانيا كرومر أول معتمد لها في مصر فعيَّن هو بدوره القس «دنلوب» مستشاراً لوزارة المعارف، فكانت في يده السلطة الفعلية الكاملة في وزارة المعارف المصرية الإسلامية.

وتصوَّرْ قسيسًا على رأس السلطة في وزارة للتعليم في بلد إسلامي ما الذي ينتظر منه لخير أجيال ذلك البلد الإسلامي، فكيف إذا كان البلد الإسلامي هو مصر الذي تتلمذت على يديه أكثر البلدان الإسلامية الأخرى؟!

فلقد سعى «دنلوب» هذا منذ اللحظة الأولى لتوليه مهام منصبه لضرب الأزهر لكونه في نظرهم موطن الخطر على كنيسة المسيح، كما ورد على لسان أحد دهاقنتهم، ولكن يجب أن يتم ذلك الضرب للأزهر بطريقة لا تلفت النظر ولا تثير كوامن النفوس مثلما فعل ذلك الأحمق «نابليون» حين ضرب الأزهر بالمدافع من القلعة وجعله مربطًا وإسطبلاً لخيله؛ فهاجت ضده الناس وماجت وثارت عليه القاهرة بقضِّها وقضيضها.

بل تركه دنلوب على ما هو عليه ولكن بدأ ينشئ بجانبه مدارس مدنية تعلم العلوم الدنيوية العصرية ولا تعلم الدين، وضمن لخريجيها المرتب المغري والمكانة الاجتماعية المغرية، فسحب البساط بهذا من تحت الأزهر وحول الناس عنه بهذه الخطة الخبيثة الهادئة، فلم يعد يذهب إليه إلا أبناء الفقراء والمعوزين ـ كما مرَّ بنا من كلام الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ـ في مبحث سابق ـ، وكانوا بعد تخرجهم منه يضيقون بأنفسهم ذرعًا، حيث يجدون أبواب الوظائف الإدارية والدواوين المدنية الحكومية مغلقة في وجوههم، بينما يعين خريجو

تلك المدارس المدنية (الدنلوبية) براتب شهري يبلغ أربعة جنيهات، وهو راتب شديد الإغراء في ذلك الحين، ويختار الواحد منهم ما يشاء من دواوين الحكومة وإداراتها.

ورغم ما لقيته هذه المدارس المدنية العصرية الحديثة من نقد من جملة الناس لما كان قد بقي لديهم يومذاك من أثارة من دين حيث قالوا: إن هذه المدارس مدارس كفر لأنها لا تعلم القرآن، إلا أن ذلك لم يحل دون أن تصبح هذه المدارس فيما بعد المنافس العنيد للأزهر من جهة، والبركان الذي أصبح يقذف بين الحين والحين بحممه البشري الملتهب، أعني خريجي تلك المدارس الذين كانوا يتخرجون منها بأسماء إسلامية وأفكار غربية إنجليزية، فيكونون شوكة في حلق الإسلام، والجزء من الشجرة الذي تكفل بقطع بقية أجزائها.

لقد كان «دنلوب» شيطانًا ماكرًا خبيثًا وهو يأخذ بهذه الخطة التعليمية الماكرة؛ فقد ضمن تغريب المسلمين دون ضجيج أو خسائر وضمن (علمنتهم) باسم تعليمهم، وكان يعلم أن ثمرات جهوده تلك ستشمل العالم الإسلامي كله تقريبًا، فقد كان يدرك أن مصر بكثافتها وأزهرها وتاريخها الإسلامي الحافل كانت موئل الإسلام وقلبه ومركز قيادته في ذلك الحين. وهكذا كان؛ فأصبحت مناهج معظم بلاد المسلمين مستقاة من ذلك المنهج الذي وضعه «دنلوب» لمدارسه العصرية الحديثة التي افتتحها يومذاك في مصر لتنافس الأزهر وتصرف الناس عنه[1].

**** احتلال بقية دول العالم الإسلامي:**

لم تكن مصر هي الدولة الوحيدة من دول العالم الإسلامي التي نكبت

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب «واقعنا المعاصر» للأستاذ محمد قطب ص٢١٥ وما بعدها.

باحتلال دول أوروبية غربية لها وإن كان احتلالها أعظم تلك (الاحتلالات) نتائج وأشدها تأثيرًا على عموم المسلمين، لما كانت تتمتع به مصر من ثقل في العالم الإسلامي.

بل لقد نكبت دول أخرى بذلك الاحتلال البغيض، وكنا قد أشرنا في مبحث سابق إلى أن الدول الأوروبية قررت فيما بينها اقتسام تركة الرجل المريض أي (تركيا والخلافة الإسلامية التي سقطت فيها)؛ فاحتلت فرنسا بلاد الشام (سوريا ولبنان والأردن)، وبلاد المغرب العربي في الشمال الأفريقي (تونس والمغرب والجزائر وتركت ليبيا لإيطاليا)، واحتلت بريطانيا (عدن) وكل دول الخليج العربية التي كانت إمارات صغيرة آنذاك (الكويت، قطر، البحرين، الإمارات، عمان، وكذلك العراق).

ولاشك أن هذا الاحتلال الأوروبي الغربي لهذه الدول العربية الإسلامية كان عظيم الأثر في إذلال نفوس أهلها وتحطيم معنوياتهم، خاصة وأن (المحتل) يرمي إلى تدمير الكيان والقضاء على روح المقاومة واستئصال شأفة الدين ولغته العربية.

لقد كان ذلك الاحتلال البغيض عاملاً مهمًا وسببًا جوهريًا في هزيمة العقيدة الإسلامية داخل نفوس أهلها بما استعمله من وسائل البطش والتدمير لمقومات الأمة من ناحية، وما أشاعه في دنيا المسلمين من وسائل الإفساد الخلقي الذي آتى أكله سريعًا من ناحية أخرى.

هذه في نظري أبرز الأسباب الكبرى الخارجية لنشوء هذه الظاهرة، وهنالك أسباب أخرى كثيرة سواها، وقد يكون بعضها داخلاً في بعضها أو متوالدًا عنه بشكل أو بآخر منها:

* حركة التنصير العالمية التي شملت معظم بل جميع البلدان الإسلامية.

* فتح المدارس الأجنبية والتوسع في ذلك في البلدان الإسلامية.

* عرقلة الدول الغربية والشرقية لكل مشروع قد يؤدي إلى استغناء المسلمين عن الغرب أو الشرق ليبقى المسلمون عالة على غيرهم.

* السيطرة الغربية على الاقتصاد العالمي ومؤسساته وعلى حركة النقد الدولي.

* العمل على إحياء الحضارات القديمة وتمجيدها وإثارة النعرات الطائفية والقبلية لتمزيق وحدة الأمة الإسلامية.

* امتلاك معسكر الكفر، غربيه وشرقيه، للمؤسسات المالية الكبرى ولوكالات الأنباء العالمية الكبرى وللصحف العالمية الكبرى واسعة الانتشار وللشركات التليفزيونية والإذاعية الكبرى، واستخدام ذلك المعسكر لتلك الوسائل الضخمة من مال وإعلام في تحقيق سيطرته على العالم الإسلامي ومد نفوذه عليه، وتصوير نفسه أمامه مثالاً لكل كمال ورمزاً لكل قوة ولكل رقي وتقدم.

* حركة تشويه التاريخ الإسلامي على أيدي المبشرين والمستشرقين وأذنابهم.

* الهجمات المسعورة على العالم الإسلامي من الشرق والغرب في كل حين فكرية وثقافية وعلمية ودينية واقتصادية، وفي كل ميدان تارة باسم التقارب بين الأديان، وتارة باسم الاشتراكية وتحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية، وتارةً باسم العلم والبحث العلمي وخدمة التراث، وتارة باسم المحبة والأخوة والإنسانية، وتارة باسم التنظيم الاجتماعي والتخطيط الاقتصادي،

وما شئت غير ذلك من تعللات وملصقات تلصق عليها الأهداف الظاهرة الناعمة الملمس التي تخفي وراءها أهدافًا خبيثة فيها السم الزعاف للمسلمين؛ تفريقَ كلمةٍ، وتمزيقَ شملٍ، وتفتيتَ وحدةٍ، وتدميرَ كيان.

* وأخيراً قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨م هذا النتوء غير الطبيعي في الوطن الإسلامي، بل في إحدى أراضيه المقدسة المباركة؛ عامل هام جداً من عوامل الهزيمة النفسية، فإن قيامها ثم استحكام أمرها بفعل التخطيط الغربي والشرقي الكافر والدعم غير المحدود من المعسكرين لها؛ أصاب المسلمين بما يشبه الصدمة الكهربائية الحادة التي تُفقد الوعي زمنًا قد يطول.

* أما سقوط الخلافة الإسلامية في الآستانة وإرهاصات ذلك السقوط المريع من ظهور المسألة الشرقية، وتخطيط الغرب لإنهاء الخلافة العثمانية تحت تأثير اليهود الذين يديرون الغرب كله منذ زمن بعيد - فأمر شديد التأثير على المسلمين منذ حدث وإلى يومنا هذا، ولشدة هوله وشدة تأثيره وكونه سبباً أوليًا فيما نعانيه اليوم من هزيمة روحية وذل نفسي وتحطيم معنوي؛ فإنني لن أستطيع التحدث عنه، بل لقد تعمدت تأخيره مع علمي الأكيد بأنه السبب الذي يكاد لا يرقى إليه سبب آخر من الأسباب التي ذكرتها. أجل أخرته لخطورته عندي؛ فأنت لا تؤخر لديك من ضيوفك إلا من تريد الاحتفاء به أكثر، ومع ذلك لن أستطيع الكلام عن هذا السبب الأوَّلي في نظري لهزيمة المسلمين وشعورهم بالإحباط؛ لأنني لا أزال أعيش أثر الصدمة حتى الآن!!

* * *

الفصل الثالث

طرق علاج هذه الظاهرة

ووسائل القضاء عليها

الفصل الثالث

طرق علاج هذه الظاهرة ووسائل القضاء عليها

لقد قلنا في مقدمة هذا البحث إنه لا يكفي ذكر مظاهر هذه الظاهرة الخطيرة عن ذكر أسبابها ، كما أنه لا يكفي ذكر تلك الأسباب عن ذكر طرائق العلاج ، وما دمنا قد ذكرنا عددًا من مظاهرها في مجالات حياتنا المختلفة ، ثم أشرنا إلى ما رأيناه من أبرز أسبابها من ذاتية وخارجية ؛ فإنه يلزمنا الآن أن نذكر ما نراه من طرق لعلاج تلك الظاهرة والقضاء عليها .

وغير خاف على المتأمل أن لذلك العلاج طرقًا كثيرة كثرة نواحي الحياة وأوجه النشاط فيها ؛ حيث يمكن رصد عدد من أساليب المعالجة من خلال كل وجه من تلك الأوجه المتعددة .

وبيان ذلك أنه يمكن أن تعالج عن طريق السياسة وعن طريق الاقتصاد وعن طريق الإعلام (أي التوعية والإرشاد) وعن طريق التوجيه التربوي والتعليم في المدارس والمعاهد والجامعات ، إلى آخر ما هنالك من ألوان الأنشطة الإنسانية المختلفة ، بل إن معالجتها المثمرة إنما تكون عن طريق تلك المجالات جميعًا ؛ بحيث تلتقي الجهود كلها في محاولة للقضاء على تلك الظاهرة واستئصالها من واقع حياة المسلمين ومن داخل نفوسهم وعقولهم .

ولست أرى أن المقام في بحث موجز كهذا يتسع لاستعراض طرائق

العلاج في تلك المجالات جميعها، وإنما حسبنا أن نركز على ما نراه أولاها بالاحتفال - وإن كانت كلها كذلك - وأسرعها مفعولاً في الإيصال إلى الغرض المقصود والثمرة المرجوة والفائدة المتوخاة.

ولعل القارئ الكريم يشاركني الرأي في أن ميداني (التربية والتعليم) و(الإعلام)، الذي نعبر عنه هنا بالتوعية والإرشاد - وهما من أجلّ وظائفه - هما الميدانان الجديران بانطلاق محاولات علاج الظاهرة منهما لسببين رئيسيين أولهما: أن التربية والتعليم ميدان جيل الغد وأمل الأمة من الشباب الذين تعلق عليهم الآمال في إعادة العزة إلى النفوس بعد الشفاء من هذا الداء العضال والمرض الخطير الفتاك والتخلص من آثاره، وهم المؤملون - بعد الله - في استعادة الكرامة المسلوبة والشرف المدوس بعد أن تشفى نفوسهم هم مما علق بها من أوضار الانهزام والتحلل والضعف؛ ليتحولوا بعد الشفاء شبابًا أصحاء في عقيدتهم أقوياء بإيمانهم، معتزين بإسلامهم، لا ينبهرون بوافد، ولا ينخدعون بعدو؛ إذ يحسّون أنهم يملكون أغلى كنوز الأرض متمثلة في إسلامهم الذي شرُفوا به بعد ضعة، وعزّوا به بعد ذلة، واستغنوا به بعد فقر، واجتمعوا عليه بعد شتات. شباب يَصْلحُون فيُصلِحُون، وميدان يزخر بزهرة الأمة وآمالها المرتقبة حري بأن يكون أول ميدان يُبْحَثُ عن طريقه وفي محيطه عن طرائق العلاج.

وأما ثاني السببين - وهو متعلق بالإعلام - فلأن الإعلام أصبح في هذا العصر مدرسة إلزامية - إن صح التعبير - وجامعة مفتوحة -؛ إذ يدخل كل بيت ويطرق كل أذن، ويصافح كل عين، في كل وقت وحيثما كان إنسان، فالتوعية والإرشاد عن طريقه - مقروءاً ومسموعًا ومرئيًا - مدخل لعلاج هذه الظاهرة

وطريق من أكثر طرق علاجها نجاحًا.

فعن طريقه يمكن أن نعيد للأمة ثقتها بنفسها ونذكرها بتاريخها الحافل بالبطولات والأمجاد، ونعلمها حقيقة دينها بطريقة مقبولة حديثة الأسلوب جيدة التنفيذ، وبالطريقة ذاتها نفتح أعينها على الخطر المحدق بها المتمثل في أعداء متربصين حاقدين، وخطط تتوالى للمزيد من إفسادها، ومؤامرات تحاك للإيقاع بما بقي من معاقلها وإسقاط آخر حصونها.

فعن طريق التربية والتعليم نعالج قطاع الشباب الذي يقدر بالملايين من أبناء الأمة ليُسْهِمَ كل منهم - بعد شفائه من داء الهزيمة - في معالجة المصابين بهذا الداء الخبيث من بقية قطاعات الأمة الأخرى.

وعن طريق الإعلام نعالج مختلف قطاعات الأمة إذ سنخاطب من خلاله الرجل والمرأة والفتى والفتاة، الصغير من أولئك والكبير، والمتعلم منهم والأمي، والغني منهم والفقير؛ سنُعنى بالجميع؛ إذ من الجميع تتكون الأمة التي نسعى إلى علاجها ونهدف إلى القضاء على ما تعاني منه من هزيمة نفسية وتبعية ذليلة وتحلل وذوبان.

هذا مدخل لابد منه قبل شروعنا في الحديث بالتفصيل عن مقترحاتنا لعلاج هذه الظاهرة عن طريق التربية والتعليم.

* * *

المبحث الأول

طريق التربية والتعليم

أما علاجها عن ذلك الطريق فنبدأ حديثنا عنه ببيان أهمية دور التربية والتعليم للانطلاق منه في الحملة المركزة لعلاج مرض الهزيمة النفسية للأمة، ذلك الدور الذي يأخذ اتجاهين اثنين: أحدهما: يتعلق بإصلاح الخلل الواقع في ذلك الميدان نفسه ليكون إصلاحه منطلقًا للإصلاح به وعن طريقه، وثانيهما: يتعلق بكيفية الإفادة من ذلك الميدان واستغلال وسائله وإمكاناته المتاحة للإصلاح عن طريقه وبوساطته لكافة طبقات الأمة وفئاتها، وعلاج أفرادها ومجموعاتها من ذلك الداء العضال (الهزيمة النفسية).

فأما بخصوص الاتجاه الأول فإن مما لا ينكر أن خللاً كبيرًا قد وقع في ذلك الميدان الهام، خلل يتمثل في انحراف الهدف، وخلل يتمثل في فساد التصور، وخلل يتمثل في إهمال (واجب التميز)، وقتل روح الأصالة وإماتة صفة الاستقلالية التي هي أبرز سمات وصفات الأمة الإسلامية.

فانحراف الهدف في ميدان التربية والتعليم أمر لا يحتاج من شدة وضوحه إلى دليل، ولكي ندرك ذلك الانحراف يلزمنا تذكر هدف التربية والتعليم لدى هذه الأمة المسلمة ذات الرسالة الخالدة المأمورة بالاستمساك بها والدعوة إليها، فالهدف الأول والرئيسي للتربية والتعليم في الإسلام هو تحقيق العبودية لله في حياة المسلم الفردية والاجتماعية، وإعداده للاضطلاع بعد ذلك بمهمة دعوة

غيره إلى تحقيق تلك العبودية لله سبحانه. وما أدق ما شمل هذا التعبير (تحقيق العبودية لله) فهو تحقيق يستلزم أن تكون تلك العبودية (حقيقة) لا صورة وتمثيلاً، ودائمة لا تتخلف، وقوية لا تضعف، ومتقدة لا تخبو شعلتها.

ذلك هو الهدف الأسمى للتربية والتعليم في أمة تتخذ من الإسلام دينًا ـ عقيدة وشريعة ومنهج وحياة ـ فهل ظل ذلك الهدف هو هو في أمة الإسلام اليوم؟

نظلم أنفسنا كثيرًا لو قلنا: نعم، ونظلم الأمة كذلك لو قلنا: لا، بإطلاق. مما يعني حدوث انحراف في الخط المستقيم للهدف التربوي والتعليمي عند المسلمين، غير أن ذلك الانحراف ليس على مستوى واحد، بل هو متفاوت بتفاوت ظروف كل فئة وكل شعب من فئات الأمة الإسلامية وشعوبها اليوم. فبينما نراه يمثل نهايته عند تلك البلاد الإسلامية التي ابتليت بسلطة تعلن العلمانية، وتصرح بها وتتحمس للأخذ بها، وتضع برامجها التربوية والتعليمية على أساسها، نجده أقل عند تلك البلدان التي لم تُقْدِم سلطاتها على إعلان علمانيتها أو التي لم تُبْتَلَ بسلطة علمانية، غير أنه قد حدث انحراف ـ في الجملة ـ وتحول عن ذلك الهدف السامي إلى اعتبار أهداف أخرى أدى إلى اعتبارها واستبدالها بذلك الهدف النبيل ما ابتليت به الأمة من علمانية التعليم.

ومن تلك الأهداف التي تم التحول إليها ما تنادي به التربية الغربية من اعتبار أهداف التربية تقوم على محوري نمو الفرد أولاً وتحقيق ذاته ثانيًا ـ في انصراف تام عن معنى عبودية الفرد لله وخضوعه لسلطانه واعتباره جزءًا من هذا الكون الذي يأتمر ـ جميعه ـ بأمره سبحانه، وفي تجاهل كامل للجانب الروحي في الإنسان وتركيز كامل أيضًا على ماديته الصرفة.

ومن هنا تأتي خطورة ذلك الانحراف في الهدف الأساسي للتربية في مفهوم الإسلام، إنه انحراف في أصل أصيل لا في شيء فرعي غير ذي قيمة،

وما دام الانحراف قد وقع في الأصل الأصيل وحدث في جوهر الهدف لا في إحدى شكلياته؛ فلابد من وقفة للإصلاح والمعالجة وإعادة القطار إلى القضبان.

تجب العودة إلى استشعار وجوب استخدام التربية لترقية روح الإنسان وبناء صلته بخالقه وتنظيم علاقته بموجده في المقام الأول، وهو ما يعني تحقيق عبوديته له عز وجل؛ لتكون تربية هادفة واعية رشيدة معبرة عن روح الأمة التي يُربَّى بها أبناؤها، منطلقة من الأس الذي يرتكز عليه بناء تلك الأمة وهو الإيمان وكمال العبودية لله.

فليس بلائق بهذه الأمة أن تنحرف عن هدف تربيتها الأسمى إلى أهداف أخرى غربية أو شرقية، مثلما هو غير لائق أيضًا أن تستخدم نظمًا أو أفكارًا أو نظريات لا تتطابق مع ذلك الأس الذي تقوم حياتها عليه.

ثم إن تلك الأهداف للتربية الغربية التي قلنا إنها تقوم على محورين هما: نماء الفرد، وتحقيق ذاته - مكفولة في إطار ذلك الهدف السامي الكبير وهو تحقيق العبودية لله في حياة المسلم الفردية والاجتماعية؛ فهو لا يتعارض مع إنماء الفرد جسميًا وعقليًا واجتماعيًا . . . إلخ، كما لا يتعارض أيضًا مع تحقيق الفرد لذاته وشعوره بقيمته، بل إن (تحقيق عبوديته لله) مما يساعده على تحقيق ذاته ويعينه على معرفة قيمته الحقيقية كعبد لله يستمد قوته وعونه وتوفيقه منه؛ فلا يتطاول ولا يجنح ولا يجمح به الخيال؛ فيتصور نفسه إلهًا ويظن نفسه ربًا كما هي حال ذلك الإنسان المادي الملحد الذي انحرف بإنسانيته وحياته كلها عن ذلك الهدف السامي العظيم، فارتكس وانتكس وسقط في قعر الدمار الشامل الذي قاده إليه صلفه وغروره وتبجحه وانحرافه عن صراط الله المستقيم وفطرته التي فطر الناس عليها.

ولكي لا يشط بنا الحديث وتتشعب بنا مسالكه نقول: إن هناك خللاً كبيرًا

آخر حدث في التصور، وربما كان الانحراف في الهدف ناشئًا عن الانحراف في التصور؛ إذ من المعلوم أن التصور الإسلامي الصحيح يقوم على اعتبار أن الله جل جلاله هو الخالق المبدع لهذا الكون كله ومن فيه وما فيه، وأن الإنسان أحد مخلوقاته العديدة، وأنه خلقه لعبادته، وسخر له جميع ما في الكون لتكون عوامل مساعدة له على تحقيق الهدف الأسمى من إيجاده وهو عبادة الله سبحانه وحده لا شريك له. هذا هو التصور الإسلامي الصحيح لعلاقة الإنسان بالله وعلاقة الإنسان بالكون، فأي فساد في هذا التصور إنما يقود إلى انحراف كل شيء عن خطه في حياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم والدولة المسلمة والأمة المسلمة، يقود إليه بالضرورة ويؤدي إليه بشكل تلقائي لا محالة.

أريد أن أقول: إن مرد كل الانحرافات في جميع نواحي حياة المسلمين عائدة إلى فساد في تصورهم لعلاقتهم بالله وعلاقتهم من ثم بالكون من حولهم؛ انحرافهم السياسي وانحرافهم الاقتصادي وانحرافهم التربوي وانحرافهم الإعلامي وانحرافهم المسلكي، كل تلك الانحرافات نتيجة طبيعية لفساد التصور الاعتقادي لدى المسلمين، ولكي يقضوا على تلك الانحرافات أو يعالجوها ـ على الأقل ـ لابد أن يعيدوا تصحيح تصورهم وإصلاح فساده وتقويم اعوجاجه.

وبالإضافة إلى هذين الخللين الكبيرين اللذين حدثا في ميدان التربية والتعليم؛ حدث خلل ثالث تمثل في إهمال خطط هذه التربية ومناهج ذلك التعليم لواجب الشعور بالتميز وإماتة روح الأصالة والاستقلالية في الأمة المسلمة؛ ذلك أن تلك الخطط والمناهج رغم حداثة وضعها في كثير من البلاد الإسلامية إلا أنها لازالت تترسم خطى «دنلوب»؛ ذلك القس الإنجليزي الذي وضع خطط التربية ومناهج التعليم في بلد من أكبر بلاد المسلمين وأعظمها تأثيراً في مجرى الحياة

الإسلامية ذلك هو مصر إبَّان الاحتلال الإنجليزي لها، عندما عينه كرومر المعتمد البريطاني بمصر مستشاراً لوزارة المعارف المصرية المسلمة آنذاك.

ولقد تساءلنا في مبحث سابق عند الإشارة إلى شيء من هذا قائلين: ماذا تتوقع من تعليم يضع مناهجه قس إنجليزي حاقد، وماذا تنتظر من تربية يخطط لها ذلك القس نفسه؟ لقد تساءلنا هناك سؤالاً هو هذا أو هو قريب من هذا. ونتساءل هنا أيضًا قائلين: ماذا تتوقع من مناهج تعليم وخطط تربية مازال واضعوها يترسمون خطى ذلك القس الإنجليزي الحاقد؟!

أجل ماذا تتوقع منها إلا أن تفصل (المربَّى) عن دينه جملة وتفصيلاً فتحرف الهدف من تربيته وتفسد تصوره عن الله والكون والإنسان والحياة، وتميت فيه الشعور بالتميز والإحساس بالأصالة والاستقلالية. فإذا كنا راغبين في إصلاح أوضاعنا الفاسدة ـ ومنها وضع التربية والتعليم ـ فلابد من إصلاح القاعدة التي ترتكز عليها تلك الأوضاع؛ أن نعيد النظر في تصوراتنا الفاسدة فنصححها ونقيمها على أساس من عقيدتنا التي نؤمن بها فنُحْكِمُ علاقتنا بالله وبرسوله ﷺ وبكتابه، ونبني كل أوجه حياتنا على ذلك الأساس وعلى ذلك المرتكز فنبادر ـ في حقل التربية والتعليم موضوع حديثنا الآن ـ إلى إلغاء كل خطة تتعارض مع أي جزء من عقيدتنا، بل إلى إلغاء أي جزء من تلك الخطط مهما بدا لنا ضئيلاً عديم الأهمية؛ ما دام يتعارض مع أي جزء من أصول اعتقادنا.

هذا أمر لابد منه ولا يقبل الجدل ولا النقاش، وما لم نفعله بل ونبادر إليه فلن يستقيم أمر تلك التربية ولا ذلك التعليم، ولن يكون معبِّراً عنا ولا محققًا لتطلعاتنا ولا مرضيًا عنا ربنا ـ في المقام الأول ـ مهما بررنا ومهما حشدنا لذلك

من الحجج والحيل والمعاذير ؛ من رغبة في (المعاصرة) وحرص على المواءمة وتصور لسماحة الإسلام ويسر الإسلام بل (وتطور الإسلام) كذلك، فكل الذي نحتج به ونمتحله من الأعذار حينما ننكص على أعقابنا عن تنفيذ مبادئ وتعاليم ديننا في كل مجال من مجالات حياتنا من اقتصاد وسياسة وتربية وتعليم وإعلام . . . إلخ. كل ذلك لن يغني عنا فتيلاً ولن ينفعنا ولن يُقْبَل منها؛ لأنها حجج داحضة ومعاذير واهية ومبررات ساقطة لا تقوم على ساق .

إن الإسلام لا يتنازل أبدًا عن مطالبته للمسلم (بالتميز) واستقلال الشخصية بناء على تميزه واستقلاله في مجال التصور والاعتقاد، ذلك أن المسلم إنما تقوم حياته - إذا كان مسلمًا حقًا - على أساس عبوديته الكاملة لله رب العالمين ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، بينما تقوم حياة غير المسلم في عصرنا الحاضر على الأخص على أساس عبوديته للمادة - بأشكالها المختلفة - فأي فرق بين الأساسين؟! أي اختلاف؟! إنه لفرق مثلما بين السماء والأرض، وإنه لاختلاف كاختلاف الليل والنهار.

فإذا بلغ الفرق والاختلاف بين المسلم وغيره في الأساس الذي تقوم عليه حياة كل منهما هذا المبلغ العظيم أفيجوز ألا تفترق مناهج كل منهما في الحياة؟! أفيجوز أن يتشابها في الأفكار والمفاهيم والنظم والمعايير؟ أفيجوز أن تتشابه خطط كل منهما في أي شأن من شئون الحياة؟ أفيجوز بأي حال من الأحوال أن يكون إعلام هذا كإعلام ذاك؟ أو سياسة هذا كسياسة ذاك؟ أو اقتصاد هذا كاقتصاد ذاك؟ أو تربية هذا وتعليمه كتربية ذاك وتعليمه؟ وهلم جراً.

والجواب المنطقي الذي لا يصح غيره أنه لا يجوز شيء من ذلك البتة، بل يجب أن يظل الفرق بينهما قائمًا في كل تلك المناحي المتعددة من أوجه السلوك

مثلما هو الفرق قائم بينهما في أساس التصور وأصول الاعتقاد. وفي مجال حديثنا الذي نحن بصدده نؤكد أنه لا يجوز لأمة رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً - أن تبني نظامها التربوي والتعليمي على ما يخالف أصلاً من أصول دينها، ولا يجوز لها أن تتلقى من شرق أو غرب أية خطة في هذا المجال فتطبقها على عواهنها، وتأخذ بها كما هي، وتضعها موضع التنفيذ دون تمحيص وغربلة ومراجعة وتفنيد - لخطورة ما يترتب على ذلك من تخريج أجيال منحرفة عن خط إسلامها بقدر ما في تلك الخطط التي طبقت في تعليمهم وتربيتهم من انحراف.

والخطورة تتضح لنا أكثر إذا علمنا أن تلك الأجيال هم عصب الأمة الذي به تقوم وعليه تعتمد، وأنهم هم الذين سيتولون القيادة وسيمسكون بالزمام في قادم الأيام. فإذا كانوا نتائج تربية وتعليم منحرفين فأيَّ شيء سيكونون؟! وقبل أن تفكر في الجواب تذكر المثل العربي الذي يقول: «إنك لا تجني من الشوك العنب»، وقول الشاعر الحكيم:

وهل يستقيم الظل والعود أعوج؟!

ولقد ركزنا على الخطط لأهميتها وشمولها لكل وسائل التربية والتعليم من المعلم والكتاب المدرسي والمنهج الدراسي ووسائل الإيضاح، وغير ذلك من النشاط غير المنهجي وخلافه، فالذي يضع خطة تربوية أو تعليمية يضعها لتلك الأشياء جميعًا.

ذلك كله عن الخلل الكبير الواقع في ميدان التربية والتعليم في البلاد الإسلامية في العصر الحاضر، فماذا عن الدور الذي يمكن أن يمارسه هذا الميدان الحيوي الهام في عملية معالجة ظاهرة الهزيمة النفسية في الأمة بعد إصلاح خلله ذاك.

لا شك أن ميدانًا حيويًا هاماً كهذا الميدان قادر على الإسهام بشكل كبير - بل قل لا مثيل له - في مسألة المعالجة تلك عبر وسائله المختلفة، التي سنحاول الإيماء إليها فيما يلي بشيء من التفصيل الموجز حتى لا يطول بنا الحديث.

نحن نعلم - بادئ ذي بدء - أن ميدان التربية والتعليم موجه لخدمة نخبة الأمة وعصارتها - إن صح التعبير - وهم أبناؤها وشبابها، وبالتالي فإن أي جهد يبذل في سبيل معالجة ظاهرة الهزيمة سيفيد فائدة مضاعفة في شفاء تلك النخبة منها وهم الشباب.

أولاً: في مساهمتهم هم خلال دراستهم وبعد تخرجهم في معالجة المصابين بداء الهزيمة النفسية العضال من غيرهم من سائر طبقات الأمة؛ إذ سينطلقون في مجتمعهم أثناء دراستهم وبعدها مبشرين بعظمة دينهم وعزته وضرورة المحافظة عليه، والعض عليه بالنواجذ والاستمساك بعروته الوثقى، والسير على هدي تعاليمه الكريمة ومبادئه السامية.

وسيتلون على مسامع غيرهم أخبار تلك القرون الخوالي التي كان فيها الإسلام عالي الأركان، شامخ البنيان، عظيم السلطان، ينطق بمجده كل شبر في أرض الله الواسعة، ويحمله في صدورهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وسيتلون على سمع الزمان كذلك وعلى مسامع قومهم المنهزمين وغير قومهم سيرة نبيهم الكريم ﷺ وأخبار صحابته الكرام وتابعيهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين، فتعلم الدنيا ويتيقن القريب والبعيد أن البطولات لم تكن إلا لنا، وأن الأمجاد لم تكن إلا من صنعنا، وأن العزة أول سمة من سماتنا فعزتنا مستمدة من عزة الله مقرونة بها ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ

الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

إنهم سينطلقون مبشرين بكل ذلك وبما هو أكثر منه، وسيقولون لقومهم أولاً ولغير قومهم ثانيًا: إنه لا عزة إلا في الإسلام، ولا نصر إلا بالإسلام، ولا تقدم حقيقيًا إلا بالإسلام وتحت ظلاله، وسيقدمون الأدلة الدامغة والحجج المبنية على صحة ذلك؛ فليس كلامهم دعوى بلا دليل بل هي الدعوى التي تسندها الأدلة البينات والحجج الواضحات، سيقولون لقومهم وللناس: قارنوا بين واقعنا نحن المسلمين اليوم وواقع قرون خلت من تاريخنا والفرق وحده هو الدليل.

لقد جاء الإسلام والعرب أمة تافهة حقيرة لا يعترف بها ولا قيمة لها في موازين الأمم، وصنع من الحفاة الرعاة سادة للإنسانية وصُنَّاعًا للحضارة، دكُّوا عرشي كسرى وقيصر، ودمروا عنجهية الفرس والرومان، ونشروا دين الله في أرض الدولتين اللتين كانتا تقتسمان العالم يومذاك تمامًا كما تقتسمه اليوم أمريكا وروسيا. كان ذلك يوم كان الإسلام يعيش في قلوبهم وفي كل جارحة من جوارحهم، يعيشون به ويعيشون له؛ لم يكن لهم من إله إلا الله، ولا من دستور غير القرآن، ولا من معلم غير محمد بن عبد الله ﷺ.

وحين خلفت خلوفنا نحن وتبدل كل شيء من ذلك وتغير -في الغالب الأعم-، فلم يعد الإسلام يعيش في قلوبنا وجوارحنا ولم نعد نعيش به ونحيا له، واتخذ كثير منا إلهه هواه، ودساتير شرقية وغربية غير القرآن، ومعلمين شرقيين وغربيين غير محمد ﷺ.

لما تغيرت حالنا عن حال أصحاب محمد ﷺ فأصبحنا كأعدائنا؛ فدساتيرنا مستمدة من دساتيرهم، ونظمنا مأخوذة من نظمهم، وأفكارنا

نسخة من أفكارهم، ومبادئنا جزء من مبادئهم. لما حدث ذلك حدث شيء ترتب عليه وهو نتيجة حتمية له؛ إنه عجزنا عن أن نفتح حتى بيتًا من خوص، بينما أولئك فتحوا أعظم دولتين في زمانهم فارس والروم. فهل يطمع أحد المسلمين اليوم أن نفتح أمريكا أو روسيا، لا كليهما؟! لا أحد يطمع في شيء من ذلك الآن ولا يتصوره ولا يفكر في إمكانية حدوثه؛ لأنه ضد طبيعة الأشياء إنه شيء - حسب منطق الأشياء - غير معقول، بل إنه أمر لا يمكن تخيله مجرد تخيل في ظل ظروف كل منا ومنهم الآن.

فهل من سبب تُرى لقدرة أسلافنا على فتح بلاد كل من فارس والروم على قوتهما فور دخولهم الإسلام - وقد كانوا قبله أحطَّ الأمم - سوى هذا الإسلام الذي غيَّر شخصيتهم وبدل واقعهم وأقام كيانهم من جديد؟! وهل ترى في مقابل ذلك من سبب لعجزنا عن فتح حتى (بيت من الخوص) كما ذكرنا فضلاً عن أن نفكر في فتح أمريكا أو روسيا أو بريطانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو اليابان أو ما جرى مجراها من دول العالم وأمم الأرض سوى تخلينا عن هذا الإسلام ذاته الذي كان سبب نهضة الأسلاف؟! إنني لعلى يقين أن كل متأمل منصف سيجيب عن سؤالنا الأول بأنه ليس من سبب سوى الإسلام، وسيجيب عن سؤالنا الثاني أيضًا بأنه ليس من سبب لذلك سوى التخلي عن الإسلام؛ فذلك هو الجواب الصحيح الوحيد لا غير.

قلنا: إن أولئك الشباب وهم نخبة الأمة وخلاصتها سيقولون لبني قومهم وللناس من ورائهم كل ذلك، وسيقدمون الدليل الدامغ على صحة ما يقولونه من كون الإسلام هو سبب العزة والمجد والتقدم الوحيد، ودليلهم كما ذكرنا هو المقارنة بين واقعين لأمة واحدة: واقع صدرها وواقع عجزها؛ واقع أولها وواقع آخرها، فواقع أولها ينبض بالحيوية والطموح والتوثب والغلبة

والنصر، وواقع آخرها هامد بفعل الذلة والمسكنة والخور والضعف والجمود والتخلف. فالإسلام الذي التزم به صدرها الأول نصًا وروحًا، قلبًا وقالبًا، عقيدة وشريعة ومنهج حياة؛ أعزهم وأعلى شأنهم وجعلهم سادة الأمم وقادة الشعوب. واللاإسلام - إن صح التعبير - هو الذي أذلنا، وحطم كياننا، وجعل بأسنا بيننا، وأذاقنا الويلات، وصرنا به أحقر الأمم وأتفه الأمم وأحط الأمم.

فإذا كان الواقع كذلك - وهو كذلك فعلاً - فإنهم - أي الشباب - سينطلقون منذرين لقومهم أيضًا بأن استمرار هجرهم لإسلامهم لن يؤدي إلا إلى مزيد من الضياع والتيه والانحدار، وإن عليهم إن أرادوا الارتفاع والعزة والعودة إلى أستاذية العالم مرة أخرى أن يراجعوا دينهم ويعودوا إلى إسلامهم ويطردوا كل مظهر من مظاهر [اللاإسلامية] من حياتهم، فيطهّروا اقتصادهم وسياستهم وإعلامهم وتربيتهم وتعليمهم وجميع نظمهم ومختلف مجالات حياتهم من كل دخيل عليها من الكفريات من شرق أو غرب، مكتفين بما اكتفى به صدرهم الأول وسلفهم الصالح من القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ؛ ففيهما الخير كله والسعادة كلها والرقي كله، وبهما نفاخر الدنيا ونسود العالم مثلما فاخر بهما السابقون الأولون ومثلما سادوا بهما البر والبحر والحضر والمدر.

هذا كله سيقوله شبابنا الذين تغص بهم المدارس والمعاهد والجامعات في شتى بلاد المسلمين، سيقولونه لأقوامهم ثم لمن وراء أقوامهم بعد أن يكونوا هم وعوه حق الوعي وفهموه حق الفهم وآمنوا به حق الإيمان. ولكن كيف يتحقق ذلك كله - أعني وعيهم له وفهمهم إياه وإيمانهم به؟ ذلك ما سنفصل القول فيه فيما يلي من سطور.

معلوم لدى المطلعين والمختصين أن هنالك شيئًا يسمى (نظام التعليم) يشمل كل ما يتعلق بالعملية التربوية والتعليمية بأركانها الخمسة، وهي:

المعلم، والطالب، والمنهاج ،والكتاب المدرسي، ووسائل الإيضاح- وأن ذلك النظام حين يوضع يراعي فيه واضعوه حاجات الأمة وتطلعاتها وأهدافها وقبل ذلك عقيدتها ونظام حياتها؛ بحيث يكون منسجماً مع تلك العقيدة التي تدين بها الأمة مشبعًا لحاجتها محققًا لتطلعاتها وآمالها، مما يجعل النظام التعليمي لأمة ما لا يصلح لأمة أخرى تختلف عنها في العقيدة ونظام الحياة كما تختلف عنها في الحاجات والأهداف والتطلعات، ولو حدث وأخذت أمة نظام أمة أخرى فطبقته على ناشئتها لكانت بذلك تهدي ناشئتها لتلك الأمة التي طبقت نظامها التعليمي؛ لأنهم حينئذ سيكونون مرتبطين بتلك الأمة التي نشؤوا على نظامها التعليمي أكثر من ارتباطهم بأمتهم، ينقادون إلى فكرها أكثر من انقيادهم إلى فكر أمتهم، ويميلون إلى لغتها أكثر من ميلهم إلى لغتهم الأصلية.

كل ذلك يحدث ويحدث ما هو أكثر منه وهو أنهم سيرتبطون بهذا النظام التعليمي الذي تعلموا بموجبه ونشؤوا عليه وسيضمنون ديمومته وسيجعلونه في المقام الأرفع والمحل الأسنى، وسيكونون أوصياء عليه يتابعون تنفيذه ويعمقون في أمتهم أصوله وفروعه، وبذلك تسترقّ الأمة على أيدي أبنائها وتخرب بيتها بيديها؛ إذ لن تستطيع التخلص من ذلك النظام ما دام أن كل جيل سيسلم الوصاية عليه ومسئولية حمايته ومتابعة تنفيذه إلى الجيل الذي يليه، وأنى لها والأمر كذلك أن تخلص نفسها من ورطتها إلا بعناء بالغ وتضحيات كبيرة وجهد جهيد؟!

أرأيت مدى خطورة تساهل الأمة في الأخذ بنظام تعليمي لم يُفصَّل لها وليست مقاييسه موافقة لمقاييسها؟ وكم من المآسي يجرها عليها ذلك الاستجداء البغيض والاستخذاء الأرعن؟!

لذلك يُحذِّر المصلحون في كل أمة من مغبة ذلك وينصحون أمتهم

بالاستقلال التام في بناء مناهجها الفكرية وأن تربط تلك المناهج بعقيدتها، كما ينصحونها بالتميز في جميع أنظمتها وعلى الأخص نظام التعليم الذي يتخرج على أساسه بنوها وبناتها، وعلى ذلك الأساس الذي يبنى عليه ذلك النظام ويقوم عليه تكون السلامة أو الهلاك، والنجاة أو الغرق.

وقد تحدث (محمد أسد) عن هذا الموضوع حديث خبير لكونه غربيًا نمساويًا ثم أسلم، فكتب عن خبرة واسعة بنتائج نظام التعليم الغربي في الشرق، وذلك في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» حيث يقول عن سوء عاقبة تدريس الأدب الأوروبي في البلاد الإسلامية: «إن الإغراق الذي لا حد له في قدر قيمته يحمل العقول الناشئة الغضة بطبيعة الحال على أن تتشرب روح المدنية الغربية بثقة عمياء واندفاع كبير، قبل أن يتاح لها أن تعرف النواحي السلبية فيها معرفة كافية، وهكذا لا تكون الطريق معبدة لحب ذلك الأدب حبًا عذريًا فقط ولكن لتساعد على التقليد العملي لتلك المدنية الغربية التي لا يمكن أن تتفق مع روح الإسلام»[1].

ثم يقول عن آثار تدريس الأدب الأوروبي في بلاد المسلمين أيضًا: «إن تعليم الأدب الأوروبي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود إلى جعل الإسلام غريبًا في عيون الناشئة المسلمة، ومثل هذا ـ ولكن إلى حد أبعد ـ يصدق على التعليل الأوروبي للتاريخ العام إذ لا يزال الموقف القديم فيه «رومانيون وبرابرة» يظهر بجلاء، ثم إن لمثل هذا العرض في التاريخ هدفًا خفيًا؛ ذلك أن يدلل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شيء جاء أو يمكن أن يجيء إلى هذا العالم»[2].

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص٧٤.
(٢) المرجع السابق.

وبعد أن يذكر أن الأوروبيين يسعون بهذا إلى تبرير سعيهم للسيطرة والقوة المادية، وأنهم منذ أيام الرومان ما زالوا ينظرون إلى أنهم الجنس المتفوق وأن تطور العالم لا يمكن أن ينظر إليه إلا على أساس تجاربهم الثقافية، وأنهم بناء على ذلك لم يعتنوا بغير تاريخهم ولم يحسبوا لغير شعوبهم حسابًا، وأنهم يحاولون من خلال ذلك الإيماء بأن العالم قد أوجد من أجل أوروبا ومدنيتها فقط.

بعد أن ذكر ما أوجزناه قال: «أما التأثير الوحيد الذي يمكن أن يتركه مثل هذا التثقيف التاريخي في عقول الأحداث عن غير الشعوب الأوروبية، فإنما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصة وبماضيهم التاريخي الخاص وبالفرص السانحة لهم في المستقبل، وهكذا يتربون تربية منظمة على احتقار ماضيهم ومستقبلهم اللهم إلا إذا كان مستقبلاً مستسلمًا للمثل العليا الغربية»[1].

ثم يقول صارخًا بحماس المسلم الخبير وغيرته الصادقة: «إذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا يستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم من غير وازع ما، إن كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لا يوازن بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة. إذا أردنا أن نحفظ حقيقة الإسلام على أنها عنصر ثقافي؛ فيجب علينا أن نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربية ذلك الجو الذي أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا، وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون تدريجيًا مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية. إن تقليد المظاهر الخارجية

(١) المرجع السابق ص٧٦.

يقود شيئًا فشيئًا إلى تقبل الميل العقلي المصاحب لذلك»[1] .

إنه يقول هذا الكلام عندما ألف كتابه عام ١٩٤٦م فكيف لو رأى تأثير الغرب فينا اليوم بعد نصف قرن من الزمان؟؟ وحديث محمد أسد هذا إنما هو حديث المسلم الذي أحب إسلامه، فاشتعل حماسًا وغيرة على المسلمين وقد أصبحوا إخوته في العقيدة أن يقلدوا في أخطر شيء في حياتهم وهو (نظامهم التعليمي) أعداءَهم الغربيين الذين كان هو منهم قبل هداية الله له إلى الإسلام، ولذلك قلنا: إن حديثه عن ذلك الأمر حديث الخبير.

إن مما يؤكد ما ذهب إليه محمد أسد في كلامه الذي نقلناه من أن تقليدنا للنظام التعليمي الغربي سيحدث تأثيرًا مميتًا في قوى الإسلام الكامنة، ما قاله المستشرق الإنجليزي وأحد مستشاري وزارة الخارجية الإنجليزية آنذاك (هـ. أ. ر جيب) والذي كان ـ وياللعجب ـ عضوًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة يومذاك!! قال جيب هذا في كتاب «إلى أين يتجه الإسلام؟»، وهو كتاب ألفه جماعة من المستشرقين وقام «جيب» هذا بالإشراف على جمعه وتأليف بحوثه والتقديم لها والتعقيب عليها.

قال عن أهمية أخذ المسلمين بنظام التعليم الغربي في (تغريبهم وفرنجتهم) ما يلي: «والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب أو الفرنجة هو أن نتبين إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية وعلى التفكير الغربي، والأساس الأول هو أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية وعلى التفكير الغربي. هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره»، ثم يقول: «وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي

(١) المرجع السابق ص٧٨.

في العالم الإسلامي، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين»[١].

فهل بعد تصريح «جيب» هذا من تصريح؟ إنهم يعتبرون جريان التعليم في العالم الإسلامي كله على الأسلوب الغربي وليس الأسلوب فقط، بل (والمبادئ الغربية)، وليس ذلك فقط بل (والتفكير الغربي) أيضًا - يعتبرون جريانه على ذلك كله السبيل الوحيد للحكم على مدى تغريب ذلك العالم الإسلامي المسكين وفرنجته!!

وليس ذلك غريبًا علينا ونحن نسمع ونقرأ قول ربنا سبحانه عنهم في كتابه العزيز الذي بين أيدينا: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [النساء: ٨٩]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩]، وقوله جل ثناؤه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولكن رغم تحذير القرآن الكريم للمسلمين وكشفه لنوايا أعدائهم من اليهود والنصارى في جرِّهم إلى الكفر وإخراجهم من الهدى إلى الضلال، ورغم صيحات المخلصين من أبناء الأمة؛ فإن هذا الأمر الخطير المتمثل في استقاء نظام تعليمي لا يصلح للأمة ولا يتفق مع عقيدتها ولا يشبع حاجاتها ولا يحقق آمالها - هو ما وقعت فيه - مع الأسف الشديد - أمتنا الإسلامية رغم تحذير الناصحين وصيحاتهم كمحمد أسد وأمثاله؛ إذ أخذت النظام التعليمي الغربي بخيره وشره وحلوه ومره ووجوه الحسن فيه ووجوه القبح جميعًا

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج٢ ص٢١٦ - ٢١٧ (الناشر مؤسسة الرسالة).

فطبقته على ناشئتها مثلما كان يطبقه المحتل الغاشم يوم كان يجثم على مختلف البلاد الإسلامية سواء بسواء!! فماذا كانت نتيجة ذلك؟

لقد كانت النتيجة أن تخرجت أجيال من المسلمين على هذا النظام بولاء غربي وفكر غربي ولغة غربية وارتباط بالغرب من الألف إلى الياء - كما يقولون -، فكأن الأمة الإسلامية أهدتهم إلى الغربيين إهداءً، بل لكأنها تنازلت عنهم للغرب فصاروا كأبنائه، بل هم منهم أشد به تعلقًا وله حبآ. ولو أن أمم الغرب مجتمعة بذلت ما تملك وما لا تملك لما تحقق لها مثلما تحقق لها من جراء تطبيق المسلمين لنظامها التعليمي من الفوائد الجُلى والمكاسب التي لا تقع تحت حصر!!

وإذًا فالنظام التعليمي المستقل ضرورة قصوى لا تقبل التأخير بل «إننا في البلاد الإسلامية - كما يقول الشيخ العلامة أبو الحسن الندوي - في حاجة ملحة إلى نظام تعليمي إسلامي في الروح والوضع والسبك والترتيب، لا يخلو كتاب من الكتب التي تعلم مبادئ اللغة إلى آخر كتاب يدرس في العلوم الطبيعية أو الآداب الإنجليزية من روح الدين والإيمان، هذا إذا أردنا أن ينشأ جيل جديد يفكر بالعقل الإسلامي، ويكتب بقلم مسلم، ويدير دفة البلاد بسيرة مسلم وخلقه، ويدبر سياسة التعليم والمالية بمقدرة مسلم وبصيرة مسلم، وتكون البلاد الإسلامية إسلامية حقاً في عقلها وتفكيرها وسياستها وماليتها وتعليمها، إذًا فوضع هذا المنهاج التعليمي من حاجات البلاد الإسلامية الأولى التي لا يسعها التغافل عنها والتساهل فيها»[1].

هذا عن النظام التعليمي جملة أما عن محتويات هذا النظام فنقول: إن

---

(١) التربية الإسلامية الحرة ص١١.

المعلم يأتي في مقدمة أركان النظام التعليمي والعملية التعليمية والتربوية، ودوره في هذه العملية دور خطير لأنه أشبه بالربان الذي يقود السفينة وبيده إنجاؤها أو إغراقها، فواجب النظام التعليمي الإسلامي أن يعتني بإيجاد المعلم القادر على صياغة جيل إسلامي فريد، ولن يستطيع ذلك إلا إذا كان هو على ذلك المستوى الرفيع من فهمه الإسلام وحبه له واعتزازه به واستعداده للتضحية في سبيله؛ إذا كان يعتبر مشاركته في العملية التعليمية رسالة يؤديها لا وظيفة يقوم بها، إذا كان يشعر وهو يقوم بدوره في هذه العملية البالغة الأهمية أنه إنما يسهم في إعلاء راية دينه ورفع صرح إسلامه بما يقدمه لصفوف الأمة من شباب صادق الإيمان متقدي الحماس حباً لدينهم وغيرةً عليه وتفانياً في سبيله.

هذا المعلم وحده بهذه المواصفات هو القادر على صياغة الجيل الإسلامي المنشود، وهو القادر على بناء القاعدة الكبرى لنهضة إسلامية قوية عمادها شباب مخلصون صادقون واعون فخورون بانتمائهم إلى الإسلام، حريصون على نشره في الآفاق وإبلاغ دعوته إلى كل صقع وإيصال صوته إلى كل أذن.

وهذا المعلم ذو المواصفات التي أشرنا إليها هو الذي ينبغي علينا ونحن نريد أن نعالج مرض الأمة الفتاك المتمثل في هزيمتها النفسية أن نبحث عنه وأن نحرص عليه، وأن نعده الإعداد المناسب ليقوم بدوره الخطير في العملية التعليمية والتربوية خير قيام، ولسنا نتصور أن اختيار ذلك الطراز من المعلمين أمر سهل أو ميسور بل إننا لنردد مع شيخنا أبي الحسن الندوي قوله عن ذلك: «إذاً فقضية اختيار المعلمين ليست بسيطة سهلة كما يظن كثير من رجال المعارف، ليس أساسه العلم وحده والمقدرة التعليمية والمؤهلات العلمية

فحسب، بل يجب أن تكون للسيرة والخلق والمبدأ والغاية والإيمان والعقيدة المكانة الأولى والأهمية الكبرى في اختيار المعلم، ويجب أن تكون هذه العقيدة متغلغلة في الأحشاء قد ملكت عليه فكره ومشاعره وجعلت منه داعية لا يمل ولا يكل، مؤمنًا لا يرتاب ولا يتشكك، وذلك مثل المعلم الكامل الذي يسعد به نظام التعليم ويؤدي مهمته بنجاح وسهولة»(١).

وإذا استطعنا أن نوجد ذلك الطراز المفيد من المعلمين بمواصفاتهم التي أشرنا إلى طرف منها، وجب علينا كذلك أن نوجد الكتاب المدرسي المحقق لأهدافنا والمتمشي مع منهجنا الإسلامي الذي تصطبغ به حياتنا كلها ـ وهذا ما يجب أن يكون ـ، الكتاب المدرسي الذي يستمد أمثلته من قرآننا وسنة نبينا وآثار أمتنا الخالدة من نثر وشعر؛ الكتاب المدرسي الذي يربط الأسباب بالمسببات ويُرْجِعُ كل شيء إلى أصله، ويعلق نظر الطالب في كل ما يتناوله بخالقه مبدع هذا الكون ومدبر أمره والمتصرف الوحيد في كل شأن من شئونه تبارك وتعالى؛ الكتاب المدرسي الذي لا يوجد فيه موضوع ولا صفحة ولا سطر ولا كلمة ولا حرف يتعارض مع شيء مما جاء به ديننا نفيًا أو إثباتًا؛ الكتاب المدرسي الذي لا تقوم قواعده على نظريات شرق أو غرب وإنما تقوم على أساس تعاليم القرآن والسنة الصحيحة الثابتة وآثار علماء الأمة الصالحين، ولا يتناول تلك النظريات الشرقية أو الغربية إلا من باب التفنيد والدحض والإبطال؛ الكتاب المدرسي الذي إذا تصفحه قارئه أحس بانتمائه إلى هذه الأمة وتعبيره عن آمالها وتمشيه مع روح دينها ونصوص قرآنها وسنة نبيها.

هذا هو الكتاب المدرسي المطلوب في نظام التعليم الإسلامي لصنع جيل

---

(١) المصدر السابق.

مسلم بحق، ربُّه الله، وإمامه محمد بن عبد الله، ودستوره القرآن، ودينه الإسلام هو منطلقه وهو قاعدته وهو مبتدؤه وهو منتهاه.

وأما المنهج الدراسي الذي ينبغي استبداله بمناهجنا التعليمية السائدة في عالمنا الإسلامي ـ فهو ذلك المنهج الذي يضع مواد تعليم الإسلام وترسيخه في نفوس الناشئة في المقام الأول فلا يقدم عليها أية مواد أخرى، فتلك المواد التي تعلم الإسلام وتعمق مفهومه وترسخ حبه والاعتزاز به في قلوب ناشئة المسلمين هي الأصل وهي الأساس في منهج تعليم أمة مسلمة، فلا ينبغي تجاهلها بل لا يجوز إغفالها أو تأخيرها في المنهج التعليمي بحال من الأحوال.

يجب أن يشتمل ذلك المنهج الإصلاحي المقترح على مادة لتعليم القرآن الكريم وتفسيره وربطه بالحياة المعاصرة، عن طريق إخضاع الظواهر المختلفة لمنطق القرآن لا إخضاع النص القرآني لتلك الظواهر إذ هو الأصل وهي ليست كذلك، وهو الحق والحق أحق أن يتبع. ويجب أن يشتمل ذلك المنهج على مادة لتعليم سنة رسول الله ﷺ (بألفاظها وأفعالها وصفاتها وتقريراتها)؛ فلا نكتفي بجملة أحاديث يهذها ـ مدرس ما ـ هذاً في استعجال ودون تأمل أو تبصر أو استنتاج عبر ودروس منها، وإنما نقرر منهجًا متكاملاً لمادة السنة النبوية نعلم فيها ناشئتنا كيف كان سلوك النبي ﷺ في كل لحظة من ليل أو نهار؟ كيف كانت عبادته؟ كيف كانت علاقته بربه؟ كيف كانت علاقته بأهله؟ كيف كانت علاقته بأصحابه؟ كيف كانت علاقته بأعدائه؟ كيف كان يمارس حياته في دقيقها وجليلها؟ نُعلِّم ذلك كله لناشئتنا ليتخذوه ﷺ أسوتهم فيما يأتون أو يذرون تطبيقًا لقول الله لعموم المسلمين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فإن كنا نرجو الله واليوم الآخر حقاً فلابد من وضع هذه المادة الهامة بل البالغة الأهمية تحت أي اسم نختاره (كالسنة النبوية) أو (السيرة النبوية)، أو ما شابه ذلك مما يؤدي الغرض ويدل على المقصود.

ويجب أن يشتمل منهجنا التعليمي الإسلامي بالإضافة إلى ذلك على مادة تعلم ناشئتنا تاريخ صحابة نبيهم ومواقفهم البطولية وتضحياتهم الجسام، وصفحات طويلة من الأمجاد سطروها باللسان والسنان تبعث في الناشئة حب أولئك الرجال الأفذاذ الذين قام هذا الدين على سواعدهم ونشروه في شرق الأرض وغربها، أولئك الرجال الذين كانوا رهبانًا بالليل أسودًا بالنهار، فكانوا مبعث الفخر للأمة التي ينتسبون إليها بل تنتسب إليهم.

أولئك الأبطال الميامين الذين لو كانوا من نصيب أية أمة - غير أمتنا - لسجلوا تاريخهم بماء الذهب ونشروه في الخافقين بكل اعتزاز وفخر وخيلاء، بل إن تلك الأمم جميعًا لتفاخر برجال ليسوا إلا خدمًا لأمثال أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي أو حمزة أو سعد بن معاذ أو عبد الرحمن بن عوف أو الزبير أو سعد بن أبي وقاص أو معاذ بن جبل أو مصعب بن عمير أو زيد بن حارثة أو أسامة بن زيد أو عمير بن الحمام أو ابني عفراء أو خالد بن الوليد أو عمرو بن العاص أو القعقاع بن عمرو أو العباس بن عبد المطلب أو عبد الله بن عباس أو عبد الله بن مسعود أو موسى بن نصير أو عقبة بن نافع أو طارق بن زياد، أو غير هؤلاء العظماء من رجالات الإسلام البررة في كل عصر ومصر، من صحابة كرام وتابعين عظام وتابعيهم بإحسان على درب الإسلام الخالد العظيم.

أجل إنها لتفاخر وتشيد وتُعلِّم ناشئتها وتنشئهم على حب وتعظيم من ليسوا إلا خدمًا لأمثال هؤلاء العظماء، فهل يليق بأمة يملك تاريخها مثل

هؤلاء أن تزورَّ عنهم وأن تهمل تاريخهم، وأن تترك صحائف مجدهم في زوايا الإهمال والنسيان؟! لا والله لا يليق بل إنها إن فعلت تكون قد عقَّت أولئك وأساءت إلى نفسها ومكنت عدوها منها بمحض إرادتها، (وهذا ما هو حاصل الآن مع الأسف الشديد) من أمتنا في حق رجالاتها الأخيار.

ويجب أن يشتمل منهاجنا الدراسي الإسلامي إضافة إلى ما تقدم على مادة تعمق في الطالب المسلم مفهوم الاعتزاز بالإسلام والمفاخرة به، وتوقظ في قلبه وحسه وشعوره ضرورة التمسك به والمحافظة عليه والدعوة إليه، وتوقدَ في كيانه كله شعلة الحماس له غيرةً عليه وحباً له وفداءً له بالنفس والنفيس وتضحيةً في سبيله ومن أجله.

أجل يجب أن يشتمل منهجنا التعليمي الإسلامي على مادة تتضمن ذلك كله في سبيل بعث ما خمد من ذلك كله في قلوب طلابنا، ومن أجل تحريك ما سكن من ذلك في نفوس أبنائنا؛ ذلك أن الاعتزاز بالإسلام اليوم غير موجود والحماس له شبه مفقود، فلابد من إيجاد مادة ترمي إلى ما أشرنا إليه وتحقق ما ذكرناه، وليكن اسمها مثلاً (العزة الإسلامية)، أو (حب الإسلام) أو ما هو نحو ذلك من الأسماء المعبرة عن محتوى المادة ومقصودها وفحواها.

ومع تخصيص مواد محددة للقرآن الكريم بالطريقة التي أشرنا إليها وللسنة النبوية والسيرة النبوية ولتاريخ الصحابة ورجال الإسلام وعظمائه وللعزة الإسلامية، فإن الواجب يقتضي أن تكون جميع المواد الدراسية في المنهج التعليمي الإسلامي؛ خاضعة للمعايير الإسلامية متمشية مع عقيدة الأمة وهي الإسلام، وأن تكون كل مادة من تلك المواد معبرة عن تلك العقيدة مرتبطة في مجال اختصاصها بها وشارحة لها ومنطلقة منها، كل مادة بلا استثناء.

فالعلوم الطبيعية يجب أن يستشف منها الطالب قدرة الله وعظمته وتصريفه المطلق للكون وما فيه، وخضوع كل ذرة في ذلك الكون لمشيئة الله وسننه التي لا تتبدل ولا تتحول، والتاريخ العام يجب أن يدل الطالب على مواضع العظة والاعتبار بمصائر الأمم السالفة وبجميع ما يدرسه الطالب من أحداث التاريخ المختلفة وما يمر به من قصصه الكثيرة؛ فيكون تدريس التاريخ لهدف سام نبيل لا لمجرد العرض الباهت أو لغرض قومي أو إقليمي أو نحو ذلك، والجغرافيا يجب أن تربط في ذهن الطالب بين الظواهر الطبيعية التي يدرسها من جبال وهضاب وأنهار وبحار وسهول ومرتفعات ومنخفضات ومناخ وتضاريس، وبين قدرة الله التي لا تحد وحكمته التي لا تخفى على اللبيب من مظاهر خلقه المتعددة.

وهكذا كل مادة من مواد المنهاج الدراسي الإسلامي تكون مرتبطة بالدين خادمة له معمقة لمغزاه في أذهان الطلاب، لا أن تكون متعارضة معه متنافرة مع مقاصده مصطدمة مع نصوصه وأحكامه، كما هي حال الكثير من مناهجنا الدراسية في طول بلادنا الإسلامية وعرضها، تلك التي يغص الكثير منها بنظريات كفرية تتعارض مع عقيدتنا وتصطدم بإسلامنا وتناقض نصوص قرآننا وسنة نبينا ﷺ في تحد صارخ وبشكل سافر مكشوف، ولو أردنا أن نمثل لمثلنا بنظرية «دارون» ـ نظرية النشوء والارتقاء ـ التي تخرجت أجيال من أبناء الإسلام وراء أجيال وهي تُدرَّس لهم وتُعمَّق في وجدانهم مع مناقضتها لنصوص القرآن الكريم التي تؤكد خلق الإنسان من طين في أصله ثم من ماء مهين في نسله.

إننا بمثل هذا المنهج الإسلامي المتميز وبمثل ذلك النظام التعليمي الإسلامي الفريد نجعل التربية والتعليم ميدانًا يخدم ديننا، ويسهم في إصلاح أمتنا، ويحقق لشعوبنا الإسلامية سعادة الحال والمآل وهناء الحاضر والمستقبل.

وبمثل هذا النظام وذلك المنهج نوجد الطالب المسلم بحق، مسلم القلب والقالب، المسلم الذي فهم حقائق دينه وعرف أصوله وفروعه فأحبه واعتز به وتحمس له واستعد للدفاع عنه والتضحية من أجله والدعوة إليه والعمل على نشره في الآفاق، وبذلك نستأصل هزيمة الأمة من جذورها ونقتلع تبعيتها لأعدائها من أساسها؛ لأن نُخْبَتَها - آنذاك - وهم شبابها - لن يستشعروا غير العزة، ولن يكون لهم إله إلا الله ولا إمام غير رسول الله ولا دستور سوى كتاب الله، شباب يرون أنفسهم خلف خير سلف وأحفاد خير أجداد وأتباع خير دين، ويرون أن كل ما عدا الإسلام لا شيء؛ إذ هو الحق وما عداه باطل وهو الهدى وما سواه ضلال، وأن مهمتهم بعد منة الله عليهم بهذا الدين أن يبثوه في الخافقين وينشروه في المشرق والمغرب.

* * *

المبحث الثاني
طريق التوعية والإرشاد (الإعلام)

أما الطريق الثاني الذي اخترناه من طرائق العلاج فهو طريق التوعية والإرشاد بكل وسيلة متاحة من وسائل الإعلام، وبكل أداة ممكنة من أدوات الاتصال عبر المسجد من خلال خطبة الجمعة والدرس المُركَّز، وعبر الكتاب الجيد وعبر النشرة والمُلْصَق والفيلم والتمثيلية والبرنامج والخبر والتعليق، وعبر الصحيفة والمجلة بالمقال الهادف والقصة والرواية التاريخيتين والقصيدة ذات الأبعاد الدينية والتاريخية.

وباختصار نقول: عبر حملة إعلامية مركزة نستخدم فيها تلك الوسائل جميعًا وقد سخرناها لخدمة هدفنا الكبير وتحقيق غرضنا الشامل، وهو توعية جماهير الأمة بخطورة موقفهم المتخاذل الذليل وهزيمتهم النفسية أمام الغرب الغازي لهم بعنف وجلد وتخطيط، وأن هزيمتهم تلك التي يعيشونها إن استمرت ستكون مؤدية إلى نهايتهم واضمحلال أمرهم وتمزقهم شر ممزق.

ومع توعيتهم بهذا الخطر الداهم وفتح أعينهم عليه نقوم بإرشادهم إلى منابع عزتهم ومصادر كرامتهم متمثلة في كتاب ربهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد، وفي سنة نبيهم ﷺ، وتاريخ إسلامهم العظيم منذ وضع رسول الله ﷺ أول لبنة في بناء صرحه الشامخ المتين وحتى اليوم مذكرين لهم بأنهم من أمة هي خير أمة أخرجت للناس، من

الأمة الوسط، من الأمة الشهيدة على الأمم مما لا ينبغي لهم معه أن يهنوا ويهونوا ولا يذلوا ولا ينهزموا، فدينهم دين العزة وأمتهم أمة الكرامة وتاريخهم تاريخ الأمجاد والبطولات ففيم الهوان إذًا؟! وفيم الذل؟! ولم الانهزام؟!

ولكن توعية أمتنا الإسلامية بما ذكرناه وإرشادها إلى ما أشرنا إليه ـ كل ذلك يحتاج إلى جهاز إعلامي مؤمن غيور صالح في نفسه حريص على إصلاح أمته والارتقاء بها إلى مراقي المجد و العز والفلاح دنيا وأخرى، فهل جهازنا الإعلامي في مختلف بلادنا الإسلامية كذلك؟! نغالط أنفسنا ونظلم الحقيقة ونتجنى على الواقع لو قلنا: نعم؛ إذ إن الحقيقة والواقع يشهدان بأن جهازنا الإعلامي في عموم ديار الإسلام أبعد ما يكون عن الصلاح؛ صلاح الأهداف وصلاح الخطط وصلاح المادة التي تقوم عليها مختلف وسائله، وأنه تابع ذليل للإعلام الغربي أو الإعلام الشرقي ينقل عنه بلا تمحيص ولا غربلة، ويختار منه فلا يحسن الاختيار بل إنه ليختار مما قبح أكثر من اختياره لما حسن، ويمضي في ركابه محققًا لأهدافه مدمراً لأمته متنكراً لتاريخه متجاهلاً لأحكام دينه وتعاليم عقيدته ومبادئها التي تقوم عليها.

ومع خطورة الدور الذي يؤديه الإعلام بمختلف وسائله في الأمة ـ إلا أن إعلام أمتنا الإسلامية عامة لم يراع تلك الخطورة لدوره في تشكيل فكر الأمة وصياغة منهج حياتها، فانقلب من الحالة التي يجب أن يكون عليها إعلامًا قويًا بقوة مرتكزات عقيدته، عزيزاً بعزة إيمانه، أصيلاً أصالة تاريخه المشرف الممتد الزاهر المجيد، مستقلاً يستمد استقلاله من استقلال أمته في دينها الحق ومنهجها القويم، متميزاً بتميز الإسلام الخالد الذي يمثله وينتمي إليه ويخدم أمته.

تلك هي الحال التي كان يجب أن يكون عليها إعلام أمة الإسلام لكنه لم

يكن كذلك، وإنما انقلب إعلامًا هزيلاً ذليلاً تابعًا ذائبًا في إعلام الأمم الأخرى فاقدًا هويته قاطعًا علاقته بجذوره، ولذلك صار عامل هدم في أمته بدل أن يكون عامل بناء، وصار معول تدمير في أسسها وقواعدها بدل أن يكون وسيلة تعمير وتطوير.

ومثلما قلنا عند حديثنا السابق عن طريق التربية والتعليم أنه ينبغي أولاً إصلاح النظام التعليمي الإسلامي لانحرافه عن الخط الإسلامي المستقيم في الوقت الحاضر، ليمكن استخدامه - بعد صلاح أمره - في المعالجة المطلوبة لداء هزيمة الأمة النفسية - نقول أيضًا بالنسبة لنظامنا الإعلامي إنه يجب إصلاحه أولاً لانحرافه هو الآخر عن النهج الإسلامي الصحيح، ليمكننا - بعد صلاح أمره واستقامته على الجادة الإسلامية - أن نستخدمه الاستخدام الأمثل فنستفيد منه فائدة كبرى في معالجتنا لداء هزيمتنا النفسية التي نشكو منها مر الشكوى.

وأول خطوة في طريق إصلاح نظامنا الإعلامي الإسلامي هي إسناد المسئوليات الإعلامية في البلاد الإسلامية إلى عناصر إسلامية واعية ملتزمة تتمتع - بالإضافة إلى الكفاءة اللازمة في هذا الميدان - بالحماس الشديد لدينها والاعتزاز الكبير به والحرص الذي لا حدود له على نشره والشعور الكامل بمسئوليتها أمام الله عن كل كلمة تنطلق من أي جهاز من أجهزتها الإعلامية مسموعة أو مرئية أو مقروءة - إدراكًا منها لمعنى قوله تعالى: ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٨].

يلي تلك الخطوة الأولى خطوات منها:

* الانتقال من مرحلة السلبية وموقف (ردة الفعل) إلى مرحلة (الفعل) نفسه، أعني ألا نظل في موقف التلقي، ومن ثم الدفاع الهزيل، وإنما أن

نقتحم ميدان عرض إسلامنا والدعوة إلى ديننا وشرحه شرحًا جيدًا للعالم كله، مظهرين تميزه وسموه على كل ما سواه مع إبراز عيوب الأديان الباطلة والمذاهب المنحرفة وأباطيلها وتحريفاتها وتناقضاتها وخرافاتها، وإظهار نقاط الضعف والتشويه الكثيرة فيها.

ما دام أن مسمانا هو (المسلمون) ومسمى ديننا هو الإسلام وأن ذلك هو اختيار الله لنا ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨]؛ فلا ينبغي ولا يجوز أبدًا أن نتسمى باسم غيره، يجب أن يركز إعلامنا الإسلامي على هذه النقطة البالغة لما أحدثته تلك التعددية في التسميات من بلبلة في فكر الأمة ومن تمزيق لها ومن استغلال لها من قبل أعدائها المتربصين بها الدوائر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن كوننا أمة إسلامية ديننا الإسلام الذي ارتضاه الله لنا دينًا وأكمله لنا وأتم به علينا نعمته ـ يفرض علينا أن نصبغ حياتنا كلها بصبغة هذا الدين ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، وأن تكون كل أقوالنا وأفعالنا ملتزمة به منطلقة منه قائمة على مفاهيمه مرتكزة على أسسه ومبادئه وتشريعاته؛ فلا يكون جزء من حياتنا كذلك وبقية الأجزاء على غير ذلك.

أي أنه لا يجوز مثلاً أن نفرد لديننا برنامجًا أو برامج معينة ويومًا أو أيامًا معينة نلتزم من خلالها بآداب الإسلام وهدى الإسلام وتعاليم الإسلام، ونطلق لأنفسنا العنان في عدم التقيد بشيء من تلك الآداب والتعاليم وذلك الهدي فيما عداه من برامج وأيام؛ فذلك شيء يرفضه الإسلام؛ لأنه تجزئة له وهو شامل، وتخصيص له وهو عام، وتضييق لدائرته وهو أوسع الدوائر على الإطلاق.

إنها دائرة تشمل الحياة كلها منذ الصرخة الأولى وحتى النفخة الأخيرة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]؛ فلا يحق لأمة تدين بهذا الدين أن تحصره في مدرسة معينة أو جامعة معينة أو برنامج معين أو إدارة معينة، بينما بقية أنشطتها وبرامجها ومدارسها ومناهجها وجامعاتها خارجة عليه متعارضة معه مناقضة له. إن ذلك هو داء الأمم قبلنا، تلك الأمم التي كان منها من يقول: «دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر»، فليس في الإسلام شيء لقيصر وإنما قيصر وما يملك كله لله. أما الأمة التي تعزله عن مناشطها كلها وتبقي عليه في زاوية العبادة فقط، وتحصره في المسجد فقط، ثم تدعي بعد ذلك الإسلام؛ فإنها أبعد ما تكون عن الإسلام، إن بينها وبين الإسلام لأبعد مما بين المشرق والمغرب، بل لأبعد مما بين السماء والأرض!!

فكما قلنا ونحن نتحدث عن إصلاح منهاجنا الدراسي الإسلامي ليكون قادراً على معالجة الهزيمة النفسية ـ إنه يجب أن تصطبغ كل مادة دراسية وكل كتاب مدرسي بصبغة الإسلام، وأن تكون كل مادة دراسية نابعة من الإسلام دالة عليه مهتدية بهديه غير متعارضة مع شيء من نصوصه أو مناقضة لشيء من أحكامه، مثلما قلنا ذلك هناك نقول هنا أيضًا: إنه يجب صبغ كل برنامج إعلامي بصبغة الإسلام أي لا يحتوي على ما يتعارض معه أو يناقض نصوصه أو يخالف تعاليمه، سواء كان برنامجًا أو تمثيلية أو «فيلمًا» أو خبراً أو تعليقًا أو مقالاً أو تقريراً أو زاوية أو «ريبورتاجًا» أو قصة أو رواية أو قصيدة، في إذاعة أو تلفاز أو كتاب أو مجلة أو صحيفة. كل إعلامنا بمختلف وسائله يجب أن يصطبغ بتلك الصبغة إذا كنا صادقين في إيماننا، صادقين في ادعائنا.

يجب على إعلامنا أن يتميز عن إعلام الأمم الأخرى من نصرانية ويهودية ووثنية . . . إلخ؛ ذلك أن الإعلام مثل التعليم كلاهما وسيلة توجيه وإعداد وتعبئة وتهيئة لجماهير الأمة، فلابد أن يكونا معبرين عن توجهها، دالين على شخصيتها، نابعين من عقيدتها، مشيرين إلى دينها.

الإعلام والتعليم كلاهما رمز للأمة ودلالة عليها؛ بحيث تستطيع أن تميز دين الأمة وتعرف نظامها وعقيدتها إذا ألقيت نظرة على تعليمها وإعلامها فتقول من خلالهما: هذه أمة شيوعية، وتلك نصرانية، وهذه يهودية، وتلك وثنية وهكذا!!

وهذا ما هو واقع بالفعل؛ فإن كل أمة من تلك الأمم التي عددناها لينبئ كل من تعليمها وإعلامها عنها ويعبران عن شخصيتها ويدلان على دينها ومنهجها في الحياة، ويرمزان إلى عقيدتها، إلا هذه الأمة الإسلامية، فإن كلاً من (تعليمها وإعلامها) لا يدل عليها ولا يعبر عنها ولا ينبئ عن عقيدتها ولا يرمز لدينها؛ ذلك أن تعليمها وإعلامها خليط من شرق وغرب - (ونصيب الغرب أكبر) - فلا ذاتية ولا أصالة ولا استقلال ولا تميز، مثلما هي حالها في بقية نظمها الأخرى كالسياسة والاقتصاد مثلاً.

ولذا فإن من أوجب الواجبات عليها - إذا كانت صادقة في انتسابها إلى الإسلام - أن تتميز في جميع نظمها وخاصة في مجال التعليم والإعلام؛ لاتصالهما بمختلف طبقات الأمة وكونهما منبري التوجيه والبناء والإعداد والتوعية وصياغة جماهير الأمة وتشكيلها.

وإذا ما صلح الإعلام في بلادنا الإسلامية فتولاه أناس يراقبون الله ويخشونه ويرجونه، وأعدت الطاقة البشرية المدربة الملتزمة بإسلامها المعتزة به

الحريصة عليه لتسيير أعماله وتنفيذ برامجه، ومن أولئك الخبراءُ المخططون لإعلام إسلامي من أوله إلى آخره ومن ألفه إلى يائه؛ فأوجدوا البرنامج المصطبغ بالإسلام والتمثيلية التي لا تتعارض مع الإسلام، والفيلم والمسرحية والمسلسل والتقرير والخبر والكتاب والصحيفة والمجلة والنشرة والإعلان والملصق والدعاية بمواصفات إسلامية ومقاييس إسلامية ومفاهيم إسلامية. أمكن آنذاك أن نعد إعلامنا المسلم في مظهره ومخبره وشكله ومضمونه وجزئه وكله سلاحًا قويًا نحارب به كل عدو، ونكافح به كل باطل، ونقضي به على كل داء خبيث، ونعالج به كل مرض خبيث، وفي مقدمة تلك الأدواء الفتاكة والأمراض الخبيثة هزيمتنا النفسية التي تعيشها أمتنا بكل فئاتها، تلك الهزيمة التي أورثتنا الصغار وقادتنا إلى الدمار.

إننا وقد بينا أهمية هذين المرفقين ـ التعليم والإعلام ـ في علاج هذه الظاهرة الخطيرة القاتلة المتفشية في صفوف الأمة؛ لنوجِّه ـ من منطلق الحرص الشديد على مستقبل الأمة وسلامتها من كل زيغ أو انحراف ـ ما يشبه الخطاب المفتوح إلى كل مسئول بمفرده في هذين المرفقين في كل ديار الإسلام أن يتقي الله فيما ولاه من أمر الأمة، وأن يتذكر عظَم الأمانة التي وكل إليه أداؤها وأنيط به القيام بها، وأن يعلم أنه مسئول عنها ـ ولاشك ـ بين يدي ربه عز وجل في يوم تشيب لهوله الولدان، ويعض الظالم فيه على يديه ندمًا وجزعًا وحسرة.

فلينتبه كل مسئول في هذين المرفقين الهامَّين كل الانتباه وليحذر كل الحذر من أن يكون سببًا في انحراف الأمة، أو ضياع أبنائها، أو حرب دينها الذي لا عزة ولا مجد ولا انتصار لها إلا به.

إن على المسئولين عن هذين القطاعين في طول البلاد الإسلامية وعرضها مسئولية مضاعفة، وإن العبء عليهم لجِدُّ جسيم، وإن الأمانة لثقيلة؛ ذلك أنهم

يستطيعون الهدم والبناء في آن، فليكونوا أدوات بناء لكيان أمتهم لا معاول هدم لدينها وقوتها وعزتها وأمجادها، ليتقوا الله في أنفسهم أولاً ثم في أمتهم ثانيًا بالمحافظة على تمسكها بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، فإنهم إن يفعلوا ذلك يضمنوا نجاة أنفسهم أولاً من سخط الله وعذابه، ونجاة أمتهم ثانيًا من التردي في قاع الذل والهزيمة والتيه والضياع في الدنيا وعذاب الله وسخطه في الآخرة.

كما أن من المفيد ونحن نتحدث عن طرائق العلاج أن نشير إلى ما يمكن اعتباره مكملاً لما ذكرناه من الطريقين اللذين تحدثنا عنهما من طرائق العلاج (طريق التربية والتعليم وطريق الإعلام بالتوعية والإرشاد) وهذا الشيء الذي نراه مكملاً لذينك الطريقين يتمثل في طرق مساعدة لا ينبغي أن تفوتنا الإشارة إليها، وحينما نقول: (مساعدة) فإننا نعني أنها لا ترقى إلى درجة طريقي التربية والتعليم والإعلام من حيث المردود الإيجابي السريع والمضمون، غير أنها قد تساعد على معالجة هذه الظاهرة بشكل أو بآخر.

ونرى أن في مقدمة هذه الطرق المساعدة ما يلي:

(١) أن يحرص طلاب العلم القادرون وأهل الاختصاص على تولي منابر التوجيه، وألا يزهدوا فيها مهما كانت أسباب ذلك الزهد نظرًا لما لتلك المنابر ومراكز التوجيه والتوعية من أثر بالغ في الناس إصلاحًا وإفسادًا، ولخطورة الدور الذي تلعبه في أوساط الأمة مما يضاعف مسئولية كل قادر على الإفادة والإصلاح والبناء للقيام بدوره المنتظر في الإصلاح، ومحاربة أمراض القلوب الفتاكة وفي مقدمتها مرض الهزيمة النفسية الذي تعاني منه الأمة أشد المعاناة وتتجرع غصص مرارة كأسه المترعة.

(٢) أن يحرص كل أب، بل وكل ولي أمر على القيام بحق ولايته لمن ولاه الله

أمرهم على الوجه المرضي لله عز وجل، وأن يستشعر مسئوليته الفردية تجاههم فيتقي الله فيهم ويسعى لتجنيبهم كل طريق يؤدي بهم إلى سخط الله عليهم وعقابه لهم منطلقًا في ذلك من فهمه العميق لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ...﴾ [التحريم: ٦] الآية.

وأن يعلم علم يقين أنه مسئول عنهم فعلاً، وأن الله سيحاسبه على تقصيره في أداء أمانته نحوهم بعدم تبصيرهم بما ينفعهم وحجزهم عما يضرهم، متذكرًا في ذلك حديث رسول الله ﷺ الصحيح الثابت «فالرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته»؛ فيسعى جاهدًا لتربيتهم تربية إسلامية خالصة تقوم على حب الله ورسوله، والاعتزاز بدينهم وعقيدتهم وافتدائها بالغالي والنفيس.

وحين تتربى أجيال الأمة كلها على ذلك لا يمكن لأية هزيمة نفسية أن تعشعش بينهم أو تجد للعيش بينهم سبيلاً.

ولو أن كل أب وكل ولي أمر مسلم استحضر هذه المعاني واستشعر عظم مسئوليته في ذلك فقام بواجبه في تربية أولاده التربية الإسلامية الحقة - لما كان هناك مرض نسميه الهزيمة النفسية أصلاً، ولما وجد الضعف والذل والهوان طريقًا إلى حياة المسلمين؛ لأن من أبجديات التربية الإسلامية التي يطلب الإسلام من الآباء تربية أبنائهم عليها استشعار القوة والعزة والعلو والغلبة ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٦]، ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، إلى غير ذلك من

الآيات الدالة على عزة المسلم وعلو شأنه وارتفاع قدره. فهل ينبغي لأتباع دين هذه بعض آياته وتعليماته وتوجيهاته أن يهنوا أو يذلوا أو يضعفوا أو يتبعوا لشرق أو لغرب أو ينهزموا في أنفسهم، فيرضون بالتبعية الذليلة بدل السيادة والقيادة والزعامة والعزة؟! اللهم لا، وألف لا!

(٣) ولعل مسك ختام حديثنا عن هذه الطرق المساعدة لعلاج هذه الظاهرة البالغة السوء يكون عن وجوب الإشادة بهذه الأوبة الحميدة من قبل جموع الشباب في معظم ديار الإسلام إلى ربها فيما اعتاد الكاتبون والمتحدثون أن يسموه (الصحوة الإسلامية)، وهي تسمية تقترب من الدقة فإنها أشبه بصحوة المستغرق في سباته أو الغارق في سكره؛ صحوة بعد طول تيه وضياع وتبدُّل أوضاع، وانتباه بعد رقدة طال مداها فأشفق الناصحون والغيارى من مغبتها وسوء عاقبتها، ولكن رحمة الله سبقت غضبه ـ سبحانه ـ فإذا بقطاعات كبرى من شباب الأمة تعود أدراجها إلى الله فتتصالح مع دينها وتسعى إلى التفقه فيه والعض عليه بالنواجذ.

إنها عودة إلى الله بعد أن كاد اليأس أن يدب إلى قلوب الدعاة، وصحوة جاءت دليلاً على أنه لا يصح إلا الصحيح، وأوبة إلى الخالق الديان طالت فترة انتظار المؤمنين لها. ولعمري إنها بقدر ما سرت أولئك المؤمنين وأثلجت صدورهم بقدر ما ساءت أعداء الإسلام وأقضَّت مضاجعهم، ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف: ٢١].

وحديثنا عن هذه التي يسمونها بالصحوة الإسلامية في أوساط الشباب ـ من الجنسين ـ خاصة ـ حديث يتعلق بالتنبيه على ضرورة العناية بهؤلاء الشباب تعليمًا وتوجيهًا وتربية وتزكية؛ حتى تؤتي هذه الصحوة المباركة ثمارها وتحقق

المأمول منها . أجل ، لابد من الاهتمام الشديد والتركيز البالغ على هؤلاء الشباب فلا يتركون لأنفسهم ولا للماكرين من أعداء الإسلام يستثمرون تلك الصحوة بخبثهم وطرائقهم الماكرة الخبيثة ، فتعود وبالاً وشراً بعد أن كان يرتجى منها الخير كل الخير للفرد والمجتمع والأمة على السواء .

وإن مسئولية ذلك كله لتقع على العلماء أولاً وأخيراً ؛ فهم محل القدوة لأولئك الشباب وهم محل القناعة لديهم ، فعلى أولئك العلماء أن يستثمروا ذلك التوجه الراشد من أولئك الشباب تفقيهاً لهم في دينهم وتزويداً لهم بما يقوي إيمانهم وعزائمهم ويشد أزرهم ويسد حاجتهم الملحّة إلى العلم الصحيح النافع ، والفقه الذي يعالج مشكلات الحياة المعقدة المعاصرة بكل وعي ودقة واقتدار .

ولعل فيما بسطنا القول فيه من ذكر طرائق علاج هذه الظاهرة الخطيرة والآفة المهلكة المدمرة المتمثلة في طريق التربية والتعليم وطريق الإعلام والتوعية والإرشاد كطريقين رئيسيين وأساسيين للعلاج المطلوب ، وفي حث القادرين على مزاولة وظيفة التوجيه والتوعية من ذوي الاختصاص والغيرة والحكمة على التصدي لهذه المهمة البالغة الأهمية والإمساك بمنابرها والانخراط في وسائلها ، وفي التنبيه لكل من ولاه الله أمراً لأحد من شباب المسلمين آباء وأمهات وذوي قربى أن يقوم بواجب تلك الولاية الخطيرة والمسئولية العظيمة ؛ نصحاً وتوجيهاً وتربية وتعليماً وتوعية وإرشاداً لمن ولاه الله أمرهم من بنين وبنات وذوي قربى ، وفي التذكير بعظم التبعة الملقاة على عاتق العلماء وجسامتها للعناية بصحوة شباب الأمة والعمل الجاد على ترشيدها وإيجاد المثل الصالح لهم والقدوة المخلصة التي يحتذي نهجها أولئك

الشباب الآيبون إلى ربهم العائدون إلى دينهم، وعدم تركهم لأنفسهم أو لغير العلماء المخلصين.

أقول: لعل فيما بسطنا القول فيه من ذلك ما يساعد على تخليص الأمة من آثار هذا الداء العضال والمرض الفتَّاك إن هي حرصت على ذلك وعملت له.

إنها طرائق مختلفة، منها ما هو أساس ومنها ما هو مساعد، والأساس منها يتعلق الأخذ به بالدول والحكومات التي تملك تحويل نظرياته إلى حقائق وأرقام، بينما الطرق المساعدة ليست متعلقة بالدول والحكومات بقدر ما هي متعلقة بالأفراد الذين وصل إحساسهم بهذه الظاهرة المرضيَّة الخطيرة ذروته؛ فقرروا أن يسيروا على هدي الأنبياء رسل هداية في أوساط أمتهم التي تعاني من آثار هذه الهزيمة المدمِّرة، يعالجون داءها ذاك بكل حكمة وغيرة وحب وحرص على شفائها وعافيتها. إنهم كالطبيب الذي لا يجرح إلا ليداوي، ولا يشق في الجسم شقاً إلا ليرقأ ما هو أعظم منه!

* * *

خاتمة

وبعد، فلقد حرصت في هذه العجالة أن أتناول موضوعًا رأيت أنه جدير بالتناول وحقيق بالمعالجة، حين وصفته بأنه قضية الساعة وموضوع المواضيع لم أعد الحقيقة، لما تبين من خطره وانكشف للمتأمل الفاحص من عظيم ضرره؛ ذلك أنه داء وبيل يصيب القلوب بالوهن، ومرض خبيث يقتل في الإنسان روح التطلع إلى الأفضل أو البحث عن الأحسن والأكمل والأجمل، فيجعله أسير عدوه ورهينة غازيه يرضى بأن يكون له تابعًا ذليلاً - ذلك هو مرض الهزيمة النفسية وداء التبعية الذليلة المترتبة عليها. ولئن كان قبيحًا من حيث هو بكل أحد فإنه بالمسلم أقبح، ولئن كان أمرًا معيبًا في حق كل أمة فإنه في حق الأمة الإسلامية أشد عيبًا؛ لما أكرمها الله به من دين الحق الخاتم المهيمن على الدين كله بحضارته السامقة، ومدنيته الراقية، ومنهجه الأصيل، وتشريعه الحكيم، وكتابه العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وهذا كله يجعل الحاجة إلى بحثه قائمة بل وملحة، ورغم ضيق الحيز المطروح للمعالجة إلا أنني حاولت التركيز في بحث هذا الموضوع الهام، فتطرقت إلى ما سبق من دراسات حوله، وهي وإن كانت لم تتناوله باسمه الذي تناولناه به إلا أنها من الكثرة والعمق والدقة والشمول على درجة كبيرة، وكيف لا والذين تناولوه أو بحثوه من كبار كتاب الأمة ومفكريها الغيورين عليها الحريصين على عزها واستمرار قوتها وازدهارها؛ كأبي الأعلى

المودودي رحمه الله، وأبي الحسن الندوي حفظه الله، ومالك بن نبي رحمه الله، والدكتور محمد محمد حسين رحمه الله، وغيرهم كثير.

وفي تحديد - حاولنا أن يكون دقيقاً - للمقصود بالهزيمة النفسية قلنا: إنها ذوبان في الشخصية، وتحلل من التبعات، ورخاوة في تناول شئون الحياة، وإخلاد إلى الدعة والسكون في ذلة وخور، وإقبال على المتاع الغليظ يعب منه المهزوم فلا يكاد يفيق.

وكان لابد من الإشارة إلى الجذور الأولى لهذه الهزيمة النفسية فرأينا أبا الحسن الندوي يحددها بانتهاء فترة الخلافة الراشدة وبداية عصر الملوكية العربية أو ملوكية المسلمين، بينما يرى في موضع آخر أن جذور تلك الهزيمة كانت غزو التتار لمملكة خوارزم شاه آخر مملكة إسلامية وكان ذلك في القرن السابع الهجري، ثم نراه يحدد بداية الهزيمة وجذورها في كتاب آخر بفجر القرن الرابع عشر الهجري.

وقد حاولنا أن نجمع بين هذه التحديدات الثلاثة لبداية الهزيمة النفسية قائلين: إن التحديد الأول يعني بداية الانحراف في المسيرة، بينما يعني الثاني بداية انهيار في النفسية الإسلامية، في حين أن التحديد الثالث والأخير يعني بداية الانهيار الكامل أو ما عبرنا عنه ببداية النهاية.

وتوقفنا عند تحديدات لبرنارد لويس في كتابه «الغرب والشرق الأوسط» لتلك الجذور ملخصها أنها تعود إلى الحملة الفرنسية ثم إلى الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م، وإلى تغيير السياسة الإنجليزية لمواقعها في الشرق بعد توسع النفوذ الألماني في تركيا، وإلى تبعثر الدولة العثمانية بعد هزيمتها وتحولها إلى مجموعة كيانات سياسية قامت على أشلائها.

وتكلمنا كلاماً طويلاً في مسألة الجذور حاولنا أن يكون موثقاً ومدعوماً

بالأدلة والمقتبسات اللازمة، وكان لابد من ذلك الكلام ومن التوسع فيه فيما نرى.

وفي تعداد لمظاهر تلك الهزيمة في مجال الفكر التربوي قلنا: إن في مقدمتها محاصرة التعليم الديني ماديًا ومعنويًا، والانشطار في التعليم أساسًا، وظهور تلك المناهج المزدوجة وتقسيم التعليم إلى تعليم ديني وتعليم آخر غير ديني، وإهمال الجامعات الإسلامية والمعاهد العريقة وتركها تصارع الفناء كما حدث للأزهر وجامع الزيتونة، والتوسع في الابتعاث إلى الدول الكافرة، وانتشار المدارس الأجنبية في البلاد الإسلامية، وتمييع المناهج الإسلامية واختصارها بحجة التطوير والإصلاح، والاختلاط في التعليم بين الجنسين، وترويج اللهجات السوقية المحلية المسمّاة بالعامية لتحل محل اللغة الفصحى، ومحاولة انتزاع الدراسات العربية من حضانة الدين والقرآن لنزع قداسة اللغة العربية وحرمانها من حماية الدين لها.

واتخاذ مجمع اللغة العربية ومكاتب جامعة الدول العربية ميدانًا لنشاط هدام كدعوة أحدهم في مجمع اللغة العربية بدمشق إلى تأليف معاجم محلية وذلك عام ١٣٧٦ هـ، ودعوة آخر إلى تبويب النحو وتدوينه من جديد، وإنشاء شُعَب للدراسات العربية الحديثة حذف من منهجها النحو والصرف والبلاغة والشعر العربي ونصوص الفصحى والأدب العربي والتاريخ الإسلامي والقرآن والحديث، كما حدث في إحدى كليات الآداب بإحدى جامعات البلاد الإسلامية.

واقتراح إنشاء شعبة للدراسات الإسلامية في كلية الآداب بكل الجامعات المصرية لتخريج مدرس الدين الإسلامي المرن الذي يستطيع أن يساير الزمن، بدل ذلك الأزهري المتخلف عن ركب الحياة.

واعتبار مادة التربية الإسلامية كما يسمونها مادة اختيارية، للطالب كامل الحرية في أن يؤدي الامتحان بها أو لا، رغم كونها حصة واحدة في الأسبوع... إلى مظاهر أخرى كثيرة.

كما لاحظنا في تعدادنا لمظاهر الهزيمة في مجال الفكر الإعلامي التناقض الواضح فيما يقدمه الإعلام في البلاد الإسلامية إلى درجة العبث وضياع الهوية الحقيقية للأمة في وسائل إعلامها، وتخبط تلك الوسائل في دياجير الحيرة والتيه، ونقل وسائل الإعلام عن الوكالات الأجنبية وصحافة الأعداء دون تمحيص أو تدقيق أو إعادة نظر، والانشطار الإعلامي المتمثل في تقسيم الإعلام في البلاد الإسلامية إلى برامج دينية وبرامج أخرى غير دينية، وصفحات للفكر الديني يفهم منها أن غيرها من الصفحات ليست كذلك! وتقديم الإعلام في البلاد الإسلامية للساقطين والساقطات كنموذج ونخبة وتسليط الأضواء عليهم ليكونوا المُثُلَ العليا للشباب من الجنسين.. إلى غير ذلك من المظاهر الكثيرة التي حاولنا استقصاءها.

وفي مجال النظام الاقتصادي حاولنا أيضًا رصد بعض تلك المظاهر التي من أبرزها التخلف الاقتصادي الظاهر في بلاد المسلمين، وعدم الاستخدام الكافي للطاقات المادية والبشرية، مما نتج عنه الفقر والجمود وافتقاد التوازن بشكل خطير في الهياكل الاقتصادية في الدول المسلمة، ووجود تناقض بين القيم الإسلامية الاقتصادية والاجتماعية وبين الأوضاع الاقتصادية الواقعية، والاستجابة السريعة لرغبات مديري شئون الاقتصاد الدولي ومدبري أمره، والوقوع في فخ الاستعمار الاقتصادي بتمكين الشركات العالمية الكبرى ذات التوجيه اليهودي من استغلال ثروات البلاد الإسلامية تحت ستار العمل الدولي. ومظاهر أخرى كثيرة أيضًا.

ووقفنا عند مظاهر الهزيمة في النظام السياسي فوجدنا أن في مقدمة تلك المظاهر نكبة المسلمين بإلغاء خلافتهم الإسلامية في تركيا ١٣٤٣ هـ-١٩٢٤م وعزل آخر خليفة للمسلمين وطرده، واحتلال معظم البلاد الإسلامية من قبل الدول الغربية في أواخر القرن الميلادي الماضي وأوائل هذا القرن، وتنازل الدول الإسلامية في ضعف وعجز عن شريعتها الإسلامية، وتحكيم القوانين الغربية الوضعية، واستجابة الدول الإسلامية منذ نصف قرن تقريبًا لخطة أعداء الإسلام في زعزعة استقرار البلاد الإسلامية عن طريق الانقلابات العسكرية المتكررة.

وقادنا البحث عن مظاهر للهزيمة في النظام السياسي إلى استعراض عدد من المظاهر الأخرى التي لا تقل عما ذكرناه خطورة وأثرًا، ومن أخطر ما تظهر فيه أمارات الهزيمة مجال السلوك فرديًا كان أو جماعيًا، وعند محاولتنا التعرف على بعض مظاهرها في هذا المجال رأينا أن من تلك المظاهر تقليد المهزومين من أبناء الأمة لهازميهم الغربيين في الملبس رجالاً ونساءً، وتقليد المرأة بوجه خاص للمرأة الغربية في التبرج والإسراف في استعمال الزينة، وتقليدهم في المأكل والمشرب نوعًا وطريقة تناول، وتقليدهم في طريقة الكلام وفي الحركة والمشي وفي لهوهم وعبثهم وفي مختلف أنماط حياتهم، وفي مرض خطير مدمر هو الاختلاط بين الجنسين في كل مكان.

وهكذا رأينا سلسلة لا تنتهي من التقليدات والمظاهر الخطيرة لهزيمة المسلمين في مجال سلوكهم الفردي والجماعي.

ثم تحدثنا عن خطرها في نطاق الفرد، وأشرنا إلى أن من أعظم أخطارها في هذا النطاق استخفاف الفرد بدينه واحتقاره له متصورًا أنه سبب ضعفه وعجزه وغلبة الغرب له وانتصاره عليه، كما تحدثنا عن أخطار كثيرة أخرى.

كما أشرنا إلى أخطارها في مجال الأسرة، وقلنا: إن من أبرز تلك

الأخطار تفكك الأسرة المسلمة نتيجة للسقوط في حمأة تقليد الغرب الكافر، والانسياق الأعمى وراء كل نحلة ترد منه أو تقليد منحط سافل يصدِّره إلينا.

أما أخطارها في نطاق الجماعة والأمة فإنهاكثيرة جداً حاولنا تعرية الكثير منها، وقلنا: إن انهدام الجدار العازل الذي أقامه الإسلام بين الإسلام والكفر قد جرَّ على الأمة ويلات كثيرة كان في مقدمتها القضاء على رابطة الإسلام ودولة الخلافة، كما رأينا من أخطارها في نطاق الجماعة والأمة إعراض الناس عن السنة وزهدهم فيها لعدم إمكانية الجمع بين اتباعها واتباع الغرب في آن واحد، واستعرضنا مظاهر أخرى.

ثم مضينا إلى تعداد أسباب حدوث تلك الظاهرة ونشوئها في أوساط المسلمين؛ فرأينا أن لها أسبابًا ذاتية نابعة من داخل الأمة، منها مثلاً إهمال العلوم العملية والمعارف الكونية، وجمود الفقه الإسلامي وانسداد باب الاجتهاد، وأفول الفكر الإسلامي، وتخلف المسلمين في مجال العلم التجريبي، وانتشار الجهل والأمية الدينية، والاعتماد على كتابات المستشرقين في إثبات الوقائع ودراسة التاريخ، إلى أسباب أخرى كثيرة.

كما أن هناك أسبابًا خارجية لا يد للأمة فيها، منها على سبيل المثال الحروب الصليبية والحملة الفرنسية على مصر والشام، والاحتلال الإنجليزي لمصر وحركة التنصير العالمية وفتح المدارس الأجنبية من قبل الغربيين في البلاد الإسلامية، والعمل من قبلهم أيضًا على إحياء الحضارات القديمة وتمجيدها، وإثارة النعرات الطائفية والمذهبية بين المسلمين... إلى غير ذلك من الأسباب التي حاولنا استيفاءها حسب الإمكان.

ثم دلفنا إلى طرق علاج هذه الظاهرة ووسائل القضاء عليها، وركزنا على

طريقين رأينا أهميتهما البالغة في مجال التوجيه العام، هما: (التربية والتعليم)، و(الإعلام) الذي عبرنا عنه في بحثنا بالتوعية والإرشاد، وركزنا في حديثنا عن علاج هذه الظاهرة من طريق التربية والتعليم على إصلاح النظام التعليمي الإسلامي بكامله لفساده وانحرافه عن النهج الإسلامي الصحيح؛ ذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه.

وقلنا: إننا إذا أردنا أن نعالج هذه الظاهرة عبر هذا الطريق الهام وهو طريق التربية والتعليم، فإنه يلزمنا إصلاح النظام التعليمي ومقومات العملية التربوية والتعليمية، وهي المنهاج والمعلم والكتاب المدرسي ووسائل الإيضاح، فإذا استقامت جميعها وصلح أمرها أمكننا الإفادة منها في علاج هذه الظاهرة الخطيرة لأهمية ميدان التربية والتعليم واحتوائه على عصارة الأمة وزهرتها وهم شبابها وأبناؤها، الذين إذا استطعنا علاجهم من آثار هذه الظاهرة وهذا الداء العضال - انطلقنا نصلح بهم غيرهم ونعالج بهم بقية المرضى بهذا الداء من فئات الأمة المختلفة.

ثم ختمنا الحديث عن طرق العلاج بالكلام على الطريق الثاني الذي لا يقل عن طريق التربية والتعليم أهمية وخطورة، وهو طريق التوعية والإرشاد (الإعلام)، فطالبنا أيضًا بإصلاح نظامه وبرامجه، وأن يختار لقيادته أناس يجمعون بين الالتزام بدينهم والإيمان المطلق بعظمته والحماس له وبين الخبرة اللازمة في مجال الإعلام.

كما طالبنا بالقضاء على الانشطارية الحاصلة في هذا المجال؛ إذ لا يليق بأمة الإسلام أن يكون إعلامها ذا وجهين فوجه إسلامي ووجه يتنكر للإسلام، والقضاء على التناقض الحاصل في برامجه وخططه؛ إذ تجد الشيء ونقيضه في الإذاعة الواحدة والصحيفة الواحدة والتلفاز الواحد.

وقلنا: إن وسائل الإعلام عبارة عن مدرسة إلزامية تدخل كل بيت وتصافح كل عين وتلامس كل أذن، وإنها جامعة مفتوحة يستفيد منها الصغير والكبير والرجل والمرأة بمختلف المستويات والطبقات، مما يعني أن الاستفادة منها - إذا صلحت واستقامت - ستكون محتمة في مجال علاج هذه الظاهرة والقضاء عليها حيث ستكون خططها أساساً قائمة على تعميق حب المسلمين لإسلامهم وإثارة الاعتزاز به في نفوسهم، وربطهم به في كل وقت وحين عبر البرنامج والتمثيلية والخبر والتقرير و«الريبورتاج»، وغير ذلك من ألوان الإيصال ووسائل التأثير، وسيكون علاج هذا المرض - مرض الهزيمة النفسية - أنجع ما يكون بواسطة هذه الوسائل بعد إعادة صبغها بالصبغة الإسلامية، وجعلها تعبر عن عقيدة الأمة وتنطلق منها، لما ذكرناه من كونها تخاطب كل فرد وكل فئة من أفراد المجتمع وفئات الأمة.

وعلاج هذه الظاهرة عن طريق ميداني التربية والتعليم والتوجيه والإرشاد سيحقق نتائجه وثماره المرجوة بمجرد تحقق الإصلاح في كل منهما على الوجه الذي ذكرناه وأشرنا إلى شيء من تفاصيله، باعتبار أن الانحراف الملحوظ الآن ومنذ زمن بعيد في كل من الميدانين - رغم أهميتهما البالغة - من أعظم أسباب ارتكاس الأمة في قعر هذه الهزيمة النفسية القاتلة والذل النفسي المخزي، فكأني بهما إذا صلحا انقلبا من أعظم أسباب الشفاء من هذا الداء والعافية من هذا المرض الفتاك، بمجرد تغيير أوضاعهما إلى الأحسن والأفضل وانقلابهما من أداتي هدم إلى وسيلتي بناء وإعلاء وإصلاح، فكيف بهما إذا أعدت عَبْرَهما خطط المعالجة ووضعت ضمن مناهجهما ومشاريعهما برامج الشفاء ورفع الغشاوة عن عيون جماهير الأمة، وتبصيرها بالخطر الداهم الذي تعيش فيه منذ أمد بعيد متمثلاً في ذوبانها الكامل وانحلالها وتقليدها للغرب في كل

شيء؛ كل شيء على الإطلاق، وإفهامها أنها إن أرادت العزة والعيش في ظلال الكرامة فلا بديل لها عن الأخذ بالإسلام في كل شأن من شئونها، وعن العودة إليه بصدق وإيمان تعض عليه بالنواجذ وتُحكِّمه في الجليل والحقير من أمورها.

أقول: كيف بذينك الميدانين إذا جعلا مهمتهما الأساسية السعي إلى شفاء الأمة من دائها وعافيتها من مرضها المزمن؟!

إنني لكبير الأمل وعظيم الثقة في أن نجاحًا كبيراً سيتحقق من جراء ذلك وأن شفاءً كبيراً سيتم بإذن الله من ذلك الداء، وأن الأمة ستنطلق مجددًا نحو إسلامها تتمثله في كل حركة وسكون، وستمضي بحول الله تعيد سيرة سلفها الصالح وأمجادهم التي كانت مضرب الأمثال، وأنها ستسعى إلى الغرب الغازي الآن لتغزوه بإسلامها، وتدعوه إلى دينها، فذلك هو قدرها وهو واجبها الذي لا عذر لها في التخلي عنه أبداً.

إن هذه الهزيمة التي تعيشها الأمة دور من أدوار تاريخ الأمم الذي يتذبذب بين الصعود والهبوط، ولكن خطورتها في كون الغزو هذه المرة يعتمد على العلم ويستخدمه سلاحًا للتغريب والعلمنة وحرب الإسلام.

ولكن - ورغم ذلك - فإن أمر الله هو الغالب وإرادته هي النافذة - جل جلاله - وسيكون مآل كل خطط أعداء الإسلام لغزو المسلمين الفشل الذريع والاضمحلال - رغم ما يُرى الآن من ضخامة الآثار وعظيم الخطر - ذلك أن الله سبحانه قد حكم في محكم تنزيله بذلك حين قال عز من قائل: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٦]، غير أن ذلك لا يُعفي المسلمين من العمل على

إفساد تلك المخططات وإفشالها والقضاء عليها، بل إن ذلك لواجب من أعظم الواجبات ومهمة تأتي على رأس المهمات وأولوية تسبق كل الأولويات.

أجل إن واجب كل مسلم واع مدرك للخطر متنبه لما يراد بأمته وما تساق إليه، بل ما سيقت إليه منذ أزمان، أن يعمل بكل ما أوتي من قوة، وبكل وسيلة ممكنة وطريق متاح، لتبصير أمته بالأخطار التي هددتها وتهددها بالإتيان على البقية الباقية منها.

وإن واجب المسئولين في كل دولة إسلامية لواجب مضاعف، وخاصة مسئولو ذينك الوجهين الخطيرين وذينك الميدانين الهامين - بل بالغي الأهمية - أعني ميداني «التربية والتعليم» و«الإعلام»، اللذين ركزنا عليهما في الحديث عنهما كوسيلتين من وسائل معالجة الداء وصنع الدواء.

إن الواجب على المسئولين عنهما في كل بلد إسلامي واجب مضاعف أكثر من مرة، بأن يتقوا الله في أمتهم ويخافوا الله فيما ائتمنوا عليه من رعايتها وتوجيهها؛ فلا يكونوا عوامل هدم لعقيدتها مساعدين لأعدائها عليها بنشر أفكارهم ومبادئهم ونظمهم ومناهجهم وطرائقهم وفرضها على الأمة وإلزامها بالسير في ركابهم، فالذي يفعلونه من ذلك كله جريمة كبرى في حق أمتهم وفي حق أنفسهم وفي حق دينهم.

وأود قبل أن أختتم خاتمة بحثي هذا أن أشير إلى لون من الانهزام لم أتعرض له لعدم دخوله في منهج البحث، لكني أجد نفسي مدفوعًا للتعرض له هنا ولو بأسطر قليلة وإن كان الحديث عنه يحتاج إلى الكثير من الصفحات؛ ذلك هو الانهزام في مجال الأدب ومناهج النقد مما ابتلي به طائفة من الأمة - بل طوائف - تنكرت لدينها وللغة دينها ولتراث آبائها وأجدادها؛ فراحت تتبع

كل ناعق وتصفق لكل ساقط وتمدح كل زنديق، في ثورة عارمة على كل قديم ولو كان ذلك القديم هو الإسلام نفسه!

تلك الطائفة التي استمرأت سموم الكفرة الزنادقة الملحدين فأصبحت تنظر إليها أنهارًا من عسل ولبن، تقتفي آثارهم وتستورد مبادئهم ومناهجهم وتفرد صفحاتها وساعاتها للحديث عنهم وتمجيدهم وإعلائهم، وأولئك الممدوحون والمثني عليهم ما بين شيوعي ملحد أو نصراني حاقد أو يهودي فاجر داعر أو متحلل من الإسلام ثائر عليه!!

إنني أعني بسطوري هذه من يسمون أنفسهم بـ«الحداثيين» أو «أهل الحداثة»، تلك الحداثة التي تنكرت لعقيدتها بتمجيدها لأعداء عقيدتها وازدرت دينها بمدحها لمن ازدرى دينها، وتحللت من إسلامها بوضعها يدها في أيدي المتحللين من الإسلام الساخرين منه المستهزئين بالله ورسوله وكتابه وصالح المؤمنين.

إن تلك الحداثة بمفاهيمها الخفية والمعلنة انهزام خانع أمام أعداء الإسلام في مجال الأدب والنقد؛ لأنها في واقع الأمر استبدال للأدنى بالذي هو خير، ورضى بمناهج الغرب والشرق الكافرين وتفضيل لها على منهج الإسلام الراقي في أدبه ونقده وسائر فنونه.

ومهما ادعى أصحابها كونها مذهبًا أدبيًا ليس غير، ومهما ادعوا أن البنيوية والألسنية والتشريحية وما شاءوا غير ذلك، إنما هي أيضًا مذاهب أدبية لا تتجاوز الشكل إلى المضمون ولا تتعدى المبنى إلى المعنى. أقول: مهما ادعوا ذلك فإننا نقول لهم: ليس ذلك صحيحًا أبدًا، بل هي مذاهب فكرية عقائدية أصولها إما شرقية أو غربية، وهي لون من ألوان الغزو الثقافي المدمر

الذي اجتاح - وما زال يجتاح - ديار الإسلام، والذي أنتج هذه الهزيمة النفسية التي دمرت كيان المسلمين وجعلتهم خرافًا تقاد إلى المذبح!!

إن تلك الادعاءات لن تنطلي علينا وعلى المتابعين المدركين للأخطار المحدقة بأمتهم.

وأما المجاهرون بالإثم الوالغون منهم في موالاة الكافرين ومحبتهم وتفضيلهم على المؤمنين، فإثمهم أكبر وخطرهم أعظم وجزاؤهم عند الله أشد وأنكى، وهؤلاء المُدَّعون وأولئك المجاهرون جميعًا قد خانوا الأمة في أدبها ومناهج نقدها وصحافتها و«ملاحقها الأدبية»، وارتكبوا إثمًا مبينًا في حق أنفسهم بموالاتهم لأعداء الله وصرفهم الجهود والأوقات في الدعاية لهم وامتداحهم والثناء عليهم والحديث عنهم.

إننا نحذر الفئتين غضب الله ومقته وانتقامه ونذكرهم بقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، وقوله جل ثناؤه: ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤].

إنها كلمات وجدتني مضطرًا لاستدراكها وأنا أبحث في موضوع الهزيمة النفسية، التي أعتقد أن هذه الحداثة وما شاكلها من المبتدعات الأدبية والنقدية أحد مظاهرها.

أقول: وجدتني مضطرًا لأقول ولو بضع كلمات عن هذا المظهر الخطير من مظاهر الهزيمة في مجال من أخطر المجالات وأهمها وهو مجال الأدب والنقد

واللغة؛ لعظيم الضرر المترتب على شيوع هذه المصطلحات القديمة الجديدة في آن واحد.

وخطورة تركها دون التنبيه عليها في بحث كهذا يتعرض لمشكلة من أعتى المشكلات التي تعاني منها الأمة الإسلامية، وهي المشكلة المتمثلة في ظاهرة الهزيمة النفسية؛ فهل بعد هذا النقل البليد لمناهج الغرب والشرق الكافرين في مجال الأدب والنقد وتطبيقها على أدب الأمة نثراً وشعراً ونقداً من انهزام؟! وهل بعد هذا الذل الفاضح من ذل؟!

وفي ختام بحثي هذا أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله خالصًا لوجهه، وأن أكون قد وفقت لتحقيق ما قصدت إليه من إبراز خطر هذه الظاهرة ولفت الأنظار إليها، وطرح أساليب معالجتها والقضاء عليها.

كما أسأله سبحانه أن ينصر دينه ويعلي كلمته ويحقق للمؤمنين به وعده، وأن يكبت كل عدو للإسلام والمسلمين، ويخذل كل من أراد بالإسلام والمسلمين شراً، وأن يزيل عن أعين المسلمين في كل صقع من ديارهم ما علق بها من غشاوة وما علق بقلوبهم من صدأ، وأن يردهم إليه رداً جميلاً. إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

مراجع البحث

١ - أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي. د. علي جريشة، ومحمد شريف الزيبق.

٢ - الإسلام روح المدنية. الشيخ مصطفى الغلاييني.

٣ - التبشير والاستعمار. د. مصطفى الخالدي، د. عمر فروخ.

٤ - التقليد والتبعية وأثرهما في كيان الأمة الإسلامية. ناصر بن عبد الكريم العقل.

٥ - التطور والثبات في حياة البشرية. محمد قطب.

٦ - جذور البلاء. عبد الله التل.

٧ - الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا. د. يوسف القرضاوي.

٨ - الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي. ماجد كيلاني.

٩ - دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين. مالك بن نبي

١٠ - رسائل الإصلاح ١، ٢. محمد الخضر حسين

١١ - شروط النهضة. مالك بن نبي

١٢ ـ صحوة التدين والواقع المعاصر.	د. عقيل النشمي.
١٣ ـ ظلام من الغرب.	محمد الغزالي.
١٤ ـ الغارة على العالم الإسلامي.	تعريب وتلخيص محب الدين الخطيب ومساعد اليافي.
١٥ ـ الغرب والشرق الأوسط.	برنارد لويس.
١٦ ـ الغزو الفكري أهدافه ووسائله.	د. عبد الصبور مرزوق.
١٧ ـ الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام.	مجموعة بحوث مقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي.
١٨ ـ غزو في الصميم.	عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.
١٩ ـ كفاح دين.	محمد الغزالي.
٢٠ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟	أبو الحسن الندوي.
٢١ ـ مستقبل الإسلام في القرن الخامس عشر.	د. محمد البهي.
٢٢ ـ باطن الإثم. الخطر الأكبر في حياة المسلمين.	د. محمد سعيد رمضان البوطي.
٢٣ ـ معالم الثقافة الإسلامية.	د. عبد الكريم عثمان.
٢٤ ـ المنهزمون دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة.	يوسف العظم.
٢٥ ـ هل نحن مسلمون.	محمد قطب.

٢٦ - واقعنا المعاصر. محمد قطب.
٢٧ - وجهة العالم الإسلامي. مالك بن نبي.
٢٨ - المسلم في عالم الاقتصاد. مالك بن نبي.
٢٩ - رسائل الإمام حسن البنا.
٣٠ - الصحافة والأقلام المسمومة. أنور الجندي.
٣١ - المد الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر. أنور الجندي.
٣٢ - قضايا الفكر الإسلامي المعاصر. الندوة العالمية للشباب الإسلامي.
٣٣ - لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ شكيب أرسلان.
٣٤ - الإسلام والحضارة الغربية. د. محمد محمد حسين.
٣٥ - البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر الثالث للسيرة والسنة النبوية بالدوحة.
٣٦ - الأساس الإسلامي لمناهج التربية والتعليم. للشيخ أحمد بن عبد العزيز المبارك.
٣٧ - التربية الإسلامية الحرة. أبو الحسن الندوي.
٣٨ - حتمية الحل الإسلامي
تأملات في النظام السياسي. د. أبو المعاطي أبو الفتوح.
٣٩ - الحكومة الإسلامية. أبو الأعلى المودودي.

٤٠ ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. د. محمد محمد حسين.
٤١ ـ الإسلام اليوم. أبو الأعلى المودودي.
٤٢ ـ دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية. د. عبد الحليم عويس.
٤٣ ـ بروتوكولات حكماء صهيون. ترجمة محمد خليفة التونسي.
٤٤ ـ مؤامرات ضد المرأة المسلمة. محمد عطية خميس.
٤٥ ـ الإسلام على مفترق الطرق. محمد أسد.
٤٦ ـ من المسئول عن تخلف المسلمين. د. محمد سعيد رمضان البوطي.
٤٧ ـ الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي المعاصر. أنور الجندي.

* * *

الفهرس

مقدمة ٧
مدخل : في تحديد المقصود بالهزيمة النفسية ٤١
تمهيد : الجذور الأولى للهزيمة النفسية في الأمة الإسلامية ٥٣
الفصل الأول : مظاهر الهزيمة النفسية وخطرها ٧٩
المبحث الأول : مظاهر الهزيمة النفسية في المسلمين ٨١
المطلب الأول : مظاهرها في مجال الفكر ٨١
أولاً : في الفكر التربوي ٨١
ثانيًا : في الفكر الإعلامي ٩٣
المطلب الثاني : مظاهرها في مجال النظم ١٠٧
أولاً : في النظام الاقتصادي ١٠٧
ثانيًا : في النظام السياسي ١١٥
المطلب الثالث : مظاهرها في مجال السلوك :
الفردي والجماعي ١٣٥
المبحث الثاني : خطر الهزيمة النفسية للمسلمين ١٥٥
في نطاق الفرد ١٥٥

في محيط الأسرة ١٦١
في نطاق الجماعة والأمة ١٦٨
الفصل الثاني: أسباب الظاهرة وعوامل تكوينها ١٧٧
أسباب وعوامل ذاتية ١٧٩
أسباب وعوامل خارجية ١٩٧
الفصل الثالث: طرق علاج هذه الظاهرة ووسائل القضاء عليها : .. ٢٠٧
طريق التربية والتعليم ٢١١
طريق التوعية والإرشاد «الإعلام» ٢٣٥
خاتمة ٢٤٧
مراجع البحث ٢٦١
الفهرس ٢٦٥

لأعمال الكمبيوتر